رواية

عثمان صبري

بيت سري

مختارات الكرمة

t.me/qurssan

عثمان صبري

بيت سري

رواية اجتماعية أدبية

أول كتاب مكتوب «باللغة العربية الحديثة»

302 دقيقة ممتعة من «بيت سري»

t.me/qurssan

الكرمة

لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © عثمان صبري ١٩٨٢

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب

بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

صبري، عثمان.

بيت سري: رواية / عثمان صبري – القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٧.

تدمك: 9789776467507

١ – القصص العربية.

أ – العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣١٤٨ / ٢٠١٦

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

لوحة الغلاف: سيف وانلي، ((سيد شعير))، ١٩٧١

t.me/qurssan

تنويه

نظرًا لطبيعة هذا الكتاب الخاصة التي ذكرها المؤلف، واتباعًا لقواعده الخاصة باللغة التي جاءت في المقدمة، التزم الناشر بما جاء في نسخة الكتاب الأصلية (المطبوعة سابقًا)، ولم يتم تطبيق القواعد النحوية أو الإملائية أو اللغوية أو قواعد النشر الخاصة بـ ((دار الكرمة)) فى هذا الكتاب، حتى تبقى لغته وأسلوبه كما جاءت في الأصل، وحتى لا يخرج الكتاب عن مضمونه وهدفه الذي أراده المؤلف.

t.me/qurssan

مقدمة

هذه رواية أخلاقية اجتماعية أدبية مكتوبة بأسلوب جدي وراءه خلفية فكاهية . موضوعها يمثل صراع قام في نفس شيخ تقي مستقيم، ما بين ضميره وشرفه ودينه من جهة وبين الحصول على المال - حتى ولو كان حرام - والنجاح والوصولية من جهة أخرى . أي بين الفضيلة والرذيلة.

قد تبدو هذه الرواية لأول وهلة في تفاصيل حوادثها أنها غير أخلاقية ومن الأدب المكشوف المثير للسكس (*) ولكن ذلك يتوقف على أسلوب الرواية في معالجته للموضوع وبالنتيجة اللي انتهت إليها حوادثها.

والرواية من هذه الجهة تعتبر أخلاقية أدبية، لأن أسلوبها لا يحوي أي وصف فيه إثارة سكسية - كما يوجد في كثير من الروايات الأدبية المصرية . أما من جهة موضوعها فإنه كان لا بد للرواية من أن تخوض بالقارئ عبر قاذورات مستنقع الرذيلة لتصل به لبر الأمان النظيف.

ظهرت في عالم الأدب الرواية اللي تعالج السكس وأوكار الفجور قبل وبعد القرن التاسع عشر اللي ظهرت في أواخره عدة روايات من هذا النوع مثل: ((مدام بوفاري)) تأليف فلوبير - اللي حوكم من أجلها سنة ١٨٥٨ مع أنها تعتبر بالنسبة لما يكتب اليوم مثال الوقار والحشمة، و ((الغانية إليزا)) لإدمون دو جونكور، و ((نانا)) و ((الأرض)) تأليف زولا، و ((سافو)) تأليف دوديه، و ((مهنة مسز وارن)) تأليف برنارد شو، وغيرها . وفي مطلع القرن العشرين ظهرت رواية ((ماجي)) تأليف ستيفن كرين الأمريكي، و ((ياما)) لمؤلفها الكسندر كوبرين (سنة ١٩١٤) في روسيا القيصرية المتدينة المتعصبة، و ((مدار السرطان)) تأليف هنري ميللر، و ((عشيق ليدي شاترلي)) تأليف لورنس، والرواية الرائعة ((أوليس)) تأليف جيمس جويس (سنة ١٩٢٢) ، وحتى ((بايتن بليس)) لمؤلفتها متاليوس . وكل هذه الروايات تعتبر من الأعمال الأدبية الفنية لأنها لا تتناول السكس الا بصفة عرضية لتبرز [illegible] والقدر اللي تحتاجه الرواية

t.me/qurssan

لبناء موضوعها الاجتماعي والأدبي وليس للإثارة السكسية.

كـذلك طغـت الآن فـي ميـدان المسـرح والسـينما موجـة مـن مسـرحيات وأفـلام الجنـس والبغـاء، ففـي المسـرح اشـتهرت مسرحية ((الشعر وأوكلكتا)) وغيرها، وفي السينما عرض في مصر سنة ١٩٦٧ فيلم ((A House is not a Home)) و فيلم ((Irma la douce)) تدور حوادثهما في مواخير عامة، ثم انفتح الباب على مصراعيه فظهرت أفلام عري وسكس مثل ((أمانويل)) و ((التانجو الأخير في باريس)) وغيرها.

أما في عالم التصوير فالسفور السكسي بلغ مداه، فبعد أن كانت القوانـين تعـاقب مـن يبـيعوا سـرا الصـور السـكسية الفاضـحة، أصبحت هذه الصور تعرض علانية في معارض حكومية عامة تعرف باسم ((Exposition d'art érotique)) منتشرة خصوصا في البلاد الاسكندينا فية.

انتهى عصر الحياء والحشمة في العرب اللي أصبح ينظر للعملية السـكسية كأنـها ظـاهرة فسـيولوجية طبيعيـة كـالأكل والشـرب والتبـرز، حتـى أخـذ الكتـاب الأدبـاء يـذكروا أعضـاء التناسـل بأسماءها كما يذكروا الفم والأنف والأذن.

كما قام من جهة أخرى فريق من العلماء في الغرب جعلوا من السكس علم يد رسـوه ويبحثـوه ويؤلفـوا فيه علميا، حتى إنه توجـد هنـاك عـدة مجلات خاصة بالسكس، كما توجد بإنجلترا دائرة معارف للسسكس.

*

لـئن وجـد القـارئ فـي حـديث أحـد أبطـال هـذه الروايـة المدعو غربـاوي أقـوال تهاجم الفضيلة والأديان، فليس هذا مما يؤخذ على الرواية، لأنه من المعروف أن الروائيين يصوروا في رواياتهم شتى صور الرذيلة والانحلال الخلقي في أشخاص يجروا على ألسنتهم الأقوال المناسبة لأفعالهم وعقليتهم وتعكس ما يدور في نفوسهم الشريرة دون أن يعترض على ذلك معترض لأن ناقل

t.me/qurssan

الكفر ليس بكافر.

لذلك ما كنت لأستطيع أن أجعل غرباوي - المقامر القواد تاجر المخدرات – يتكلم بلغة الأبرار الصالحين ما دام الكلام يجب أن يكون المرآة اللي تعكس شخصية المتكلم.

قال الروائي الشهير سومرست موم(*): ((الهدف الحقيقي لكاتب الرواية ليس التعليم وإنما الإمتاع))، وكذا قال: ((كذلك من سوء الفهم أن تستعمل الرواية كمنبر للوعظ)) . وكتب الشاعر الناقد الكبير إليوت في جواب لصديق له: ((يجب أن نقدم أفكارنا إلى الجمهور من خلف ظهره ومن خلف ستار من التسلية حتى ولو كان ذلك عن طريق النساء اللي يتجردوا من ثيابهم)) .

منذ عهد سقراط وأفلاطون لليوم يقوم الجدل بين مبدأين: ((الفن من أجل الأخلاق))، و ((مبدأ الأخلاق من أجل الفن))، حتى ظهر أخيرا مبدأ ثالث هو ((الفن من أجل الفن))، ولا يتسع المقام لمناقشة هذه المبادئ.

إلا أنه يمكن القول بأنه ربما كان فصل الخطاب في هذا الموضوع هو هذه الحكمة اللي قالها إسكندر دوما الابن قبل نحو قرن: ((لا توجد مسرحيات مخالفة للأخلاق ولا مكشوفة ولا مقرفة وإنما هناك مسرحيات رديئة الصنع)) . ثم جاء بعده أوسكار وايلد فكرر هذه الفكرة بقوله: ((ليس هناك كتاب أخلاقي وكتاب مخالف للأخلاق وإنما هناك كتاب جيد وكتاب رديء)).

لذلك أظن أنه يمكنني أن أستعير في هذه المقدمة ما قاله صمويل كليمنز في مقدمة روايته الشهيرة ((هكلبري فين)) وهو قوله: ((الأشخاص اللي يحاولوا أن يجدوا هدف في هذه الرواية سيحاكموا جنائيا، وأولئك اللي يحاولوا أن يجدوا فيها غرض أخلاقي سينفوا خارج البلاد، أما أولئك اللي يحاولوا أن يجدوا فيها حبكة روائية فسيضربوا بالرصاص)).

معنى كل هذا الكلام أنه يكفي لنجاح أي رواية أن تكون مجرد كلام مسلي و لطيف أيا كان نوعه، ما دام أكبر عدد من القراء

t.me/qurssan

يجد فيه متعة ولذة، ولا بد من أن القارئ سيخرج من الرواية بفائدة ما ربما دون شعور منه، فعندما يقرأ الإنسان رواية جيدة يكون بيتعلم ويتسلى أو بيتسلى ويتعلم دون أن يدري .

*

تجنبت على قدر الإمكان في كتابة هذه الرواية، الحشو والبسط والمط والتعليق وما يسمى ((بالديالوج الباطن)) والإسهاب في الوصف اللي يمل منها القارئ، فقد انتهى زمن بالزاك وثاكري والأخوات برنتي وفرجينيا ولف وبروسست.

ومن الأسف أن الرواية المصرية لا تزال تنحو هذا النحو، بل إن الأقصوصة المصرية جاوزت هذا الحد فأوغلت فيما يسمى بالشعر المنثور، فتقدم لك عبارات منمقة وخيالات شعرية ولا تجد فيها شيء من فن القصة.

*

أفسحت المجال في هذه القصة، على قدر الإمكان، للحوار الشيق الطبيعي الحي لاعتقادي بأنه هو اللي يتيح للقارئ أكبر متعة ذهنية ويفتح أمامه آفاق فكرية مترامية الأطراف خصوصا وأنه مركز، كل كلمة فيه بمقياس و ((في المليان)).

هذا فضلا عن أن لغة الحوار هي اللي ترسم الشخصية الروائية، ورب جملة ترسم الشخصية أكثر من وصفها في عدة صحائف، بل إن لغة الحوار قد تبين محل إقامة الشخص ومهنته ودرجته من الثقافة وبيئة كما قال برنارد شو على لسان بطل مسرحيته ((بيجماليون)).

*

كذلك أظن أن هذه الرواية اشتملت على كثير من السفسطة أو المفارقات أي البرادو كس ((Paradoxe)) (وهي فكرة تخالف المتفق عليه) اللي هو أهم العوامل في نجاح أي رواية أو أي عمل أدبي أو فني لأنه رياضة فكرية تحرك مخ القارئ وتدفعه

t.me/qurssan

للاشتراك مع أشخاص الرواية في نقاشهم . قال أحد النقاد: ((إذا لم يكن عندك جديد تكتبه فلاتكتب)).

لغة هذه الرواية

قمت منذ بضع سنوات أدافع عن اللغة العامية باعتبارها لغتنا المصرية لأنها لغتنا الأمية اللي بنرضعها مع لبن أمهاتنا وأدعو للكتابة بها، ورأيت أن أكبر دليل أقدمه على مرونتها وقوتها هو تقديم مثال ناجح عملا بقول أحد الفلاسفة: ((بتقديم مثال واحد يقنع أكثر من الشرح والوصف في عشرات الصحائف))، فنشرت نموذجا لها روايتي الفكاهية الاجتماعية الفلسفية ((رحلة في النيل)) .

والآن رأيت أن أدعو لتوحيد لغة الكلام والكتابة، وبالتالي القضاء على ازدواجية اللغة، وذلك باستعمال ما سميته ((اللغة العربية الحديثة)) اللي ظل العالم العربي ينشدها طوال القرون لأنها توحد اللغة المحلية الإقليمية بين جميع طبقات الأمة، فتقضي بذلك على ازدواجية اللغة في كل البلاد الناطقة بالعربية كما توحد اللغة فيما بينها، فكتبت فى شرح نظريتي هذه كتاب عنوانه ((نحو لغة عربية حديثة))، يحتوي على دراسة لغوية عميقة ويقع فيما يقرب من ٣٠٠ صفحة إلا أنه لم يتيسرلي نشره.

وعملا بفكرة تقديم المثال أو النموذج الصالح المذكورة آنفا كتبت بهذه اللغة الجديدة هذه الرواية ((بيت سري))، اللي كانت في حاجة لمقدمة تشرح لغتها الجديدة فرأيت أن أختصر كتابي سالف الذكر ليقوم بدور هذه المقدمة.

إلا أني وجدت أن ذلك المختصر لكتابى ((نحو لغة عربية حديثة))جاوز الحجم العادي لمقدمة رواية ففضلت أن أطبعه منفصلا عنها حتى لا أحمل قارئ الرواية العادي ثمن ذلك البحث اللغوي، على أن يقتنيه ويرجع إليه المهتمين بالأبحاث اللغوية.

لهذه الظروف رأيت أن ألحق بهذه الرواية هذه المقدمة المختصرة (بالنسبة للمقدمة المنفصلة اللي هي بدورها اختصار

t.me/qurssan

للكتاب سالف الذكر)، لتعطي لقارئ الرواية العادي فكرة عامة من لغتها والنتيجة اللي وصلت لها.

أكثر ما يجذب جمهور القراء هو الفكاهة والسكس، لذلك استعملت العامل الأول في روايتي ((رحلة في النيل))، وها أنا أستعمل العامل الثاني في روايتي هذه لأن هدفي الأول من كتابة هاتين الروايتين هو الدعاية لاستعمال لغتهم، فأنا صاحب رسالة يهمني أن أجذب لها الأتباع والأنصار وليس أن أكون روائي كبير. قال النبي (صلى الله عليه وسلم) لأحد أصحابه: ((اجتهد فإن أصبت كان لك عشر حسنات، وإن أخطأت كان لك حسنة واحدة)).
وأنا اليوم بنشري هذه الرواية أقوم بتجربة لغوية رائدة في سبيل توحيد اللغة العربية في القرن العشرين، فإن أصبت فحسبي من الحسنات العشر أن أكون أديت للعالم العربي خدمة عظمى، أما إن أخطأت فستكون لي حسنة القيام بتجربة رائدة كان يجب القيام بها وهي إن لم تنجح اليوم فربما نجحت غدا، ولا أشك في أن الشباب سوف يحمل شعلتها عاليا.

ما هي اللغة العربية الحديثة؟

اللغة العربية الحديثة اللي أنادي بها تخلص في كلمة ونصف فيما يأتي:

كلنا نسعى للقضاء على ذلك الداء العضال اللي بيقسم أمتنا لقسمين: المتعلمين وغير المتعلمين، ونقصد به ازدواجية أو ثنائية اللغة واختلاف لغة الكتابة عن لغة الكلام، فاللغة المكتوبة عندنا وقف على الفئة المتعلمة ولا تتجاوزها للقاعدة العريضة الشعبية في هذا العصر اللي شعاره ((العلم للملايين)).

لذلك حاول كثير من الأدباء وعلماء اللغة التوحيد بين لغة الكلام ولغة الكتابة، واقترح بعضهم لذلك ما سموه ((باللغة الثالثة))أو ((اللغة الوسطى))أو ((اللغة الفصحعامية))، ولكن لم يظهر لها في هذا الميدان أي أثر . وها أنا أقدم بهذه الرواية ((اللغة العربية

t.me/qurssan

مخلوقة وإنما هي اللغة اللي يتكلم بها المتعلمين اليوم ويستعملها حتى أساتذة الأدب الجامعيين في مناقشاتهم الأدبية واللغوية.

لا نستطيع الاستمرار في استعمال العربية الفصحى كما هو الآن لأن العالم لم يرى حتى الآن أن أمة متمدنة استعملت لغة ما ١٤ قرن . فاللغة اليونانية تغيرت أربع مرات تغيير جذري، حتى إن اليوناني العادي لا يفهم اليوم شيء من الإلياذة ولا من لغة سقراط وأفلاطون، كما أن اللغات الأوربية رغما عن أنها لغات حديثة تغيرت على مدى الخمسة قرون الأخيرة عدة مرات، لغة شكسبير الإنجليزية يعتبرها أهلها اليوم لغة ميتة لأنه لا يتكلم بها أحد وظهر بعدها عدة لغات إنجليزية كالإليزابيثية والفيكتورية وغيرها ثم أخيرا اللغة العصرية.

لذلك كان لزاما علينا أن نستبدل الفصحى في كتاباتنا بلغة حديثة منبثقة من مجتمعنا العصري تكون ملك لنا نطورها حسب احتياجاتنا، لأنه لا يحق لنا تطوير أو تعديل أو تيسير اللغة العربية الفصحى لأنها أثر موروث مقدس وأصحابها العرب ماتوا منذ ١٤ قرن.

وهذه اللغة الحديثة مشتقة من العربية الفصحى، بل هي الفصحى وإنما بعد هدم ذلك الحائط الضخم اللي يفصلها عن لغة الكلام وأعني به النحو أي علامات الإعراب.

فإذا ما هدمنا حائط النحو وعلامات الإعراب أصبحت في حقيقة الأمر لغة كلام الطبقة المتعلمة اليوم لأنها ليست إلا العربية الفصحى مجردة من علامات الإعراب، وبذلك تتوحد الفصحى مع لغة الكلام، أي أن أواخر الكلمات تكون فيها ثابتة لا تتغير مثلها مثل اللغات الأوربية الحديثة خلافا للغات القديمة المتغيرة، أواخر الكلمات مثل العربية والإغريقية واللاتينية والسنسكريتية، وبذلك نكون خطونا خطوة كبيرة في سبيل توحيد اللغة والتخلص من داء ازدواجيتها . والنتيجة لحذف علامات الإعراب من اللغة مع ترجيح استعمال الشكل المستعمل في لغة الكلام وكذا تخليصها من الحشو والقواعد اللي لا مبرر لها نصل إلى:

t.me/qurssan

1 - ١ – أواخر جميع الكلمات ساكنة فلا حركات للفاعل والمفعول واسم وخبر كان وإن، إلخ.

2 - ٢ - استعمال ((ين)) دائما في آخر المثنى وجمع المذكر السالم لأنها الصيغة الغالبة في الكلام في جميع العالم العربي منذ قرون . وبذلك نقول دائما ((الصالحين والطيبين والمجتهدين))ويذهب الحرفين ((ون)) المستعملين لحركة الضم إلى غير رجعة.

3 - ٣ – حذف النون دائما من آخر فعل الجمع لأنها حشو لا فائدة فيه، ويجب توحيد القاعدة وبذلك تكون أفعال الجمع دائما ((يعملوا ويكتبوا)) وتحذف النون دائما من آخرها.

4 - ٤ - التخلص نهائيا من التنوين إلا في كلمات الحال والمفعول لأجله.

5 - ٥ - تبقى صيغة المثنى في الاسم فقط، لأنها تستعمل في لغة الكلام، ولكنها تحذف من الصفات والأفعال فكل ما زاد عن واحد فهو جمع وبذلك نقول ((الرجلين العلماء جاءوا))و ((الطالبين الغرباء نجحوا)) وصيغة المثنى لا توجد في أي لغة راقية.

6 - ٦ – حذف نون النسوة الثقيلة لأنها حشو وتعسير لا لزوم لهم، فالفعل ليس في حاجة لتبيين جنسه ما دام فاعله يدل على ذلك.

7 - ٧ – استعمال ضمير ((اللي))بدلا من كل ضمائر الغائب العربية، بدلا من ((الذي والتي والذين واللاتي))، فنريح أنفسنا باستعمال ضمير واحد فقط هو ((اللي))المستعمل في جميع لغات الكلام العربية للاختصار والسهولة.

8 - ٨ – إلحاق حرف ((ب))بأول الفعل كما هو في اللغة المصرية وغيرها من لغات الكلام العربية فتقول ((بياكل بيكتب بيجري))، ويمكن تسميتها ((باء الحال أو الاستمرار))أو غير ذلك مما يستحسنه الأدباء واللغويين، فهي في الأمثلة المذكورة تفيد أنه في حال قيامه بالأكل أو الكتابة أو الجري وهي مقابلة في اللغة الإنجليزية ((Present participle))، وفي الفرنساوية ((Participe present)). وفي هذا كسب لقواعد لغتنا العربية الحديثة وإثراء لصيغ الزمن في الأفعال.

9 - ٩ – عدم استعمال بعض الحروف الحشو اللي لا تقدم ولا

t.me/qurssan

تؤخـر فـي المعنـى ولكنـها تثقـل الأسـلوب، لـذلك حـذفت منـها ((أن))عندما لا يكون لها سبب، و ((قد)) فيما عدا استعمالها في صيغة الشك لأنه حينئذ يكون لها وظيفة.

10 - ١٠ – استعمال الكلمة العامية أو الدارجة خصوصا إذا كانت عالمية وليس لها مقابل في الفصحى، وهذا هو المتبع في جميع اللغات الحديثة المتحضرة . فما دامت كلمات ((تلفون وتلفزيون وراديو وموتور ورادار))مستعملة في جميع لغات العالم المتحضر لماذا نحرم لغتنا منها ولا نتقرب من اللغة العالمية لغة الحضارة، خصوصا وأن في ذلك إثراء للغتنا العربية الحديثة.

11 - ١١ – تفضل الكلمة المستعملة في لغة الكلام على ما يقابلها في اللغة الفصحى إذا ما كانت ألطف وأرق في السمع وأسلس وأسهل في النطق، فمثلا نكتب ((الثلاث والأربع وجماد الأول وديب وفاس وهيصة أو دوشة إلخ))بدلا من ((الثلاثاء والأربعاء وجمادى الأولى وذئب وفأس وغوغاء))، حتى نسير بلغتنا الجديدة نحو الرقة وموسيقية الألفاظ.

فاللغة من صنع المجتمع يشارك فيها الجميع، فلكل كاتب له مقام فـي عـالم الأدب أن يضـيف لـهذه اللغـة مـا يوحـي إليـه بـه ذوقـه وإلهامه خصوصا وأنها لغة جديدة محتاجة للنماء والتطور بما يتوافر على الألسنة والأقلام من وحي حياتنا العصرية وبذلك تسير دائما للأمام في تطور مستمر.

مـن جـهة أخـرى وجـدت أن صـيغة النفـي فـي لغتنـا المصـرية (العامية) تحتوي على حرفين حرف ((ما))قبل الفعل وحرف ((ش))بعده . وأغلب الظن أن هذه الصيغة ظهرت في لغة الكلام المصـرية لأسـباب تاريخيـة هـي أنه كان من ضمن القبائل اللي هاجرت لمصر على أثر الفتح العربي قبيلة تستعمل هذه الصيغة وكانت كثيرة العدد مما جعل لهجتها هذه تعم البلاد.

والدليل على ذلك أن هذه الصيغة للنفي لا توجد في أي بلد عربي آخر إلا قليل في دمشق والقدس فقط ولعل لذلك سبب تاريخي أيضا.

t.me/qurssan

إذا لم يكن في الاستطاعة توحيد لهجات الكلام في البلاد العربية كلها، فعلى الأقل يجب العمل على تقريبها من بعضها، ولذا يجب أن نتخلص من صيغة النفي المصرية هذه اللي ليست مخالفة لجميع اللهجات العربية الدارجة الأخرى فحسب وإنما مخالفة للغة العربية الفصحى اللي فيها أربع حروف نفي هي ((لا ما لم لن)) فيها الكفاية لصيغة النفي العربية المختصرة اللي يجب على مصر استعمالها أسوة بسائر البلاد العربية.

لذلك رأيت أن أتجنب هذه الصيغة في الحوار باللغة المصرية، فحذفت من صيغة النفي حرف الشين اللاحق بالفعل، وإني لأدعو جميع المصريين أن يفعلوا هذا حتى تقترب لغتنا المصرية من سائر لهجات الكلام العربية الأخرى.

لو بدأنا بذلك اليوم فلن نشعر باختفاء هذه الصيغة بعد عشر سنوات . بقيت لي كلمة أخيرة وهي أن النقد في يومنا هذا ابتعد عن نزاهة الحكم الأدبي لتسلط المذهبية والسياسة عليه، فإذا كان المؤلف من اللون الحزبي أو السياسي للناقد كال له المدح والتقريظ حتى من غير استحقاق، وإن كان مخالفا له فى ذلك انهال عليه باللائمة لأتفه الأسباب.

وعلى ذلك إذا كانت الشيوعية تشجع اللغة العامية أو لغة الكلام الراقي فليس معنى هذا أني شيوعي بل بالعكس أنا من أعداء الشيوعية.

(*) استعملت كلمة ((سكس)) والصفة منها ((سكسي)) بدلا من كلمة جنس والصفة جنسي لأن معناها العربي الأصلي ينصرف إلى نوع الشعب مقابل كلمة Race وكذا في التمييز بين نوعين الذكر والأنثى، وفي هذا ضبط وإثراء للغة.

(*) On Literature، ١٥ صحيفة .

t.me/qurssan

تقديم

أنا طول عمري من هواة جمع الكتب . هذه الغية تمكنت مني بعد حصولي على شهادة الكفاءة - كما كانوا يسموها في ذالك الوقت يعني منذ السنة الثالثة الثانوية.

أظن أن السبب في هوايتي هذه هو أني كنت دائما أول فصلي في الإنشا العربي اللي كانت درجاتي فيه أثناء السنة الدراسية حوالي ٩ من ١٠ وأحيانا مع ((أحسنت))، وما كان أستاذ اللغة العربية ليعطيني ١٠ من ١٠ لأن الأساتذة يتوهموا أن إعطاء هذه الدرجة يعني الكمال والمفروض أن لا يصل التلميذ بل أي إنسان إلى درجة الكمال . هذا إلى جانب أني كنت بدأت أقرض الشعر فكنت أقرأ قصائدي على بعض أصدقائي، بل نشرت لي جريدة السفور مرثية وأنا في السنة الأخيرة الثانوية وكذلك جريدة الأهرام . كان من الطبيعي أن يدفعني شغفي بالإنشا العربي وقرض الشعر إلى قراءة كتب الأدب العربي القديم . ما لبث شغفي بالقراءة أن انقلب إلى حب وغرام بالكتب ذاتها حتى بما لا أستطيع قراءته منها، فكنت كالمسيحي التقي المصلي اللي ينقلب تمجيده للسيدة العذراء إلى حبه لتمثالها المنصوب في الكنيسة.

لذلك كنت أصرف تقريبا كل مصروف يدي البسيط في شراء الكتب حارما نفسي أحيانا من الذهاب إلى السينما أو غيرها من ملاهي الشباب . كانت ماليتي المحدودة جدا لا تسمح لي بشراء الكتب الجديدة فاضطريت إلى توجيه همتي لشراء الكتب المستعملة لرخص ثمنها، فضلا عن أن أمهات كتب الأدب القديم كانت غير موجودة في سوق الكتب الجديدة في ذاك الوقت، فكان على طالبها أن يدور ويبحث ويلف ليتصيدها في مكتبات الكتب المستعملة.

أوجد ترددي على هذه المكتبات نوع من الصداقة اللي تنشأ بين البائع وزبونه الدائم، فكانوا يتركوني أقلب في أرفف بل وفي أكوام الكتب لأكتشف فيها ما يروق لي، خصوصا وأنهم كانوا

t.me/qurssan

يجـهلوا تفاصـيل مـا عنـدهم مـن كتـب لأنـهم كـانوا يشـتروها بالجملـة . كـان ممـا يشـجعني علـى الشـراء أن أصـحاب هـذه المكتبات كانوا بيتساهلوا معي في الأثمان أو على الأقل كانوا يوهموني بذلك - على اعتبار أني شاب مجتهد في سن أولادهم جدير بالتشجيع.

كم جريت في البحث عن بعض الكتب النادرة من مكتبة لمكتبة . كم حلمت بأني حصلت على كتب مثل ((يتيمة الدهر))و ((أمثال الضبي)) و ((المثل السائر))و ((خزانة الأدب))و ((أمالي القالي))و ((فتوح الشام)) و ((تاريخ العتبي)) - بشرط أن تكون من طبعة بولاق الأميرية أو ما يماثلها وليس من الطبعات الشعبية العادية - قبل أن أحصل عليها.

كانت والدتي وأخي وأصدقائي يلوموني على هذه الغية المرهقة ويقولوا لي: ((مش خسارة تحرم نفسك من الفسح وتضيع فلوسك في الكتب دي وانت لسه ما قريتش نص اللي عندك منها؟)).

في الحقيقة كانوا على صواب ولكنهم ما كانوا ليقنعوني بالعدول عن غيتي، لأن الكتاب عند غاوي جمع الكتب يخرج عن كونه مجـرد كتـاب مطبـوع أعـد للقـراءة ليصبح تحفـة نـادرة يريـد الحصول عليها . لا يشعر جامع الكتب بأن جريه بين المكتبات مشاوير ثقيلة متعبة ومضيعة للوقت لأن هذه الغية تصبح عنده نوع من الرياضة (السبور) تنسيه متاعب بحثه عن الكتب، فهو مثل الصياد اللي يخرج من منزله مع الفجر ولا يعود إليه متعبا إلا بعد العصر ومع ذلك فالطيور أو الأسماك اللي يكون اصطادها - حتى ولو كانت قليلة - تنسيه ما لقي من تعب وجهد طول نهاره، فضلا عن أن بعض الصيادين لا يأكلوا من صيدهم . فلماذا يعيبوا بعد ذلك على جامع الكتب أنه لا يستفيد من قراءة كل ما جمعه منها؟

هناك ما هو أكثر من ذلك، ففى بعض بلاد أوربا كفرنسا يوجد غواة جمع كتب ((Bibliophile)) لا يهتموا بالقراءة مطلقا، وإنما كل

t.me/qurssan

همهم هو الحصول بأثمان باهظة على الطبعة الأولى من كتاب أو على طبعة قديمة لكتاب وقع خطأ مطبعي في تنمير صحائف إحدى ملازمه.

على كل حال أليست غية جمع الكتب أرقى وأنفع من هواية جمع قصاقيص الورق الملون اللي بيسموها أوراق البوستة، أو من هواية جمع علب الكبريت أو العصيان أو السبح؟

هذه الهواية لازمتني طول حياتي إلى أن بدأت تخف وطأتها الآن بعد أن تقدمت بي السن وأصبحت أتطلع إلى ما عندي من الكتب أكثر مما أتطلع إلى ما ليس عندي منها . فأنا لا أفكر الآن في الذهاب إلى مكتبة كتب قديمة للبحث عن كتاب وإنما بحكم العادة وعلى رأي المثل ((اللي فيهش ما يخليهش)) أو المثل الآخر ((تموت الغزية وكعبها يرقصة))، إذا ما تصادف مروري أمام مكتبة كتب مستعملة وكان عندي فسحة من الوقت فإني لا أتمالك نفسي من الدخول فيها والتقليب في رفوفها ولو من باب الفضول على أني في أغلب الأحيان لا أخرج منها ويدي فاضية.

في مرة من هذه المرات، قبل نحو سنتين، دخلت إحدى تلك المكتبات وعثرت أثناء تقليبي في كتبها على كراسة مكتوبة بخط اليد فاهتممت بها على أمل أن تكون مخطوط قديم من التراث العربي . أخذت أقرأ فيها فتبينت أنها مذكرات رجل كتبها قبل سنوات قليلة . إنما موضوع هذه المذكرات وأسلوبها – على قدر ما تبينت من الصحايف القليلة اللي قرأتها منها – جذبوني إليها وشوقوني لقراءتها، فتقدمت بها مع كتابين آخرين لصاحب المكتبة واشتريتها منه . كان ثمن هذه الكراسة في البيعة بعد الفصال خمسة قروش فقط لا غير باعتبارها كراسة إنشا مكتوبة حديثا لا قيمة لها.

رميت هذه الكراسة والكتابين في أحد أركان مكتبي إلى أن تذكرتهم بعد يومين أو ثلاثة في ساعة فراغ، فأخذت الكراسة وبدأت أقرأها . وجدت في قراءتها لذة ومتعة جعلتني أستمر في قراءتها حتى أتممتها في يومين.

t.me/qurssan

ظهر لي أنها كانت مذكرات موظف على المعاش كتبها غالبا حوالي سنة ١٩٥٠ كما يستشف من بعض عباراتها، وقد وصف فيها بدقة، مستعينا بالتحليل النفسي (البسيكولوجي)، الآلام اللي عاناها في أواخر أيامه من صراع عنيف بين ضميره وشرفه من جهة ورغبته في الحصول على المال الحرام تحت ضغط الحاجة وظروفه المعيشية من جهة أخرى.

استمتعت بقراءة تلك المذكرات كاستمتاعي بقراءة أحسن الروايات الأدبية . كان سر جمالها وقوتها في أنها طبيعية غير متكلفة تقوم على الصدق والأمانة في نقل الإحساسات المختلفة وتحليل عميق مع كثير من الأفكار الفلسفية والاجتماعية، ملفوفة في أسلوب فكاهي مرح يظهر على الأكثر في حوارها الشيق اللي يكاد يكون مسرحي.

لذلك فكرت في نشر هذه المذكرات في شكل رواية، بعد أن قسمتها إلى فصول وأضفت إليها بعض الزيادات اللي تناسب المقام ونقحت بعض عباراتها تنقيح بسيط، مبقيا على اللغة اللي اختارها لها كاتبها لأني وجدتها لا تزال لغة عربية فصحى تفهمها الخاصة والعامة بعد أن تجردت من تعقيدات النحو بعلامات إعرابه المرتبكة وقيود التزمت اللغوي لاحتوائها على الحوار المكتوب باللغة المصرية (العامية) لأن كاتبها كان ينقل من الطبيعة كما رآها ويسجل ما سمعته أذناه.

حقا إن ذلك الموظف الصغير لا يخلو من عبقرية لاكتشافه هذه اللغة اللي يمكن تسميتها ((اللغة الوسطى)) باعتبارها وسط بين الفصحى والعامية، أو ((اللغة العامة))لأن استعمالها يعم جميع طبقات الأمة، أو اعتبارها ((اللغة العربية الحديثة))النابعة من تطور العربية الفصحى كما تجري على ألسنة المتعلمين ولا أقول المثقفين . لذلك رأيت لزاما علي أن أستعمل في هذا ((التقديم))نفس لغة كاتب هذه المذكرات.

إلا أني تحيرت في اختيار عنوان لها . فكرت أولا في تسميتها ((مذكرات موظف على المعاش))أو ((مذكرات خليل أفندي))أو

t.me/qurssan

((صراع مع الرذيلة))أو ((توبيخ الضمير)). ولكني وجدتها كلها عناوين عادية مطروقة . أخيرا انتهى بي التفكير إلى اختيار عنوانها الحالي ((بيت سري)) رغم الوجهة الأخلاقية، لأني وجدت أن كل حوادث الرواية تقريبا تقع في البيت السري اللي بيهيمن على كل الرواية كما هيمنت كاتدرائية ((نوتردام دوباري))على أحداث رواية لفيكتور هوجو فاختار لها اسم تلك الكاتدرائية وسمى روايته ((نوتردام دوباري)).

ها أنا أقدم إليك يا عزيزي القارئ مذكرات خليل أفندي اللي سميتها ((بيت سري)) راجيا أن تستمتع بقراءتها كما استمتعت أنا بها.

ناقل الرواية

عثمان صبري

نائب رئيس محكمة استئناف سابقا

t.me/qurssan

المذكرات

t.me/qurssan

فكرت كثيرا قبل أن أقرر كتابة مذكراتي. طالما ساءلت نفسي: هل أكتب مذكرات أم لا؟ كانت تنصرف نفسي عن كتابتها عندما أذكر أني لست بكاتب كما أني لست بالشخص المهم المرموق اللي تكون لمذكراته قيمة. لكني عولت أخيرا على كتابتها لأني لا أنوي نشرها، بل لا أقبل نشرها حتى ولو دفع لي فيها ناشر مغفل مئات الجنيهات لكي لا أعلن سفالتي وعاري على الناس.

أنا أكتب إذن هذه المذكرات لأحتفظ بها لنفسي في سرية تامة. ولكن أليس من السخف أن يكتب الإنسان لنفسه؟ ربما بدا ذلك لأول وهلة، لأنه ما فائدة أن يكون هناك كاتب إذا كان هذا الكاتب سيكون هو نفسه القارئ الوحيد لما سيكتب؟ ما دمت أعرف ما سأكتبه لنفسي فما الفائدة من أن أتعب نفسي في كتابته؟ ألا يكون مثلي في ذلك مثل من يحدث نفسه بصوت عالي؟

الجواب على هذا السؤال يكون بالنفي إذا ما حصرناه في صورة موضوعية، ولكن عندما أطرح على نفسي هذا السؤال بصورة شخصية أجيب عليه بالإيجاب، لأني أشعر عندما أكتب بأني أفضفض ببعض ما في نفسي من ألم وأفضي ببعض ما في قلبي من هموم، فلا شيء يخفف عن النفس أحمالها قدر الإفضاء بأحزانها والبوح بأسرارها حتى ولو كان بإيداعها على صفحات الورق لأن الورق هنا يكون بمثابة صديق أمين أستودعه أسراري دون أن أخشى منه أن يفشيها. عندما يكتم الإنسان سره يكبس على قلبه كأنه حجر. فالناس اللي بتكلم نفسها بصوت عالي ليسوا ملاحيس كما يظن بعضهم، لأنهم إما بيفكروا بصوت عالي يساعدهم على تجسيم أفكارهم، وإما أنهم بيفضفضوا باللي في قلوبهم فيشعروا بشيء من الراحة، لأن كتمان الشيء في الصدر يكون مثل حجريضغط عليه ويكتم أنفاسه. ألم تر كيف عبر عن ذلك شاعر قديم بقوله:

لا تخفي ما فعلت بك الأشواق واشرح هواك فكلنا عشاق

t.me/qurssan

ما دمت با كتب هذه المذكرات لنفسي فلا فائدة من أن أغالط فيها أو أن أغير وقائعها، لأني في هذه الحالة أكون باغالط نفسي، وقد ينجح الإنسان في خداع كل الناس بعض الوقت أو في خداع بعض الناس طول الوقت ولكنه لا يستطيع أن يخدع كل الناس طول الوقت، كما أنه لونجح في خداع كل الناس فإنه لا يستطيع أن يخدع نفسه ولو ساعة واحدة. لذلك لن أكتب في مذكراتي هذه إلا الصدق ولن أقول إلا الحق ولا شيء غير الحق كما يقول الشاهد في صيغة اليمين اللي بيأديها أمام المحكمة.

ولو أن هذه المذكرات شخصية وسرية يعني مفروض أن لا تقع عليها عين شخص خلافي، إلا أنه تسهيلا لي في كتابتها وترفيها عن نفسي، سأتخيل أني باكتبها لصديق حميم أئتمنه على أسرارى أو بعبارة أخرى كأنها اعترافات أفضي بها لوكيل نيابة في تحقيق أخلاقي وهمي.

من أين أبدأ مذكراتي؟ سأبدأها من السنة الماضية لأنها الوحيدة اللي تستحق التدوين، أما ماضي حياتي قبل ذلك فحياة مستقيمة شريفة عادية كحياة كثير من الموظفين المستقيمين أمثالي لا تستحق أن يخط عنها سطر.

السنة الماضية - وهي اللي تبدأ بعد إحالتي على المعاش بأكثر من سنة - هي موضع الداء واللي تعذبت فيها أكثر مما تعذبت في كل ما صادفته من آلام طوال حياتي. صحيح أنه ليس في وسع الإنسان أن يهرب من أحكام القدر وأن ما كتب على الجبين لازم تراه العين، ولكن لو أن أحد المنجمين كان قال لي قبل بعض سنين أني سأشتغل في الفاعل أو سأكون قرداتي أسرح بقرد أو سرباتي أكسح آبار المجاري أو حتى شحات أتسول في الشوارع، كنت قلت في نفسي ((كله جايز)) وعلى كل حال كنت لا أتغاظ لأنها كلها حرف لأكل العيش والحرف قسمة ونصيب، ولكن لو أن ذلك المنجم تنبأ لي بالحالة اللي قضيتها في السنة الماضية، ما كنت لأصدقه بل لثرت عليه ورميته بالكذب والتدجيل، لا شك أنك تسألني يا صديقي عما وصفته ((بالحالة اللي قضيتها في السنة الماضية)) هذه، ولكنى لا أستطيع أن أذكرها لك ملخصة فى

t.me/qurssan

كلمتين وإلا احتقرتني وشتمتني بل وربما بصقت على وجهي ورفضت أن تستمع لبقية أقوالي. لو أن للخزي والعار لون لكان اللون الأسود، ولو كان هذا اللون ينضح على ما يلمسه لانقلاب بياض هذه الصفحات إلى سواد قاتم.

لذلك لا بد من أن أشرح لك ما جرى لي بكل تفصيلاته وملابساته حتى أطمع في أن تلتمس لي ولو بعض العذر، أو على الأقل في أن لا تقسو علي في حكمك.

أنا من عائلة طيبة، نشأت في عز ونعمة لأن والدي كان من كبار تجار الغورية وكانت له عدة أملاك في القاهرة. عندما حصلت على الشهادة الثانوية رفض إلحاقي بالتعليم العالي وحجزني في دكانه لأكون مراقب حساباته. كان يعطيني لذلك أجر سخي أكثر مما يتقاضاه أمثالي من موظفين الحكومة. بعد ذلك زوجني من فتاة من عائلة تجار مثلنا كانت على شيء من التعليم لأن البنات في ذاك الوقت كانوا لا يكملوا تعليمهم كما يفعلوا اليوم. استمر الحال على هذا المنوال ما يقرب من عشر سنين، حصلت بعدها أزمة هبوط في أسعار البضايع وكساد في السوق التجاري، على أثر انتهاء الحرب العالمية الأولى. كان محلنا دائن لعدة تجار صغار أشهر إفلاسهم مما أدى لضياع ديوننا عليهم ثم لتوقف محلنا عن الدفع، رغم ذلك لم يشهر إفلاس والدي لأنه باع كل ما يمتلك ما عدا منزل العائلة اللي كنا ساكنين فيه ومنزل آخر صغير فسدد بذلك كافة ديونه.

إلا أن والدي كان رجل مسن ويشكو من ضغط الدم، فكانت هذه الخسارة الفادحة ضربة قاسية هزت كيانه ثم أودت بحياته على أثر شلل كلي لم يمهله إلا أسبوع. من الحزن والنكد أيضا لحقت به والدتي بعد شهرين من وفاته.

لا أطيل عليك القول فيما نزل بنا من مصائب، فكما يقولوا ((لما تيجي المصايب تيجي مرة واحدة))، هذه حقيقة على الأقل فيما يختص بعائلتي اللي لم يبقى منها إلا أنا وزوجتي وأختي اللي طلقها زوجها لعدم الخلفة فاضطريت لإيواءها عندي.

t.me/qurssan

سبحانه المنتقم الجبار! كان والدي يقر علي أن أطلق زوجتي لعدم الخلفة ويقول لي: ((أخوك الكبير مات قبل ما يخلف وآديك إنت كمان ما عندك ذرية. مش حرام نموت ونترك مالنا للأغراب؟)).

فها هي بنته تطلق لهذا السبب نفسه وترجع لبيتنا، كما يشاء ربنا العليم الحكيم أن تلد زوجتي بعد إفلاس أبي، أي بعد اثنا عشر سنة من الزواج. هذه الخلفة اللي تشبه المعجزة لم تتم إلا في الوقت اللي كان لم يبقى عندنا فيه مال، يعني أنه بدلا من أن يتمتع المولود بأموالنا جاء ليضيق علينا في الرزق القليل اللي بين إيدينا.

كان المولود المفاجئ طفلة، ولكن المصائب استمرت تتوالى علي، إذ أصابت زوجتي حمى تيفودية قضت عليها تاركة لي طفلتها اليتيمة لتكون الشعاع الوحيد اللي بينير بيتنا المظلم الكئيب.

كنت أبحث بعد إفلاس والدي عن عمل، إلى أن وفقت أخيرا للتوظف في الحكومة في وظيفة بالدرجة السادسة بواسطة أحد أصدقاء والدي اللي كان من كبار الموظفين. بمجرد ما بلغت بنتي الستة عشر زوجتها من تاجر في الأرياف كان من عملاء محل تجارة المرحوم والدي. وصفصف منزلنا الكبير علي أنا وأختي فقط. في هذه الحالة كان من الطبيعي أن أتزوج مرة ثانية، وفعلا تزوجت من فتاة من عائلة طيبة أخنى عليها الدهر مثل حالي وكان ليس لها في الدنيا إلا أمها اللي سكنت معنا.

عشنا أنا وزوجتي وأختي وحماتي في منزل العائلة الكبير. احتجت لبعض الوقت ولكثير من الحزم للتوفيق بين زوجتي وحماتي من جهة وأختي من جهة أخرى. أخيرا اعتادوا على حياتهم المشتركة وعرفوا يعيشوا مع بعض في وئام.

كانت معيشتنا يدوب على قدنا، إذ لم يكن لي مورد رزق غير مرتب الوظيفة لأني كنت بعت المنزل الصغير اللي ورثته من والدي لأتمكن من مواجهة مصاريف زواج بنتي أولا ثم مصاريف زواجي أنا بعدها.

t.me/qurssan

بعد سنة من زواجي هذا ولدت زوجتى ابني عادل، وبعدها بسنتين بنتي إخلاص، ثم أخذنا بعد ذلك الاحتياطات الوقائية حتى لا نفاجأ بمولود ثالث يزيد علينا أعباء الحياة.

سبحان الله! أيام شبابي لما كنت في بحبوحة من العيش لم أرزق خلفة، لكن بعد إفلاس أبي رزقت ببنت، والآن وأنا يدوب قادر على العيش أرزق بطفلين!

باختصار الكلام تدرجت في ترقية بطيئة في خدمة الحكومة إلى أن أحلت على المعاش قبل سنتين وأنا في الدرجة الخامسة، ولكن بالنسبة لأن مدة خدمتي لم تكن طويلة كان مقدار معاشي عبارة عن اثنا عشر جنيه عمي.

طبعا هذا المبلغ البسيط ما كان ليكفي أن يفتح بيت فيه ستة أفمام، غير المصاريف الدراسية اللازمة لابني اللي في كلية التجارة وبنتي اللي بتكمل دراستها الثانوية. لذلك اضطريت أن أؤجر الدور الأعلى من منزلنا واتلمينا كلنا في التلات غرف اللي في الدور الأرضي.

مع أن إيجار ذلك الدور كان ستة جنيه شهريا لا تغني من جوع فإن سوء طالعي أوقعني في مستأجر نصاب كان لا يدفع الإيجار أو ربما كان هو الآخر أفقر مني. لذلك اضطريت لبيع صيغة زوجتي لدفع مصاريف قضية طرد المستأجر المبلط، وبعد نحو سنة من الجري والعذاب تمكنت من إخلاء دور المنزل.

احترسنا جدا هذه المرة في تأجير المنزل حتى لا نقع في مستأجر جديد نصاب كالمستأجر السابق، إذ إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين. إلا أن هذا التدقيق في اختيار المستأجر الجديد جعل المنزل يبقى خالي عدة شهور اضطريت في أثناءها إلى بيع بعض الأدوات المنزلية ذات القيمة مثل السجاجيد والنحاس الزايد.

كنت في أزمة طاحنة ومديون لشوشتي: للبقال والجزار والخياط اللي بدأوا يقطعوا عني الشكك. تعودت أن أذهب كل يوم إلى

t.me/qurssan

قهوة أجتمع فيها بأصدقائي حيث نتجاذب أطراف الحديث ونحاول أن ننسى همومنا بدور طاولة. كان يحضر لقهوتنا من وقت لآخر شخص شيك وجيه المنظر تتدلى على كرشه سلسلة ساعة ذهبية سميكة هي إحدى مظاهر غناه. كان اسمه غرباوي بك أو أفندي حسب الظروف، يعني يكون بك لما يجيء بسيارته الخصوصية وينحط لرتبة أفندي لما يجيء لنا ماشيا، فتقول عنه شلة أصدقاء القهوة إنه لازم خسر سيارته في القمار لأنه كان مشهور عنه أنه مقامر كبير.

كنت جالس أتفرج على دور طاولة لما تصادف أن جلس في ذلك اليوم بجانبي غرباوي بك لأنه كانت عنده سيارته الخصوصية في ذلك اليوم. بعد أن انتهى دور الطاولة سألني غرباوي هذا عن حالي لمجرد الحديث، فلما قلت له إن الحال زفت سألني عن السبب. ولو أن معرفتي بغرباوي لم تكن بدرجة الصداقة اللي تسمح لي أن أطلعه على دواخل معيشتي إلا أني رأيت أن أحكي له حكايتي بأمل أن أستفيد من آراء رجل مثله مشهور بكثرة تجاربه وهو كما يقولوا مقطع السمكة وديلها. حكيت له همي وغمي: معاشي البسيط وديوني الكثيرة وضروريات المعيشة مع كساد إيجار المنزل. رماني الرجل بنظرة حادة وقال لي: ((دا من محاسن الصدف لأني بادور عن بيت يشبه بيتك دا)). وأخرج من جيبه نوتة وسألني عن عنوان المنزل. قلت له إنه بيت مش قد المقام لأنه قديم وفي حارة ورا قصر عابدين. لم يهتم بذلك وسألني عن عدد الغرف فأخبرته أنها أربعة خلاف فسحة الدخول في الدور الأرضي وهي مشتركة بين الدورين وإنما يمكن نعمل حاجز وأترك له الجزء الأكبر منها لأنه لا يمكننا أن نترك المنزل. فقال:

- يا سلام! ومين اللي قال إنك تترك البيت؟ دا شرف كبير لي أني أكون ساكن في بيت مع عايلة محترمة زي عايلتك. دا حتى المثل بيقول ((خد الجار قبل الدار)).

كان الوقت الساعة واحدة بعد الظهر فأخذ مني العنوان وسألني عما إذا كان يمكنه معاينة المنزل فى الساعة الخامسة. فأجبته

t.me/qurssan

بالإيجاب وافترقنا على أن أقابله في منزلي الساعة الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم وأنا لا أدري أنه قدر لي أن يكون ذلك اليوم نقطة تحول في حياتي بل نكبة تلطخني بالعار لآخر أيامي.

t.me/qurssan

عدت إلى منزلي منشرح الصدر آملا أني وجدت مستأجر لقطة. طلبت من سيدات البيت أن ينظفوه ويرتبوه بسرعة لأن مستأجر مهم سيحضر للفرجة عليه الساعة خمسة.

أخذت أفكر في حقيقة أمر غرباوي اللي لم أكن أعرف عنه شيء كثير. كل ما أعرفه عنه هو أنه ليس من أصل مصري، حتى إنه كانت تفلت من فمه أحيانا بعض الكلمات المستعملة في الأقطار العربية الشقيقة، ولكني كنت أجهل أصله ومن أي هذه البلاد هو. كذلك كان ترامى إلى سمعي أنه كان صاحب أعمال كبيرة وأفلس وسافر واشتغل في الخارج وأنه مقامر لا يثبت على حال وإنما يتقلب بين البؤس والغنى.

كنت أنتظر الساعة الخامسة بفروغ الصبر. الساعة خمسة وخمسة ضرب جرس الباب الخارجي فجريت أفتحه فرحا كمن يفتح الباب لعشيقة كان معها على موعد. رأيت أمامي غرباوي فرحبت به وأدخلته ودعوته للدخول في شقتي لتناول القهوة، فقال لي إنه يفضل أن يتفرج على الشقة العليا أولا فإن العمل مفضل على القهوة. صعدت معه إلى الدور العلوي حيث فحصه شق شق وهو يكتب ملاحظاته في نوتة. بعد ذلك نزلنا وجلسنا في شقتي. قال لي:

- بيتك مدهش يا خليل أفندي. أهو دا تمام اللي كنت بادور عليه.

جرى الدم في عروقي بسرعة من الفرح، وقلت له:

- إذا حبيت نعمل لك أي تعديل أنا مستعد، فمثلا نقدر نقسم فسحة المدخل المشتركة علشان لا نزعجك.

- لا أبدا أبدا. خلي الفسحة مشتركة وعلى أنا كمان فرشها.

لكن الفار لعب في عبي من حماس هذا الرجل المجهول في تأجير منزلي، فسألته بقليل من التردد:

- هو عايلة حضرتك كتيرة؟

t.me/qurssan

- أنا عازب عايش لوحدي.

قلبى طب وقلت له بشيء من الاستغراب:

- أمال عاوز تسكن لوحدك في بيت كبير قديم في حي بلدي زي دا ليه؟

- أنا مش حاخبي عنك حاجة وأحب دايما أتكلم بكل صراحة.

- وأنا كمان أحب الصراحة خالص.

- نبقى اتفقنا. أظنك تعرف أنا مين؟

ولو أني كنت لا أعرف عنه في الحقيقة إلا ما وصلني عنه من طراطيش كلام إلا أني لم أرد أن أظهر أمامه أني أجهله حتى لا أجرح غروره، فقلت له عبارة عايمة:

- يا سلام! هو فيه حد لا يعرف غرباوي بك.

- جايز إنك ما تعرف إني كنت مقاول كبير في عدة بلاد عربية، ومع اتساع أعمالي وعدم إمكاني مراقبتها في بلاد متعددة خسرت كتير فصفيت أعمالي واشتغلت في إدارة لوكاندات في فرنسا وإيطاليا، وبعدها اشتغلت في تجارة التصدير والتوريد بين أوربا وبعض البلاد العربية، بعد كدا عملت أعمال كتيرة لو شرحتها لك نفضل للعشا.

- دا فيه الكفاية يا أفندم. بس يعني غرضك إيه بالضبط من إيجار بيتي مع إنك بتقول إنك راجل عازب عايش وحداني؟

- بصراحة إن غرضي لما أؤجره إني أحوله لبيت مودرن يعني عصري.

قلت في نفسي المسألة دخلت في الجد وبدأت تظهر عيوبها، لأن عبارة ((بيت مودرن عصري)) هذه عبارة مطاطة عايمة يمكن تشمل كل حاجة، فقلت له وقد ظهرت على وجهي بعض علامات التردد والشك:

t.me/qurssan

- بس يعني .. عبارة ((بيت مودرن)) دي يبقي معناها إيه بالظبط؟

- أنا فاهم إن تعبيري دا يمكن يوسوس واحد في زي سنك مش متعود على تطورات الحياة الجديدة، لكن اطمئن. شوف يا سيدي أنا ولو إني عازب عايش لوحدي إلا أنه عندي أصحاب كتير وبعضهم أغراب من البلاد العربية ينزلوا عندي ضيوف، ولا أخبي عنك أني غاوي قمار فألعاب كتير مع أصحابي فكل دا يحتاج طبعا لمنزل كبير نسبيا والأحسن إنه يكون في حي هادي.

كلمة ((قمار)) هذه خبطت في دماغي وأخافتني ((قمار! قمار!)) شيء مخيف! في الحقيقة هو شيء مكروه بل وحرام، ولكنه على كل حال لا يخيف بدرجة أشياء مكروهة أخرى كانت تجول في ذهني مثل بيوت الدعارة السرية. فأين القمار من الدعارة؟ هذا عيب أخلاقي أما تلك فسفالة وانحطاط نفساني. دارت كل هذه الأفكار في رأسي بسرعة في ثواني وجعلتني أقول بعدم اطمئنان ظاهر:

- بس يعني القمار دا... يعني دي حاجة...

- عاوز تقول مش كويسة، مش أخلاقية؟ يا حبيبي إحنا لا تلامذة في مدرسة ولا مشايخ فى جامع وإنما بشر مش ملايكة، فكل واحد منا ما يخلا من عيب بل عيوب ورذايل. ومع ذلك فالقمار ملك التسالي وأحسن حاجة لتضييع الوقت.

- ولتضييع ما في الجيب.

- مش دايما، مرة تخيب ومرة تصيب، ودا مش في لعب القمار بس وإنما في كل حاجة. الدنيا زي طرابيزة قمار كبيرة كل الناس بتلعب عليها. الدنيا ماشية بالقمار يا عزيزى. واحد اشترى بضاعة وبعدين ارتفع سعرها وربح تكون ورقته كسبانة، تاجر محله فلس تكون ورقته خسرانة، واحد نجا من حادثة سيارة أو قطار تكون ورقته كسبانة، واحد داسته سيارة تبقى ورقته خسرانة وهكذا.

- بس يعني عاوز أقول إن القمار دا بتطلع ساعات من تحت راسه خناقات ومشاكل والبيت يبقى له سمعة إنه صبح نادى قمار.

t.me/qurssan

- معك حق تتوسوس من الجهة دي. ولكن اطمئن كمان مرة يا عم خليل فلو إني حالعاب قمار في بيتك دا مش معناه إنه حيكون زي نوادي القمار المنتشرة في البلد. لا يا عزيزي دامش محل قمار مفتوح لكل من هب ودب. لا، دا بيت خصوصي ما يدخله إلا شخصيات كبيرة غنية من اللي الواحد فيهم يخسر له في الليلة كم ورقة بمدنة من غير ما ترمش له عين. إنت فاكرني بالعب فى البلد يا سي خليل؟ دانا أعرف أكبر الشخصيات.

- ما قلنا حاجة، ومش أنا اللي حيعترض على لعب الشخصيات الكبيرة ولا حتى الصغيرة القمار لأن كلامي مش حيغير حاجة، وإنما بس زي ما انت عارف أنا رجل اختيار وموظف حكومة سابق قضيت حياتي في الاستقامة والشرف وسمعتي زي البرلته وعندي عايلة ستات وأولاد شباب يمكن يعني الحكاية دي...

هنا قاطعني غرباوي لأنه لاحظ بذكائه اللماح أني لا أعترض من باب المساومة على قيمة الإيجار وإنما لأني رجل صاحب مبدأ وعندي ضمير، فبدأ يهاجمني بسرعة من جبهة أخرى، جبهة الإغراء واستغلال الحاجة لكي يحطم مقاومة ضميري وشرفي فقال مقاطعا:

- اسمع يا عم خليل. خليك راجل عملي واقعي وسيبك من الأوهام والكلام الفارغ دا. إنت كنت أجرت شقتك دي للرجل النصاب بكام؟

- بستة جنيه في الشهر.

- طيب أنا حاعطيك أكثر من الضعف يعني خمسة عشر جنيه ،

وكمان مستعد أدفع لك تلات أشهر مقدم غير التصليح والتجميل اللي حاعمله في البيت.

ولكي يقضي على كل مقاومة من جانبي راح ضارب يده في جيبه وأخرج منه دفتر شيكات وقلم حبر فخم وفتح الدفتر وبدأ يكتب قائلا:

t.me/qurssan

- هه! خليهم يا سيدي خمسين جنيه. حلال عليك يا عم. إنت رجل طيب مش خسارة فيك.

مرت علي في ذلك الوقت بعض دقائق من أحرج أوقات عمري. كنت لا أدري ماذا أفعل.

هل أوقف الرجل الماكر الداهية عن الكتابة وأقول له ((الله الغني أنا مش من دول)) وأترك خمسين جنيه تطير من يدي؟ خمسين جنيه مرة واحدة ليست بالمبلغ اللي يستهين به رجل فقير مزنوق مديون مثلي بيتهرب في سيره في الشوارع من أمام دكاكين البقال والجزار. تذكرت أن الفول المدمس والعدس هروا مصارينا في الشهرين الأخيرين. هل أرفض هذا العرض السخي وأترك ابني عادل بدون الكتب الجامعية اللي طلبها مني عشرين مرة؟ هل أرفض وأترك بنتي إخلاص تذهب مدرستها وهي مكسوفة وسط زميلاتها لأن وجه حذاءها مرقع وأنا عاجز عن أن أشتري لها حذاء جديد؟ هل وهل وهل؟ لا هذا غير ممكن. دارت بي الدنيا وشعرت بدوخة أفقت منها على صوت غرباوي وهو يقدم لي ورقة قائلا:

- اتفضل يا عم خليل الشيك. مبروك عليك.

مددت يدي بطريقة آلية فوضع فيها الشيك، وقلت له وأنا في شبه غيبوبة ((الله يبارك فيك)) مثل اللي مات له ميت فيرد على المعزين بقوله ((سعيا مشكورا)). في الواقع كان مات لي في تلك الساعة ميت عزيز وكان تبريك غرباوي هذا بمثابة العزاء في ذلك الميت العزيز اللي كان شرفي دون أن أدري.

كتبت له عقد إيجار بثلاثة شهور مع استلامي القيمة مقدما وانصرف غرباوي من منزلي ليعود إليه مرات ومرات.

t.me/qurssan

٣

قضيت تلك الليلة وأنا عقلي يودي ويجيب. تارة أتخوف من المستقبل وتارة أطمن نفسي بقولي: ((يعني حتكون إيه آخرتها؟ مهما كانت وقعتنا هباب فمش حتطول أكثر من التلات أشهر اللي دفعهم المستأجر والوقت بيجري بسرعة)). لم أنم في تلك الليلة إلا ساعتين من هنا وساعتين من هناك. بمجرد ما فطرت ثاني يوم خرجت جريا إلى البنك وقبضت الشيك. استلمت في يدي عشر ورقات كل ورقة بخمسة جنيه. كنت لا أكاد أصدق عيني. طبقت ورق البنكنوت جيدا ووضعته في جيب الجاكتة الداخلي وزررتها وأبقيت يدي عليها وسرت في الشارع أتلفت يمين وشمال كأني سارق سريقة. في الحقيقة كان هذا بالنسبة لي حدث كبير لأني كنت ما وضعت يدي على مثل هذا المبلغ ولا حتى عندما بعت أخيرا صيغة زوجتي. كانت فرحتي وما كنت فيه من اضطراب، ظواهر طبيعية لأنه على رأي المثل ((الكحكة في إيد اليتيم عجبة)). لم أرضى أن أركب ترام ولا أن أذهب إلى أي مكان خوفا من أن تنشل مني الفلوس اللي في جيبي. ذهبت إلى منزلي مباشرة ودخلت غرفتي وخلعت ملابسي ووضعت النقود تحت مخدة السرير ورقدت عليها. ما كدت أنتهي من ذلك حتى دخلت علي زوجتي وقالت: - إيه؟ كفى الله الشر. مالك راقد مبوز كدا؟ إنت تعبان ولا عيان؟

- لا أبدا.

- أمال رجعت بدري كدا ليه ورقدت؟

- أصل ما لقيت حد من أصحابي في القهوة.

- يعني ما فيك حاجة؟

- لا أبدا. أنا كويس والحمد لله.

- إن كان كدا يا سيدي قل لنا بقى حنعمل إيه بكرة؟ أهو شوية العدس اللي كنت جبتهم خلصوا. يدوب حيكفوا النهاردا فاعمل

t.me/qurssan

حسابك لبكرة. ومش بس كدا، عاوزين شوية جاز للمطبخ واللمبات وكمان قزازة لمبة لأنها انكسرت. يا أختي قطيعة! قطعت اللمبات وسنينها.

(لأن شركة الكهرباء كانت قطعت عنا التيار الكهربائي من عدة شهور لتأخرنا في دفع مطلوبها فاضطرينا لاستعمال لمبتين جاز وشمع).

- قل لي بقى بكرة حناكل إيه؟

- حناكل ضلع خروف وحلة محشي.

- بتقول إيه! إنت يا راجل اتجننت؟

- أبدا باقول حناكل ضلع ومحشي.

- لا إنت لازم عيان، عندك حمى وبتهذي.

وقامت تجس بيدها جبهتي ورقبتي بينما بقيت أنا راقد ساكن بدون حراك فقالت: - مش باين عندك حمى. أمال مالك قاعد مصنم كدا وعينك زي المقززة؟

بقيت ساكن ساهم كما أنا دون أن أحير جواب فاستمرت هي: - يا أخي ما تتكلم. مالك ساكت كدا لا بترد ولا بتصد؟ يا ندامة إوعى يكون لسانك اتمسك ولا حيجرى لك حاجة؟ أدحنا عايشين زي الكلاب لكن الحمد لله فاضل لنا صحتنا ربنا يدومها علينا، نحمدك ونشكرك يا رب على كل اللي تجيبه. الله! ما تتحرك يا راجل. قول اتكلم مالك؟

بدون أن أفتح فمي بكلمة أخرجت أوراق البنكنوت من تحت المخدة وفردتها صفوفا على ملاية السرير كما يفعل لاعب القمار عندما ينزل أوراقه على طاولة اللعب، بحلقت فيها زوجتي ثم ضربت صدرها بيدها كأنما طلع أمامها عفريت من تحت الأرض، وصرخت كأنما قرصتها عقربة: - يا دهوتي! إيه دا يا خليل يا خويا؟

t.me/qurssan

- زي ما انتي شايفة ورق بنكنوت. فلوس.

بعد ما تمالكت زوجتي نفسها وشهقت شهقتين بدأت تعد الأوراق المرصوصة على السرير: - واحد اتنين تلاتة... تسعة عشرة. دول عشر خمسات يعني يبقوا خمسين جنيه. إزاي دا؟

- حسابك مظبوط.

- يعني الورق دا يبقى تمام خمسين جنيه؟

- بالظبط.

سهمت لحظة ثم حملقت في بنظرة عميقة لا أنساها وقالت: - أنا كل شيء كنت أنتظره منك إلا كدا.

- إيه هو ((كدا)) اللي ما كنتي تنتظريه مني؟

- بقى يصح برضه بعد العمر دا كله تعملها يا خليل؟ قل لي كدا بقى بالأمانة الفلوس دي سرقتها منين؟

اندهشت من أن زوجتي اللي تعرفني حق المعرفة تظن بي مثل هذه الظنون. كيف تسول لها نفسها أن تتهمني بالسرقة بعد كل هذه العشرة الطويلة؟ تألمت وصعب علي منها. هنا طرأت في ذهني فكرة فجائية وهي أني لا أريحها وإنما أستمر معها في تمثيل دور اللص ما دامت اتهمتني باللصوصية زورا وبهتانا. أجبتها بصوت منخفض أتصنع فيه السرية كما يفعل المذنبين: - وانت يهمك إيه؟ مش لكي إنك تاخدي منهم وتصرفي وتتبحبحي؟

- والنبي ومن نبى النبي ما أمسكهم ولا أحط إيدي عليهم قبل ما أعرف دول جايين منين.

- يا ولية وانتي مالك. الدنيا دلوقت ماشية كدا. كل واحد عاوز يمشي حاله. الجدع اللي يلحق يلطش له حاجة منها. أهو قدامك فلوس سرقتها مطرح ما سرقتها يهمك إيه؟ خلينا نشم نفسنا شوية ونعيش لنا يومين.

t.me/qurssan

- والنبي ما يدخلوا لي طرف. أنا راضية بالفقر والجوع ولا آكل من القرش الحرام.

- إنتي حرة خليكي جعانة بقى. إنما أنا حاصرف منهم على البيت والعيال وحناكل ونتكسي وندوق شوية طعم الدنيا.

هنا سمعنا نقر على الباب ثم دخلت علينا حماتي بشكلها الوقور تغطي رأسها طرحتها البيضاء وتتدلى من حزامها سبحتها الطويلة. الحموات مشهورة عادة بالتداخل فيما بين بناتهم وأزواجهم والعراك والمشاغبة مع أزواج بناتهم، ولكن حماتي والحمد لله كانت مستثنى من هذا النوع الردي من الحموات. كانت هادية مؤدبة حسنة الألفاظ وسياسية كبيرة تاخذ كل واحد على قدر عقله. فكانت صديقة جميع من بالمنزل بما فيهم أنا.

كانت أيضا حاجة ولا يفوتها فرضها، وإن كان لا بد من أن أجد فيها عيب فهو شراهتها وأن همها على بطنها. حتى لما كنا نبات كلنا آكلين عيش حاف، كانت هي تجد طريقة التأكل بغموس مما تكون خبأته في أحد مخابئها العديدة لأنه كان عندها عدة مخابئ حتى لا يعثر أحد على كل ما تخبيه، فكانت فى مكرها هذا مثل الثعلب اللي يجعل لجحره عدة مخارج ليستطيع أن يهرب من أحدها في ساعة الزنقة.

من أقوالها المأثورة ((كل القوت قبل ما تموت)) و ((السيارة ما تمشيش من غير بنزين)). رغما عن أنها كانت قريبة من السبعين فإني لا أذكر أني رأيتها في يوم مريضة أو حتى متوعكة المزاج. لم أكن أدعوها باسم ((حماتي)) لما في هذه الكلمة من قلة الذوق، كما أني لم أرد أن أدعوها ((عمتي)) أو ((خالتي)) حتى لا أعجزها، وإنما كنت أدعوها ((أبلة)) و ((يا أبلتي)) كأنها أختي الكبيرة.

بمجرد ما دخلت حماتي غرفتنا واقتربت منا رأت منظر أوراق البنكنوت المفروشة على السرير. تأملتها جيدا ثم انفرجت شفايفها عن ابتسامة عريضة وقالت: ((أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله)).

t.me/qurssan

- جرى إيه يا أبلة؟

- باتشاهد فيها حاجة؟

- ليه إن شاء الله بعد عمر طويل.

- ما تخاف لسه بدري. إن شاء الله حاشوف ولاد أولادك.

- طيب أمال مالك؟

- أصل لما شفت منظر الفلوس الكتيرة دي اللي يرد الروح اتشاهدات شكرا لله على عطيته لأن الشكر في النعمة واجب. سيدك رحيم وحنين وغني وله ما في السموات وما في الأرض وخزاينه ما لها عد. العبد مش لازم يقطع عشمه فيه لأنه النهاردا يمنع وبكرة يرزق من غير حساب. أهو عوض حرماننا خير فلازم نشكره على ما عطانا.

- إنما يعني ما سألتي الفلوس دي جاية منين؟

- وأنا مالي يا خويا؟ أنا ما اتحشر في اللي مالي فيه.

- قولي لبنتك يا ستي اللي بتتهمني بسرقتهم وقاعدة تشتم في.

- يادي العيبة! حد يعمل كدا يا بنتي؟ بقى دا برضه بدل ما تشكري ربنا على النعمة اللي جابها لك لحد بابك؟ ما تآخذها يا خويا. أصل الفقر والحرمان أثروا في عقلها اليومين دول.

اسمعي يا بنتي، الراجل وظيفته يجيب فلوس لبيته إن شا الله من تحت الأرض. كسبهم لقاهم سرقهم دا شأنه ومراته ما لها دعوى. الراجل عليه يجيب الفلوس وهي عليها تدبر أمر صرفها وبس. كل واحد مسؤول عن نفسه خصوصا في الزمن دا.

- عفارم عليكي يا أبلتي، إيه الكلام دا اللي زي الجواهر؟ أهو إنتي باين عليكي إنك كنتي بنت عز وعارفة الدنيا وعندك مخ عملي واقعي كأنك متخرجة من كلية التجارة مش زي بنتك دي اللي مخها قافل.

t.me/qurssan

هنا قالت زوجتي بغضب:

- يا بختكم إنتم بعقولكم المتنورة. ما دام أنا واحدة غبية ما بافهم آديني سايبة لكم المطرح واعرفوا إنتم شغلكم مع بعض.

وخرجت بعد أن رزعت وراءها الباب بصوت رج البيت القديم. نظرت لي حماتي وهي تهز رأسها وتتبسم في تساهل كمن يبتسم عندما يرى طفل كسر طبق أو قلب كوب اللبن، ثم قالت: - ما تدق عليها لسه صغيرة.

- إلا صغيرة دي كمان. دي واحدة جاية على الخمسين.

- ما هو ياخويا العقل مش بالسن. دي جاهلة ما تعرفش إن الجري ورا الرزق عبادة.

حبيت أعاكس حماتي اللي كان دينها وإيمانها في معدتها وليس في قلبها فقلت لها: - بس الرزق الحلال يا أبلتي.

- طبعا يا خويا. لكن الرزق اللي يجيبه ربنا لواحد جعان يكون دايما حلال.

إنت ما تعرفش المثل اللي لازم يكون طلعه جماعة فقرا ويقول ((حلال كلناه حرام كلناه)) إزاي حيكون في حيل أصلي وأصوم له إذا كان سايب لي معدني فاضية؟ يعني ولية ضعيفة كبيرة زيي تلاقي خزاين ربنا مفتوحة قدامها وتلجأ لقسم الخيرات في وزارة الأوقاف ولا لإعانات وزارة الشؤون الاجتماعية اللي ما يعطوا قرش إلا بعد ما يحققوا ويدققوا شهور وأيام يكون الفقير فيها مات على رأي المثل ((موت يا حمار لما ييجي لك العليق)) ويا
ريتهم بعد كدا يعطوا حاجة تبل الريق.

- لكن العبادة مفضلة على الأكل لأن ربنا سبحانه وتعالى قال: ((فإذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا في الأرْضِ وابتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ)).

- طيب ما هو عارف إنهم قبل ما يصلوا كانوا متغديين. نهايته

t.me/qurssan

- أنا حاعمل مجلس عائلي ديموقراطي نوزع فيه المبلغ دا على كل واحد من العايلة حسب احتياجاته.

بعد ما خرجت حماتي من عندي بنحو ساعة وجدت كل أهل البيت يدخلوا علي كأنهم وفد حضر ليقدم شكوى لوزير، ووقفوا أمامي ينظروا لي نظرات كلها معنى. لم يشموا طبعا رائحة النقود وإنما لا شك أنهم عرفوا أمرها من حماتي. أخذتهم إلى مائدة الطعام وجلسنا كلنا حولها، ومسكت في يدي ورقة وقلم ودعوت كل واحد منهم أن يتقدم بطلباته الضرورية والضرورية جدا.

ابني عادل طلب مبلغ لشراء كتبه الجامعية وبنطلون وحذاء. بنتي إخلاص طلبت شراء حذاء وجوب لأن جوبها فيه تلات رقع وكذلك بالطو تلبسه لتغطي به بهدلة ملابسها. أما أختي فانتقدت حب المظاهر هذا وطلبت توب بفتة لكي يصنعوا منه ملابس داخلية للجميع. حتى البنت نعيمة الشغالة طلبت ماهيتها المتراكمة عندنا وقالت: ((على الأقل علشان أشتري لي جزمة ألبسها قدام الضيوف بدل ما أنا باطلع لهم بالقبقاب)). سألت حماتي عن طلباتها لأنها التزمت الصمت فقالت: - أنا مندهشة من الأولاد دول اللي ما بيفكروش إلا في اللبس والمظاهر وناسيين بطونهم. أهم حاجة هي تخزين البيت بحاجات الأكل، فلازم نجيب صفيحة سمن وشوال رز ونص صفيحة زيت وشوية مكرونة وصندوق صابون مش نفكر في المظاهر وبس.

ابني عادل قال لها:

- لكن يا ستي دا المثل بيقول ((فوت على عدوك جعان ولا تفوت عليه عريان)).

علشان عدوه مش شايف جوه بطنه لكن يشمت فيه لما يشوفه مبهدل.

- أصل يا ابني لازم اللي ألف المثل دا كانت معدته وجعاه ولا نفسه مسدودة ولا مغرم بحب المظاهر زيك. هي القوة بتيجي إلا من القوت، والدراع يتحرك والمخ يفكر إلا من المعدة؟

t.me/qurssan

قلت مشجعا لها:

- دانابليون القائد العظيم قال ((إن الجيش بيمشي على معدته)).

فالتفتت حماتي إلى الأولاد وقالت لهم بصوت المنتصر: - سامعين يا أولاد حتى بابليون كمان من رأيي. على كل حال فكروا إنتم على مهلكم لكن أنا لازم بكرة إن شاء الله أعمل لكم ملوخية بالفراخ، خلينا نتظفر شوية بعد ما الفول والعدس والجبنة القريش ما هروا مصارينا.

بعد أن فهمتهم أني أخذت مذكرة بطلباتهم وأنها ستكون موضع دراستي وسأجتهد لإرضاء الجميع كما تقول الجهات الرسمية لكل جماعة تتقدم لها بشكوى، قمت من المجلس لغرفتي، بعد لحظة دخلت ورائي زوجتي فقلت لها: - يعنى كل واحد في العايلة كبير وصغير طلب طلباته وانتي ست البيت ما طلبتي حاجة؟

- ما انت عارف رأيي، يعني مش حتريحني وتقول جبت الفلوس دي منين؟

- يا ستى بسيطة. هو احنا مش عارضين شقة للإيجار.

- طيب وماله. هو إيجار المخروبة دي حيجيب كل الفلوس دي؟

- أصل أجرتها لمستأجر غني دفع لي تلات أشهر مقدم.

- والمستأجر دا مالي إيدك منه؟

- يهمني أمره في إيه ما دام دفع لي تلات أشهر مقدم؟

- على كدا لازم أجرت له كل البيت وحنخرج دلوقت في الشارع؟

- لا يا ستي اطمئني، أجرت له الدور الفوقاني بس، وحنفضل في الدور الأرضي زي ما احنا. ما احنا خلاص اتعودنا على الزنقة.

- طيب وبكم أجرته؟

- بخمسة عشر جنيه في الشهر.

t.me/qurssan

- ودا برضه معقول؟

- ليه مش معقول؟

- بقى يا راجل برضه بيتنا القديم الهلكان دا يسوى القيمة دي؟

- يا ستي الدنيا فيها مخفلين كتير ومن حظي إني وقعت على واحد منهم غني ما بيدق، وعلى رأي المثل ((رزق الهبل على المجانين)).

- إوعى يكون واحد من اللي بيلعبوا بذيلهم.

- يعني إيه؟

- يعني يكون حيستعمل الشقة في حاجة وحشة. ما تنسى إننا عشنا طول عمرنا ناس أشراف وعندنا بنت شابة وشاب.

- يا ستي حطي على قلبك بطيخة صيفي، أهو كويس وحش إحنا بقى وبختنا، وإن كان على الإيجار قبضناه مقدم. المستأجر حيقعد تسعين يوم يقضيهم بالطول ولا بالعرض ويعدوا ويفوتوا. إن عجبنا جددنا له الإيجار وإن ما عجبنا حاله عزلناه. هو احنا ناسبناه؟

لم أرد أن أخبرها عن مسألة القمار فأفتح على نفسي فتحة لا أقدر على سدها ولا أنتهي من قرها ولتها وعجنها، خصوصا وأنها امرأة محافظة حنبلية من الصعب أن تتمشى مع روح الحياة العصرية. يدهشني أنها بنت أمها.

t.me/qurssan

٤

بعد ما سددت ديونى واشتريت الضروريات اللي طلبها أفراد العايلة كان المبلغ اللي بهرنا في أول الأمر تبخر ولم يبقى منه في يدي إلا خمسة جنيه وكسور. قضينا نحو أسبوع في دوشة وضوضاء من أصوات النجارين والبويجية اللي أرسلهم المستأجر الجديد لتصليح وتزيين شقته. كانت حماتي تدخل علي وتقول: - أما المستأجر الجديد دا باين عليه غني قوي. أنا شفت من ورا الشباك فرشه وهو داخل. حاجة ترد الروح.

بعد ما انتهت جلبة العمال اللي كان يتردد عليهم غرباوي، انقطع عن الحضور عدة أيام. رغما عن ذلك نبهت جميع أفراد عائلتي إلى أن فسحة المدخل - اللي كان فرشها غرباوي بكنبة وفوتيلين وطرابيزة ومرآة – مشتركة بيننا، وأن عليهم أن يدخلوا غرباوي بك وكل من يحضر من طرفه.

بعد يومين عدت إلى منزلي بعد العشا فوجدته مقلوب رأس على عقب. الكبير والصغير كلهم يريدوا أن يحكوا لي حادثة - كان كل واحد منهم يقول للآخرين ((اسكت أنت – أو أنتي - خليني أنا أحكي له)) شخطت فيهم وأسكتهم جميعا وقلت إن الكلام للأكبر في السن وأشرت على حماتي أدعوها للكلام. ارتسمت على وجهها ابتسامة رضا وارتياح وعدلت أطراف طرحتها واعتدلت في مجلسها ثم قالت: - واحنا قاعدين في أودنا سمعنا صوت تربيل وقف قدام بابنا، وبعد شوية ضرب جرس باب الحارة. بصينا لبعض باستغراب ولما لقيت ما حد التحرك من مكانه قمت أنا فتحت الباب لقيت قدامي رجل وست. الاثنين شباب وحلوين. إلا الست كانت زي القمر ولابسة فستان صدره مفتوح مقور قوي لدرجة إنه كان مبين أول الخط اللي بين بزازها. الأفندي سألني: ((مش هو دا البيت اللي مأجره غرباوي بك؟))، قلت له: ((أيوه، اتفضلوا)). دخلوا الاثنين وقال لي الأفندي إنهم قرايب غرباوي بك وبعتهم علشان حيباتوا الليلة في شقته. يوا! نسيت أقول لك إنه كان شايل شنطة هدوم في إيده. شاورت لهم على السلم

t.me/qurssan

وقلت لهم يتفضلوا على فوق على شقة غرباوي بك. طلعوا قدامي وكانت أختك والأولاد طلعوا من شققنا ووقفنا كلنا نتفرج عليهم. الشابة كانت لابسة فستان قد كدا محزق عليها لدرجة إن الواحد يحسبها عريانة. كانت وهي طالعة السلم كل حتة في جسمها بتلعب وتترجرج زي طبق الألماظية. الأولاد كانوا باصين لها كدا ومبحلقين عينهم زي اللي...

- ما تدخليش سيرة الأولاد في الموضوع دا، وكمان ما في لزوم لوصف كل التفاصيل دي.

لما وجدت المسألة ملبخة بهذا الشكل سحبتها من يدها وذهبت بها إلى غرفتي وقفلتها علينا ثم طلبت منها الاستمرار في حكايتها فقالت: - بعد ما طلعوا فوق، قلت في عقل بالي يا عيني الشاب والشابة دول داخلين في شقة فاضية لسه ما فيها حد، مش واجب علينا نقدم لهم ولو فنجال قهوة ولا دول مستأجرين غرب مالناش دعوى بهم؟ عقلي قال لي هم حقيقي يبقوا سكان غرب من هنا ورايح، ولكن في أول جيتهم دي يعتبروا كأنهم ضيوف واجب إكرامهم. ما كدبت خبر عملت فنجالين قهوة مظبوطين بوش كويس وبعتهم بالصينية مع البنت نعيمة للجماعة اللي فوق بعد ما لبستها جلابيتها وجزمتها الجداد. البت طلعت ورجعت لي بعد شوية مدلدلة بوزها والقهوة على الصينية زي ما هي .ما اتمسكت.

قلت لها:

- جرى إيه يا بت؟ كفى الله الشر ليه ما شربو قهوتنا؟

- أصل أنا خفت أدخل عليهم .

- ليه بقى؟

- يظهر عليهم إنهم عيانين .

- إيش عرفك؟

- علشان قبل ما أخبط على الباب استنطت فسمعت من جوه

t.me/qurssan

صوت أنين زى نزع .

- حسن نزع إزاي يا بت؟

- يعني حس واطي كده ((آه. آه)) زي ما يكون حد عيان وبينازع وكان الصوت جاي منهم هم الاتنين.

أقول لك الحق يا خويا كلام البنت وغوشني، وقلت ما داهية ليكونوا دول جايين عيانين يمكن بمرض معدي يعدوا لنا كل ...

فقاطعتها قائلا:

- طيب البنت الفلاحة الشابة الغشيمة نعذرها لكن إنتي، إنتي الست الكبيرة اللي مخلفة ومجربة ما تعرفي. برضه صوت زي دا لما يصدر من رجل وست لوحدهم قافلين عليهم أودة يبقى إيه؟

- آه صحيح، شوف ياخويا! والله أنا ساعتها ما جا في بالي حاجة وحشة لأني ما كنت واخدة خوانة.

- نهايته. حصل إيه بعدين؟

- كنت لسه يدوب بافكر في مسألة مرض الجوز اللي فوق دول إلا وأسمع جرس باب الحارة يدق تاني. رحت ورا الباب وخفت أفتح، فسألت من ورا الباب: ((مين؟))، سمعت صوت راجل بيقول: ((افتحي لما أكلمك)). قلت له: ((ما تتكلم من ورا الباب)). قال: ((ما يصح لاحسن الجيران تسمع)). فتحت الباب لقيت قدامي شاب طول وعرض.

قال لي:

- ألا يا ست مش هنا البيت السري اللي فتح جديد؟

- بيت إيه يا ابني؟

- بيت سري.

- ودا يبقى إيه كمان؟ هو فيه بيوت سر ومش سر؟

t.me/qurssan

- ما تستعبطي أمال، يعني بالعربي كره خانه.

- أعوذ بالله! أنا ما أعرفش حاجة زي دي.

راح الراجل زايحني من عتبة الباب ودخل وقفل وراه الباب، وقال لي: *- بقى اسمعي، الكلام دا مش علي.*

- إنت أحسن ذلك تلم لسانك ولا أزعق أنده الناس وأوديك القره قول.

- وكمادة لكي وش تجيبي سيرة القره قول يا ولبة يا دقماقة؟ أنا عارف تمام ذي ما أنا شايفك قدامي إن بهجت وعلية هنا في البيت دا.

- والله يا إبني صدقني، أنا لا أعرف بهجت ولا علية دول اللي بتقول عليهم.

- دانا ممشي واحد وراهم يتجسس عليهم وأعطاني العنوان بالظبط، سيبك من الأسامي، جالكمش قبل شوية شاب وشابة؟ في الحقيقة لما لقيته عارف كدا ما قدرتش أنكر وقلت له إن دول بيقوا قرايب مستأجر الشقة، فقال لي: - لا يا شيخة! طيب بصي لي كدا كويس، روحي قولي لهم إن علي أبو الروس هنا وعاوزهم.

- أنا ما أقدرش أزعجهم.

- بقى شوقي، يا حتروحي إنتي تقولي لهم ينزلوا لي هنا يا حادخل أفتش عليهم في بيتكم شق شق وأطربقه على دماغكم وأخلي ليلتك وليلتهم زفت وقطران، دانا يا ست علي أبو الروس على سنن ورمح إنتي فاكرة إيه؟

أنا يا خويا في الحقيقة اتلبشت وسابت مفاصلي. قلت له: ((طيب يا سي علي أنا حاريحك، عن إذنك دقيقة وأنا أشوف لك حل)). راح قاعد على الكنبة ومدد رجليه على الطرابيزة وقال لي: ((عندك خمس دقايق بس ولا وقعتكم تبقى زي الطين)). دخلت على شقتنا لقيت كل العايلة متلبشة لأنهم كانوا مواربين الباب

t.me/qurssan

وسامعين. مراتك وأختك عمالين يخبطوا على رأسهم ويلطموا، وإخلاص وشها أصفر زي الكركم، وعادل متنرفز رايح جاي مش عارف يعمل إيه. شفت إنه مافيش فايدة أشاورهم في أمر الفتوة اللي مستني بره. أخدت بعضي وطلعت من سكات على السلم وأنا باتسند على الطرابزين وآخد نفسي كل سلمتين لأن ركبي كانت سايبة، لحد ما طلعت فوق ورحت خبطت على باب الأودة المقفولة. سمعت من جوه صوت الراجل بيقول: - *إحنا تعبانين وراقدين مش عاوزين حد يزعجنا.*

- *دا مش أنا اللي باز عجكم.*

- *عجايب! أمال مين؟*

- *دا علي أبو الروس اللي عاوزكم وقاعد مستنيكم تحت في فسحة المدخل.*

اسم علي أبو الروس دا كان زي بمبة واترمت عليهم لأني سمعت صوت جري رجلين، وبعدها اتوارب الباب وطل لي منه براسه الشاب وهو مداري بقية جسمه العريان ورا ضلفة الباب، وقال: - *بتقولي علي أبو الروس تحت ؟*

- *أيوه.*

- *عاوز إيه ؟*

- *بيقول خلي بهجت وعلية ينزلوا لي حالا.*

- *إنتي قلتي له إننا هنا؟*

- *لا أبدا. هو كان عارف وقال لي أساميكم .*

- *كويس قوى. أنا جايب معايا مسدس ومعمره علشان خاطره.*

كانت ريحة الخمرة فايحة من بقه وهو بيكلمني ومش عارفة جاب الخمرة منين. لازم كانت معاه في الشنطة. فأنا يا خويا خفت من الفضيحة اللي حتحصل في بيتنا إذا اتخانق بهجت السكران دا مع الفتوة علي أبو الروس، فقلت له: - *في عرضك يا*

t.me/qurssan

ابني بلاش فضايح. إنت جاي هنا بصفتك ساكن، فإذا كنت عاوز نتعارك مع علي أبو الروس شوف لك حتة تانية غير هنا .إحنا بيتنا مش محل مضاربة.

- طيب علشان خاطرك حاهوته في حتة تانية.

- كتر خيرك يا ابني. ألا إنت والست اللي معاك تبقوا إليه لبعض؟

- أنا جوزها وهي مراتي ومتجوزين جديد.

- طيب ما دام كدا علي أبو الروس دا يبقى ماله ومالكم؟

- دا يبقى جوز مراتي الأولاني.

- هو مش طلقها وانت تجوزتها؟

- أيوه بالرضا والاتفاق بيننا.

- إن كان كدا يبقى أبو الروس دا مالوش حق ييجي وراكم.

هنا طلعت لي الشابة اللي كانت جوه الأودة وهي عريانة مش لابسة غير كلوت، وقال إيه عاملة لي وش حيا مغطية بزازها بإيديها، وقالت لي: *- العجايزالدقة القديمة اللي ريك ما يقدروش يفهمونا، إن كان عندكم في البيت شابة ابعتيبها لي الأعرف اتفاهم معاها.*

- يا بنتي أنا لا عاوزة أكلمك ولا أتفاهم معاكي. أنا بس عوزة نشوفوا لكم صرفة مع الفتوة اللي مستنيكم تحت عليشان ما تحصلش في بيتنا فضايح بسبب ست زيك لهاجوزين بيجروا وراها.

- أيود لى جوزين وتلاتة كمان. فيها إيه؟ إيش عرفك إنتي بالحاجات دي؟

- طبعا إيش عرفني أنا بالحاجات دي اللي كنت باسمع عنها من علامات قيام القيامة. ربنا يحفظنا من ستات آخر الزمن.

- على كل حال إنتي ولية عجوزة خلاص راحت عليكى. أما

t.me/qurssan

الشابة اللي زيي فبدأت تطالب بحقوقها وتتجوز اتنين وتلاتة كمان زي ما بيعملوا الرجالة ما دام النهاردا الستات تساوت مع الرجالة. مش الستات بقت النهاردا موظفات وسفرا ووزرا وأبطال رياضة وباراشو تيست زي الرجالة تمام؟ مش بيشربوا خمرة ويرقصوا ويلعبوا قمار زي بعض؟ خلاص كمان يتجوزوا زي الرجالة التنين وتلاتة.

- والرجالة حيقبلوا الحال دا؟

- غصب عنهم. كل تجربة في أولها صعب. فأنا دلوقت باستعمل جوزين زي العريجي ما يعلق في العربية حصانين، وشطارة العربجي في إنه يعرف يمشيهم كويس مع بعض. النهاردا يتضاربوا وبكرة يتخانفوا وبعدين يتحبوا من كدا فيتصالحوا ويتعودوا على الحال دا.

- والله يا بنتي الحال المايل دا ما يرضى عنه لا شرع ولا دين ولا قانون.

- بكرة يرضواعنه. هو زمان مش كان للزوجة عشيق في السر؟ اهو دلوقت حنرفع برقع الحيا ونخلي المسألة على المكشوف. زي الراجل ما له الحق في إنه يتجوز أكثر من واحدة كذلك حيكون للست الحق دا.

- أنا ما أفهمش الكلام دا. أنا أعرف إن ربنا خلق الراجل راجل والست ست. ناقص شوية كمان تطلبوا يا ستات اليوم إن الراجل يحبل ويولد بدلكم.

- لا دا شرف ربنا اختصنا به ما يستحقه الرجل لأنه ...

قطعت كلامها لأننا سمعنا صوت تصقيف من تحت وصوت علي أبو الروس بيدوي: ((خلاص الخمس دقايق يا ست انتي. هم فين؟)). قلت لها: - آديكي سامعة بودنك. ما دام الست مساوية للراجل في كل حاجة يا الله وريني شطارتك. خدي مسدس جوزك الجديد وانزلي كلمي به جوزك القديم.

t.me/qurssan

- يا سلام! ودي حاجة كمان؟ أنا ياما أدبت رجال أشرس من علي ابو الروس بتاعك دا ومن غير سلاح كمان.

- بتاعي أنا مين! بتاعك إني.

- يعني بافهمك إنه عندي أجعص شنب على جزمني.

- ما فيش لزوم يا بنتي للكلام دا. أبو الروس دا باين عليه شاب متهور ودمه فاير. فما تهيجيه بكلام جارح زي دالاحسن يا الله السلامة يتنرفز وتطلع عفاريته و ...

- ولا يقدر يتنرفز علي. أنا قبل ما أخش في حضن راجل أكون وزنته ع القسطرة وعرفته تمام. أعرف درجة تحمله للتقل وللبهدلة وللغيرة ولكل حاجة. فالراجل مهما زعل وغضب ما يستغنى برضه عن الست لأد الراجل والست ما لهم غنى عن بعض لأن ربنا جعلهم السبب في عمار الكون.

لقيتها يا خويا شابة قادرة وفاجرة ومسحوبة من لسانها بتتكلم زي المحامين. قالوالي إنهم حيلبسوا ونازلين، فسبتهم ونزلت أصبر سي علي أبو الروس. ما غابوش كتير ونزلوا والراجل شايل الشنطة. أنا خفت ليتضاربواتيجي في ضربة وأنا ولية كبيرة ملزقة، فدخلت على شقتنا ووارينا الباب ووقفنا كلنا وراه لتصنت. أول ما نزلوا شفنا علي أبو الروس راح جري على الست علية وقال لها بغاية الرقة واللطف: *- أهلا بستي حبيبتي ونور عيني. إنتي كنت فكرة إني حاقدر على بعدك ؟*

- أنا عارفاك زي كلب الصيد تشم الريحة من بعد كيلو مترات.

ودلوقت عاوز مني إيه يا راجل إنت ؟

- هو انتي مش هراتي ؟

- لا.

- إزاي؟ أنا ما طلقتك. شرعا وقانونا الراجل بس اللي يطلق.

- دا كان زمان وجبر. أما دلوقت فالواحدة منا بتتجوز وتتطلق

t.me/qurssan

حسب مزاجها من غير شرع و لا مأذون. ما سمعتش عن حاجة اسمها جواز عرفي يا عين أمك ؟

- إنتي عرفة إن الحق والقانون في صفي، وإني أقدر أجيبك بكرة عندي غصب عنك.

- هئ هئ هئ؟! خوفتني يا الدلعدوي، مش قصدك في حكاية بيت الطاعة القديمة اللي فاضلة من أيام ما كانوا بيعتبروا الست زي فرس ولا جاموسة اشتراها الراجل؟ ولا تهمني. إن كنت جدع نفذها ولو حتى نجحت فيها وحطتني في سجن فرة ميدان حتبص تلاقيني تاني يوم خرجت منه باجري على حل شعري.

- يا علية العقلي أحسن لك والخزي الشيطان.

- يا حبيبي داشيء بالعقل. إحنا مش عشنا سوا مدة وأخدنا غيتنا من بعض؟ خلاص بقى نفضها وكل واحد يروح لحاله، ولاانت بتبص للناس الدقة القديمة اللي متجوزين وعايشين معض سنين طويلة؟ دول جنس قرب علٰى الانقراض ري حيوانات ما قبل الطوفان وما بقاش بيجي منهم تاني. ولاد اليوم عاوزين يعيشوا مع بعض بحريتهم بدون ما يجبرهم على العشرة عقد جواز ولا قانون، طول ما هم مبسوطين من بعض أهم عايشين سوا، واحد منهم اتضايق يقول للتاني ((متشكر يا حبيبي على الأيام الحلوة اللي قضيناها سوا. ودلوقت أنا ماشي السلام عليكم)) ويروح الحاله. أهو أنا دلوقت سبتك واتجوزت بهجت جواز عرفي لما أزهق منه زي مازهقت منك أقول له ((ما عطلكش يا شيري)).

كنا قاعدين كلنا نسمع من ورا الباب واحنا متعجبين من حال الناس دول. إحنا الكبار كنا مكسوفين من إن عادل وإخلاص والبنت نعيمة شافوا منظر زي دا.

لكن الراجلين لا ضربوا بعض ولا حتى كلموا بعض، وإنما الست شخطت فيهم و قالت لهم: ((يا الله بينا نخرج نروح نتعشى. هات إيدك إنت وهو)). راح كل واحد منهم حاطط إيده في ذراعها اللي

t.me/qurssan

من ناحيته وخرجت من البيت متسندة بين الرجلين.

سكتت حماتي تشم نفسها، وبعد أن بقينا نحن الاثنين ساكتين وقد ارتسمت على وجوهنا علائم الهم والتفكير، استأنفت حماتي كلامها قائلة: - يا خويا الحق على الرجالة. اذا كان الجدعين دول قابلين إن شابة زي دي تمرمط فيهم كدا يبقوا يستاهلوا كدا وأكتر. صحيح بقينا أخر زمن. البني أدمين بقوازي البهايم ما عندهم لا دم ولا عايلة ولا بيت ولا ولادهم عارفين لهم أب.

كنت طول هذا الوقت أتلقى كلمات حماتي كأنها كفوف نازلة على وجهي، وأحيانا أشعر بها كأنها وخز إبر تشكشك في قلبي. أخيرا فتحت فمي وسألتها عما إذا كانت انتهت من حكايتها المخزية. فقالت: - أيوه، بس بعد ما راحوا في داهية طلعت أشوف حال الأودة اللي كانوا فيها لقيت على الطرابيزة قزازة وسكي فاضية وبقايا جبنة وبذر زيتون. يعني كمان كانوا عاملين الأودة خمارة.

- يا خي يا ستي الخمارة تهون جنب المسخرة التانية!

بعد ما خرجت حماتي من الغرفة أخذت أفكر فيما سمعت منها. كانت حكاية تسم البدن. كنت أتوقع أن غرباوي ربما يستعمل الشقة لتكون نادي قمار على أسوأ تقدير، ولكن ما دار في ذهني قط أن تبلغ به السفالة لدرجة أن يؤجرها للعشاق وأن يجعل منها بيت سري.

t.me/qurssan

هذه أول مرة تقع واقعة زنا في منزلي. وكيف؟ على مرأى من حريمي وأولادي. لئن كانت تبعة هذه الجريمة تقع أولا على غرباوي فإنها تقع ثانيا علي أنا، لأني قبلت تأجير منزلي لرجل مشكوك في سلوكه. لئن كان لي بادئ الأمر بعض العذر لأني كنت حسن النية أتوقع فقط أن يلعب مع أصحابه القمار في المنزل، فالآن بعد أن تكشفت أمامي الحقيقة المذلة أصبحت لا عذر لي في السكوت. أليس السكوت دليل على الرضا؟ وهو في هذه الحالة تستر على الجريمة بل اشتراك فيها.

لكن ماذا عساي أن أفعل؟ أطرد الرجل؟ هذا قول سهل لأنه يجب لذلك أن أرد له الخمسين جنيه اللي أخذتها منه وهذا مستحيل لأنها تبخرت بين يدي. من جهة أخرى يستحيل أن أفرط في شرفي وسمعتي في أواخر أيامي، فالشرف والسمعة هم رأس مال الفقير. إذن ما العمل؟ كدت أجن من فرط التفكير لإيجاد حل لهذين المستحيلين. وأنا سارح في هذه الأفكار السوداء دخلت علي زوجتي وهي غاضبة وقالت بحمقة ونرفزة: - آديك سمعت الحكاية بودانك، وأظن يا سيدنا الأفندي إن اللي حصل في بيتنا دا يسموه بالعربي تعريص. والمصيبة إنه حصل علني قدام ولادلك وحتى البنت نعيمة كمان.

- أنا مقدر الموقف وزعلان أكتر منك ولكن بس حاعمل إيه؟

- تطرد الراجل دامن بكرة.

- الكلام سهل، إنما علشان ما أقدر أطرده لازم أرجع له فلوسه، وانتي عارفة الزير وغطاه ما فضلش من الفلوس حاجة تقريبا. أطرده وأنكر فلوسه يبقى نصب واحتيال من جهتي ويقدر يشتكيني وفي إيده الوصل والايجار.

- نصب ما نصب أنا ما أعرفش. شوف لك طريقة تطرد الراجل دامن هنا وإن شا الله ناكلها بدقة ولا نخسرش شرفنا على آخر الزمن.

t.me/qurssan

يدوب خلصت كلامها هذا إلا وسمعنا جرس الباب الخارجي يدق، فدقت له قلوبنا. فكرنا فيمن عسى أن يكون الطارق في مثل هذا الوقت؟ أترى جاء زوج آخر إلى منزلنا ليسكروا ويتعروا ويناموا مع بعض؟

لم أرى بد من أن أقوم فأرى من الطارق في هذه الساعة المتأخرة، ذهبت للصالة حيث كان يجلس أفراد العائلة، وأخرجت رأسي من النافذة ونظرت جهة الباب ثم أدخلتها ثانيا بسرعة. توجهت إلي كل الأنظار في تساؤل فقلت لهم: ((هو. هو جا)). سألت زوجتي: ((هو مين؟)). قلت: ((غرباوي)). هربوا كلهم لغرفهم كالفيران اللي تهرب في جحورها.

كان علي أن أتخذ قرار على وجه السرعة، وأن أفعل شيء. هل أطرد الرجل شر طردة أم أدخله وأقابله؟ ليس الرجل ممن يطردوا من على عتبة الباب ويتركوا خمسين جنيه تطير من يدهم بسهولة، ولئن قابلته وكلمته في الموضوع أكون كأني اشتركت معه في صناعته القذارة؟ لكن الرجل اشتراني واستعبدني بالخمسين جنيه اللي دفعها لي. كنت لما استلمت نقوده النجسة وقعت معه عقد شركة ارتبطت بها معه. على كل حال يجب أن أفتح له فالمسألة لا يمكن أن تنتهي بطرده بكلمتين أمام عتبة الباب.

كان جرس الباب الخارجي بيدق باستمرار بصوت جريء من شخص مالي يده. ذهبت فتحت له بوجه عبوس. دخل وسلسلته الذهبية تهتز على كرشه، وسلم علي باشتياق متجاهلا عبوسي وقال: - هلبت ما انت زعلان علشان واحد صاحبي ومراته جم باتوا امبارح هنا؟

- بس لو كانوا با توا بأدبهم كان نهايته الأمريهون.

- ليه لا سمح الله؟ هم عملوا حاجة؟ دول أولاد ناس طيبين.

- قوي. ما هو باين عليهم.

t.me/qurssan

- أنا ما أفتكر إنهم زعلوك في شيء.

- الشاب والشابة اللي جم طلعوا قفلوا الغرفة الفوقانية عليهم وبعدها بشوية إلا وجرس باب الحارة بيدق. فكرك كان مين جه؟

- ما اقدرش أعرف.

- واحد اسمه علي أبو الروس.

- شوف ابن الكلب. إزاي عرف طريقهم؟

- والله داشيء تعرفوه إنتم. المهم إنه عمل عمايل ما يصحش السكوت عليها.

- عمل إيه السافل الدون دا؟

- أول حاجة يا سيدي لما فتحت له حماتي الباب سألها: ((مش هنا
البيت السراي اللي فتح جديد؟)).

- أما قليل الأدب صحيح.

- وبعدها قعد يزعق وعاوز اللي اسمهم بهجت وعلية ينزلوا له حالا وإلا يطلع لهم ويطربق البيت على دماغنا.

- مش غريبة من واحد شرموط بلطجي زي دا.

- وبعد ما بهجت هدد إنه حيضربه بالمسدس، نزل هو ومراته واتكلموا التلاتة مع بعض وأخيرا خرجوا دراعتهم في درعة بعض وهم زي السمن على العسل.

- ما هو الصنف دا اللي عاملين جمعية أعداء الفضيلة يبقى كدا.

- هو فيه كمان جمعية اسمها ((جمعية أعداء الفضيلة))؟

- أمال يا عزيزي. إنت ازاي على نياتك كدا ومش عارف حاجة عن أحوال العالم؟

- والله أنا أفضل إني ما أعرفش النوع دا من أحوال العالم.

t.me/qurssan

- داغلط. العلم بالشيء ولا الجهل به. لازم تعرف كل اللي بيجرى حواليك. تعالى معايا نقعد في مكان وأنا أفهمك.

وسار إلى شقته العليا وأنا معه. قبل أن أصعد السلم ناديت البنت نعيمة الشغالة وطلبت منها أن تحضر لنا فنجالين قهوة فوق لأن رأسي كانت بدأت تؤلمني. صعدنا الدور العلوي ودخلنا قعدنا في الغرفة اللي كانت بالأمس غرفة زفاف بهجت وعلية. كنا نتنفس هوا الخطيئة اللي ما زالت تملأ أرجاء الغرفة. بعد ما قعدنا قال غرباوي: - إحنا كنا بنحكي في إيه؟

- في ((جمعية أعداء الفضيلة)) اللي بتقول عليها.

- أيوه يا سيدي فكرتني.

- لازم حضرتك عضو فيها.

- لا يا عم خليل. لسه ماني عضو فيها للنهاردا.

- غريبة! ليه بقى؟

- إذا كنت النهاردا مش عضو فيها فمن الجايز إني أكون عضو بكرة.

- هي العضوية في الجمعية المحترمة دي مش متوقفة على إرادتك؟

- لا أبدا. الإنسان إما يعمل الشيء بإرادته وإما إن القدر يرتب له ظروف تسوقه لشيء معين ينغمس فيه تدريجيا بدون ما يشعر.

- يعني على كدا يصح إن الظروف تحكم علي إني أكون عضو في الجمعية دي؟

- بدون شك.

- اختشي يا راجل. هو أنا وش ذلك؟

- مافيش حاجة اسمها ((وش ذلك)). كل واحد معرض إنه يكون عضو في جمعية زي دي لما يكون مزنوق.

t.me/qurssan

- إن كنت فاكر إن كل واحد مزنوق يرضى يبيع شرفه في السوق تبقى غلطان.

- لا أبدا. يمكن بس المسألة مسألة ثمن. فمثلا الموظف الصغير المزنـوق يرضى يرتشـي بعشـرة جـنيه ورئيس القلم بعشـرين والمدير العام بمئتين وهكذا.

هنا دخلت علينا نعيمة بصينية القهوة. لاحظت أن غرباوي كان بينقدها بعينه من رأسها لرجلها. بمجرد ما خرجت سألني: - البنت دي لها مستقبل ييجي منها بعد سنة ولا اتنين. حتى دلوقت مش بطالة لو تتنجر شوية، لأنه اسمح لي يا عزيزي... شكلها ولبسها وشعرها مبهدلين خالص.

- والله دي شغالة في بيت ناس أشراف على قد حالهم ومش رقاصة فى صالة.

- عمرها كام؟

- تحت خمسة عشر.

- أهو بعد كم سنة لما تعدي السن القانونية يمكن ييجي منها، خصوصا إن ألذ سن للبنت عند الغواة هو لما تدخل في السبعة عشر.

لم يكن ذلك غريبا من الرجل، فمثلما يفهم النجار في الأخشاب ويفـهم الجواهـرجي فـي الجواهر، كان من الطبيعي إن سمسار الفحش يفهم في أنواع الجنس اللطيف. كيف كنت أسمح لنفسي بالكلام مع مثل هذا الرجل السافل وتحت سقف بيتي أيضا؟ لو رأى هـذا الرجـل بنتـي فـلا شـك أنـه سيزنها أيضا بميزان سوق الفحش ويسعرها بتعريفة الدعارة ومن الجايز أن يعرض علي ثمـن فيـها. لـم أكـن قرفـان مـن الرجـل قـدر قـرفي مـن نفسـي لمجالستي مثل هذا المخلوق الدنيء. تمالكت أعصابي حتى لا أشتمه وأطرده لأن خيال مبلغ الخمسين جنيه كان يتراقص دائما أمام بصري فيكتم أنفاسي ويخرس لساني. كان محكوم علي أني

t.me/qurssan

أستمع لهذا الرجل وأن آخذه على عقله إلى أن يأتي الله بالفرج ويخلصني من شر أسره.

كنا نشرب القهوة وندخن عندما فتح الرجل فمه القذر وقال:

- أفتكردلوقت خلاص بعد ما فهمتك الموضوع ما انتاش زعلان من مسألة علية وبهجت دي؟

- بس على شرط إنها ما تتكرر تاني، لأني أجرت لك بيتي ولكني ما أجرت لك شرفي.

- يو! برضه يرجع يقول لي شرفي. مش فهمناك يا عم خليل إنه مافيش حاجة النهاردا اسمها شرف. اعرف يا عزيزي إن الشرف والضمير دي حاجات تعتبر ترف ولو كس للفقير اللي زي حالاتك.

- يعني ما في حاجة اسمها شرف عام لكل الناس؟

- فيه ولكن تعرف هو إيه؟ تعرف الكالو اللي بيطلع في صوابع الرجل ونسميه ((عين سمكة)) ويؤلم في المشي؟ أهو الضمير كالو يطلع في عقول بعض الناس فيؤلمهم ويعطلهم عن المشي في طريق الثروة والنجاح.

- أهو أنا بقى من الناس اللي طالع لهم الكالودا.

- طيب تقدر تقول لي إيه هو الشرف؟

- الشرف معروف لكل الناس. فإما إنك تعرفه أو لا تعرفه.

- الشرف يا عزيزي كلمة مطاطة، فهو مثل جوبة الستات، سنة تكون للركبة وسنة تكون تحتها وسنة تكون فوقها وأحيانا فوقها بكثير وهو ما يسموه ((مينيجوب)) وهكذا. لذلك كان الأوربي قبل مائتين سنة إذا رأى رجل غريب يقبل أخته اعتقد إن من واجبه إنه يضربه بل ويقتله، أما الآن فإنه يسمح لذلك الرجل الغريب بأن يزوره في منزله ويتر كه يختلي بأخته في حجرتها. حاحكي لك كمان حكاية حقيقية حصلت على إيدي. لما كنت في لندن قبل زي خمسة عشر سنة كان لي هناك صديق طالب مصري كانت

t.me/qurssan

له علاقة سكسية مع بنت صاحب البيت اللي كان ساكن فيه، وانتهى الأمر إن البنت حبلت منه وولدت ولد. صاحبي دا رفض يتزوج البنت رغم إلحاح عائلتها اللي لجأت لي ولبعض أصحابه لنقنعه إنه يتزوجها ويصلح غلطته. وبخناه ولحينا عليه لحد ما قدرنا نخليه يقبل الاعتراف بالولد، ولكنه صمم على رفض الزواج من الأم لأسباب شخصية وعائلية. كان فات على كدا كم شهر كبر فيهم الولد، فلما رحنا أنا وصديقي لأبو الأم وأخبرناه بأن صديقنا مستعد للاعتراف رسميا بالولد، رفض ذلك وقال إنه غير فكره لأنه وجد الطفل ظريف جدا وعاوز يحتفظ به لبنته ولنفسه بدون ما يشاركهم فيه أبوه. شايف لأي درجة تغيرت الأخلاق والعادات في أوربا؟ أهو احنا كمان اللي بنقلدها في مدنيتها لا بد إننا نتغير مثلها، والمسألة مسألة وقت فاحنا متأخرين عنهم بقرن.

إنت ما قريت عن إحصائيات المواليد غير الشرعيين يعني ولاد الزنا في بلاد أوربا خصوصا في السويد وإنجلترا وألمانيا؟ دول بلغ عددهم تقريبا ربع عدد المواليد. إحنا هنا حقيقي ما وصلناش للدرجة دي من المدنية لسه، ولكن لا بد إننا نصل لها في يوم من الأيام.

- إن شا الله ما نوصلها، لأننا لسه والحمد لله عندنا دين وتربية وعائلات محافظة تعرف العيب والحرام.

- دول بيقلوا يوم عن يوم يا عم خليل تحت تأثير الحاجة والظروف الاقتصادية.

الإنسان كائن حي زي الحيوان والنبات اللي ينمو ويزدهر في الجو اللطيف وينكمش ويدبل وأحيانا يموت في جو الزوابع العاصف، كذلك الإنسان كان يمكنه يعيش وهو متمسك باللي بتسميه ((الشرف)) لما كان الجو الاقتصادي لطيف ملائم، يعني لما كانت الحاجة رخيصة والمعيشة سهلة، لكن دلوقت لما الحالة الاقتصادية اتلخبطت وأصبحت أحوال المعيشة قاسية والناس مش قادرة تعيش من شدة المنافسة وغلاء الأسعار والبطالة فلا يمكن إن اللي بيسموه شرف يقدر يعيش في الوسط دا. تعرف

t.me/qurssan

فين يمكن يقدريعيش لسه الشرف؟ في البلاد السعيدة اللي عايشة في رخاء بدون هم ولا مسؤوليات زي جزيرة هوايي، وزنوج أواسط أفريقيا اللي يقضوا يومهم في النوم والسباحة والصيد وليلهم في الرقص ويأكلوا جوز هند وموز بلاش لأنه طالع شيطاني وغير مفروض عليهم لعنة العمل، أما في المجتمع المتمدن التعيس فدا مش ممكن، لأن الإنسان لما يجوع يسرق، والمرة لما تجوع تبيع نفسها. إنت ما سمعت إن جيش الحلفا لما دخلوا ألمانيا كان العسكري ينام مع المرة بحتة شوكولاتة؟ دا قانون طبيعي مش ممكن تغيره لا قوانين الإنسان ولا أوامر الأديان.

- المثل العربي بيقول ((تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها)).

- المثل دالازم قاله عربي كان عايش في خيمة في الصحرا، يعني كانت الحرة عنده تكتفي بأكل ست بلحات في اليوم إلا إذا كان قاله رجل عمره ما داق طعم الجوع. أما ابن النهاردا اللي عرف إيه هو ألم الجوع فيقول ((إذا جاعت الحرة فمعذورة إذا أكلت بثدييها)).

- الظاهر عليك إنك ملحد. فقل لي كدا بصراحة: إنت تعتقد في وجود ربنا ولا لأ؟

- تبقى وقاحة مني إن قلت لك إنه مش موجود، وتبقى غباوة مني إن قلت لك إنه موجود.

- دا تهرب من الإجابة الصريحة.

- يكفي إني باعترف بجواز وجوده. وإن ما كانش موجود حقيقي فالإنسان أوجده في قلبه.

- يعني على كدا ما تعتقدش كمان ببقاء الروح ويوم الحساب؟

- الظاهر لنا إن جسم الإنسان مادة حية يمثل فيها الحياة طلمبة اسمها القلب. متى وقفت توقفت فيه الحياة وأصبح الإنسان جماد.

t.me/qurssan

يعني زي ما بتقولوا يا متدينين الإنسان من تراب وسيعود لأصله التراب.

والتراب طبعا جماد لا يحاسب. ما دام بتقولوا إن الحياة خيال زايل إزاي تقولوا لنا من جهة تانية اعملوا الخير وكونوا صالحين؟ إيه التناقض دا؟ ما دمنا زايلين فإيه يهم نوع العمل؟

- يا سيدي الجسم زايل وللتراب أيوه، ولكن الروح خالدة بتعيش بعده في العالم الآخر وحيتحاسب عن أعماله.

- ابقى قابلني، هو فين العالم الآخر دا؟ رواد الفضا الروس قالوا إنهم وهم رايحين القمر فتشوا على ربنا وعلى الجنة والنار في كل السموات فما لقوا لها أثر.

- طبعا لأن الله قوة روحانية مالية السموات والأرض وما لها مكان مخصوص، فهو زي ما بيقول قرآننا الكريم: ﴿اَللَّه نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ و ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، ولا قالش يقيم فين. فإذا كان البلشفيك الملحدين بتوعك دول عاوزين يشوفوا ربنا بعنيهم، يبقوا مغفلين وحمير لأن الحمار هو اللي ما يعرفش بوجود البرسيم إلا لما يشوفه. دول جماعة مغرورين مش ملاحظين إن زي ما قوة بصرهم محدودة كذلك قوة تفكير هم محدودة. يا عزيزي لما الإنسان الراقي يعتقد في إله يشوفه بقلبه ومش بعنيه.

- أهو كل كلامك دا عبارة عن نظريات وتخمينات عن ما وراء الطبيعة.

- زي كلامك تمام عن البلشفيك الملحدين. فمش غريبة إنك تردد مبادئهم عن الزواج والشرف.

- طيب ومالـه؟ هم يعني غلطوا لما ألغوا عادة قديمة اسمها الزواج؟ طبعا لهم حق إنهم اعتبروا الزواج عقد حر يعقده الطرفين لمدة محدودة زي عقد إيجار بيت مثلا. دا المعقول، مش زي بلاد أوربا اللي دينها المسيحي لم يتعرض زي الإسلام لطرق المعيشة والمعاملات والتشريع، وإنما اقتصر على حض الناس

t.me/qurssan

على التمسك بمبادئ أخلاقية عالية زي الأمانة والتسامح والعفة والحب، ومع ذلك حشر نفسه في مسألة الزواج بس فجعلها من الدين، ومنع الطلاق وقال إن ما عقده الرب لا يصح أن يفسخه العبد. ودا منطق غريب! اشمعنى ربنا ما اهتمش إنه يتداخل في التشريع إلا في مسألة الزواج بس كأنه خاطبة ولا مأذون؟ ومع ذلك فإن القوانين الأوربية ما سألت عن الدين وأباحت الطلاق ولو أنها حددته في حالات مخصوصة أهمها على ما سمعت هو الخيانة الزوجية.

ودي كمان النهاردا عاوزين يلغوها لأنهم عاوزين يوقفوا تيار الطلاق الجارف، فرأى بعض المفكرين أنه ما دام أهم سبب قانوني للطلاق هو الخيانة الزوجية، فحينئذ يجب لوقف تيار الطلاق إباحة الخيانة الزوجية. فما دام الزوجين حرين في الاتصال سكسيا بغير هم فما يكونش هناك سبب للطلاق، ودا على رأي الشاعر العربي ((وداوني بالتي كانت هي الداء)).

- مالناش دعوى لا بأوربا ولا بالمسيحية. إحنا هنا مسلمين، لازم يتم عندنا الزواج على إيد مأذون وشهود. كما أن الطلاق سهل ميسر لنا تحت إرادتنا.

- طبعا لأن الدين الإسلامي مشرع ومفصل حقوق الميراث، فلازم يهتم بالتأكد من صحة النسل. أما في البلاد الشيوعية اللي لغت حق الملكية والإرث - ودانا معاك غلط - فما يهمش معرفة أبو الطفل لأنه سواء كان ابن زيد أو عبيد فالنتيجة واحدة. أما سهولة الطلاق عندنا فدي هدمت حرمة الزواج وضيعته خالص، لأنها جعلته أقل من عقد الزواج البلشفيكي أو بعض أنواع الزواج الحديثة، لأن الأول بيحدد للزواج مدة يجب احترامها والتانية بتشترط للانفصال في حالة عدم وجود أولاد رضا الطرفين. أما الزواج الإسلامي فهو في الحقيقة عقد من طرف واحد، طرف الرجل بس، لأن عقد الزواج اللي بيعطيه المأذون للزوجة اللي انت فرحان به دا فما له قيمة، تبله وتشرب ميته، لأن الزوج يقدر يلغيه لوحده في أي وقت. سمعت عن حكاية مدرس متدين وخباص، اتجوز واتطلق لحد دلوقت أكثر من عشر مرات، كان

t.me/qurssan

يمشي في الأحياء البلدي ولما تقابله بنت حلوة تعجبه يفضل ماشي وراها لحد ما يعرف بيتها، يسأل من الجيران عن أبوها، يطلع فران عربجي زبال زي ما يطلع ما يهمه، يروح له تاني يوم ويقول له إنه مدرس في مدرسة كذا الثانوية ومرتبه زي خمسين جنيه وجاي يخطب منه بنته. الراجل طبعا ينبسط ويقول له ((إحنا مش قد المقام)) وكلام من النوع دا، ويقبل على طول المدرس يتجوزها، ويفضل معاها لحد مايعتر في السكة على بنت تانية تعجبه فيطلق اللي معاه ويتزوجها، ويودع في المحكمة الشرعية ربع مرتبه على ذمة طليقاته كلهم يتقسم عليهم، وطبعا كل ما بيزيد عددهم بينقص نصيب الواحدة منهم.

أهو الراجل اللي زي دا بيخلي الزواج الإسلامي أضعف من العلاقة الغير الشرعية، ولما تكلمه يقول لك ((هو أنا باعمل حاجة وحشة؟ لا عيب ولا حرام، أنا باتجوز على سنة الله ورسوله)).

رأيت أن الرجل دارس مسألة الزواج تماما، مطلع على تطوراتها في الخارج والداخل، وأنه أحرجني وجعلني أشعر أني لست له بكفء في النقاش معه، فاستحسنت أن أنسحب من المعركة بانتظام. فقلت له: - والله يا غرباوي بك أنا مش عالم في علوم الدين ولا قانوني دارس موضوع الزواج علشان أرد عليك. وإنما لا أزال مصمم على معتقداتي اللي راسخة في رأسي طول عمري.

- من الأسف، لأن دا سبب تأخر المسلمين والشرق عموما فرضا عن أنهم بيقولوا إن الإسلام دين العقل لا يحكموا العقل. إنت ما تعرف إن الفلسفة الحديثة أساسها النهاردا الحكم على الأشياء بحرية العقل المطلقة بدون أي فكر مسبق؟ أهو اللي زيك يصح نسميه النهاردا ((الإنسان المتحجر في القرن العشرين)).

- سميني يا خويا زي ما تسميني. دا ما يمنع إن الأغلبية النهاردا ناس أشراف من نوعي والحمد لله الدنيا لسه بخير.

- ومالكمش فضل في كدا، لأنكم كنتم عايشين أيام شبابكم زي السبع واللبوة المحبوسين في قفص في جنينة الحيوانات. هل كان فيه على أيامك عزايم بين العائلات؟ هل كنتم بترقصوا

t.me/qurssan

وتسهروا في باللوهات؟ هل كانت بناتكم بتلبس البكيني على البلاج؟ هل كنتم بتشوفوا على شاشة السينما استعراض لفنون البوس؟ يعني هل كنتم عرضة للإغراء؟

- لأ من حسن الحظ.

- خلاص لا بد من أن يكون لظروف الحياة الجديدة دي مفهوم جديد للأخلاق والشرف وعقلية جديدة لطرق الحياة. إنتم هنا نايمين مش حاسين الزمن بيجري ازاي.

- ولكننا بنقاوم وحنقاوم كل الانحلال الأخلاقي دا اللي بدأ يظهر عندنا ويفسد مجتمعنا بسبب وجود ناس زيك فينا بينشروه عندنا.

- بالاختصار، إحنا بنقلد أوربا في مدنيتها، أيوه ولا لأ؟

- أيوه، ولكن يجب إننا نقلدها في مدنيتها بس زي ما بتقول، يعني في الحاجات الطيبة الراقية ونسيب الأشياء الفاسدة المضرة.

- مش ممكن يا عم خليل. دا كلام فاضي. لأن المدنية كتلة واحدة لا تتجزأ زي سلسلة طويلة مرتبطة الحلقات، إذا أخذت منها حلقات وسبت حلقات تنقطع السلسلة وتضيع منك. المدنية مش بضاعة جاية، جاية من الخارج مشحونة في صناديق تكلف كشافين الجمرك إنهم يدخلوا صناديق العلم والصحة والأدب والفن، ويمنعوا دخول صناديق التهتك والرقص والفحش. لا، إنت يا شرقي عاوز تتمدن وتعمل مصنع زي أوربا فاستوردت أدواته وركبتها وبنيته وشغلته وأنتج لك بضاعة فرحان بها، لكن بجانب كدا المصنع دا أوجد لك مشاكل المواد الخام والأجور ونقابات العمال والبطالة وإصابات العمل وحق الإضراب، إلخ. إنت مش عاوز تسيب المرة جاهلة عاطلة علشان ما تشلش نص الأمة فبتعلمها زي الرجل وبتدخلها الجامعات وبتعملها موظفة وعاملة، فما دمت سويتها مع الرجل في العمل فلا بد من إنك تساويها معاه في الحقوق وفي مستوى الأخلاق، فتسمح لها إنها تدور

t.me/qurssan

وتسهر وترافق زي زملاءها الرجال. دا القانون الطبيعي اللي بيفرض نفسه عليك فهل عندك حل تاني؟

- الحل موجود من قديم الزمان، وهوا احترام مبادئ الشرف والدين.

- لسه برضه يرجع يقول لي ((الشرف والدين))، يا عزيزى الدين زي ما قالوا الروس ((دا أفيون الشعوب))، يعني علشان اللى بيروجوه ما يقدروا يخدروا به أعصاب الشعوب ويضحكوا عليك بوعدك بجنة فيها ما تلذ الأعين وتشتهيه الأنفس علشان يخلوك ترضى بحرمانك من متاع الدنيا. أما الشرف اللي متمسك لي به فدا كلمة مطاطة ايتغير معناها من فرد لفرد ومن مكان لمكان ومن زمان لزمان زي ما قلنا. فمثلا غارات العرب القديمة اللي كانوا يعتبروها أعمال بطولة، نعتبرها إحنا النهاردا، أعمال عصابات قطاع طريق، إحنا عندنا الزوج بيحافظ على زوجته والفلاحين بيقتالوا بناتهم إذا حبلوا بدون زواج، ولكن الإسكيمو سكان الشمال، عندهم من أصول كرم الضيافة إن الرجل يقدم زوجته تبات مع ضيفه. وهكذا يا عم خليل كل مبدأ وكل فكر وكل قانون قاصر على مكان و زمان.

- الإسكيمو بتوعك دول حرين في عوايدهم وتقاليدهم زي ما احنا كمان حرين في تقاليدنا. و آديك قلت بنفسلف إن الفلاحين عندنا لسه لحد دلوقت بيقتلوا بناتهم لما يحبلوا بالزنا. فدي تقاليدنا الموروثة المتأصلة في دمنا واللي حنفضل دايما متمسكين بها.

- أنا أرثي لحالنا إذا كنا حنهتم بتقاليد الفلاحين البدائية الوحشية دي. لازم القوانين والوعي يقضي عليها نهائيا لأنها عادات قديمة سخيفة ورثوها ومش قادرين يتحرروا منها، لأن الإنسان عبد لعاداته. وكلما كان أكتر جهلا كلما كان أكتر عبودية للعادة. فالمسألة دي زي غيرها ما هي إلا عادة والعادة يصح إنها تكون طيبة زي ما يصح إنها تكون وحشة. وحياتنا، فحياتنا ما هي إلا مجموعة عادات. كل شيء بنعمله بحكم العادة وتقريبا بلا

t.me/qurssan

شعور، فإحنا بناكل ونشرب وندخن ونلبس هدومنا ونقلعها ونمشي في الشوارع ونسلم على الناس ونتكلم بلهجة خاصة وحتى بنحكم على الأمور، كل دا بطريقة آلية خلقتها فينا العادة وبدون أي تفكير موجب من عقلنا، حتى الموت بنخاف منه لأننا تعودنا على الحياة. العادات اللي نكون اتعودنا عليها في الصغر بتفضل مغروسة فينا وثابتة زي ما بتقول الحكمة العربية ((كالنقش على الحجر)) أو هي في الحقيقة زي صحيفة الورق المطبقة أو البنطلون المكوي ما يفضلوا محافظين على التنيات اللي التطبقوا عليها. وأنا ملاحظ إن الناس جبنا لدرجة إنهم بيستغلوا قوتهم وضعف أطفالهم فيغرسوا فيهم عقيدة الدين من صغرهم فتصبح فيهم عادة ما لهم أي فضل في الاعتقاد فيها. فانا وانت مثلا طلعنا مسلمين لأن ...

- وانت برضه بتعتبر نفسك مسلم؟

- أنا باقول ولدت ونشأت مسلم زي كل المسلمين إلا ما بقوا مسلمين إلا لأن أهلهم كانوا مسلمين فطلعوازيهم، وناس تانيين طلعوا نصارى لأن أهلهم كانوا نصارى، وكذلك اليهود والبوذيين والبراهمة وغيرهم. كل الناس ما لهم فضل في اعتناق دينهم لأنهم مش زي النصارى الأوائل ولا زي أصحاب النبي بتاعنا اللي أسلموا بعد ما كانوا مشركين وهم رجالة كبار عن عقيدة واقتناع. لذلك مش لازم نغرس في الطفل عادات عقائدية علشان يفضل عقله حريتخذ لكل موقف الحل المناسب لتنمية شخصيته من غير ما يتأثر في حكمه بالتقاليد ورواسب الماضي ويختار عقيدته بكل حرية.

- ما دمنا عبيد عادتنا زي ما بتقول فأحسن ضمان لتربية الطفل يكون إنك تعوده على عادات طيبة، وما في أحسن له في الحياة من مبادئ مكارم الأخلاق والشرف اللي بيعلمها له الدين. لذلك لما بنعلم الطفل دينه ما بنكون استغلينا بجبننا ضعفه زي ما بتقول، وإنما بنكون أدينا له أحسن خدمة تضمن له مستقبله بتعويده على احترام المبادئ الطيبة، وزرعنا في قلبه إيمان يفتح له باب الأمل فى عالم تانى ويقويه على احتمال المصايب، فأغلب الناس

t.me/qurssan

المستقيمين اللي بتشوفهم النهاردا، ما هم مستقيمين إلا لأن أهلهم ربوهم على تربية دينية سليمة نشأوا عليها وفضلوا متمسكين بها.

- زيك انت مثلا.

- طبعا. ولي الشرف بكدا.

- أهو انت كمان طلعت على المعاش وانت موظف صغير غلبان.

- زي بعضه. برضه نعمة من عند ربنا.

- هو إيه دا؟ كل شيء عندكم يا مؤمنين نعمة؟

- طبعا. ربنا قال لنا: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

- يعني خلاص ما في غير النعم؟ طيب والمصايب والنقم راحت فين؟ دي النقم لو تعدها تطلع أكتر من النعم. تروح فين النعم دي جنب الأطفال المصابين بشلل الأطفال والمشلولين الراقدين اللي لا حصلوا الأحياء ولا الأموات، والأطفال اللي تموت في السنين الأولى من عمرها وبعضها وحيد والديه، ومجموعة الأمراض الهايلة اللي تنهش في أجسامنا وتخلينا نعيش في عذاب، والألوف بل الملايين اللي بيموتوا في الزلازل والفيضانات والحروب وكان قبل قرنين كمان الطاعون و الكوليرا يقضوا على نص السكان لحد ما تغلب عليها الإنسان وأوقف هذه النقمة الإلهية. دا غير الظلم الفردي والظلم الجماعي اللي جاري زي ما إيطاليا القوية المسلحة ما غزت الحبشة العزلا وقامت فيها بحرب إبادة. أفتكر ظاهر جدا إن ربنا بتاعك دا بمفهومنا البشري قوة ظالمة، وإنه على كل حال يسيء إدارة شؤون مخلوقاته.

- أنت لا تعرف سر الأشياء، فهذه المصايب اللي بتتكلم عنها ربنا له فيها حكمة.

- أهو انتم يا أهل الدين تغطوا كل مصايب ونقم اللّه بقولكم دا ((ربنا له في ذلك حكمة)). هي فين بس الحكمة دي؟

t.me/qurssan

- إنت مخلوق عاجز ضعيف، عقلك ونظرك أضعف من أن يدركوا حكمة ربنا!

وقمت ...

وقمت واقفا استعداد للذهاب، لأضع حد لأفكاره السامة الهدامة اللي استمعت إليها أكثر مما ينبغي. ربما كنت أطلت هنا كثيرا في تدوين هذا الحوار اللي داربيني وبين غرباوي، ولكني لا أكتب رواية حتى أراعي مزاج القارئ وأصول الفن الروائي، وإنما أدون هنا في مذكراتي كل ما جرى لي في الشهور الأخيرة بقدر ما استوعبته ذاكرتي. طلبت من غرباوي أثناء انصرافي من عنده أن لا يتكرر وقوع فضايح مثل تلك اللي سببها بالأمس بهجت وعلية. وعدني خيرا وطمنني من هذه الجهة، خصوصا وأنه سيقيم في شقته منذ تلك الليلة.

ودعته على هذه الوعود الطيبة، ونزلت لشقتي وأنا مطمئن بعض الاطمئنان على ما سيأتي به المستقبل، مرددا في نفسي: ((يارب اجعل العواقب سليمة)).

t.me/qurssan

٦

لم ألاحظ في الأيام اللي تلت حديثي الطويل مع غرباوي حدوث شيء جديد في المنزل إلا أني كنت أتخايل من وقت لآخر برجل وامرأة يطلعوا للشقة العليا وينزلوا منها ويسلموا علي باحترام. بسؤالي عنهم علمت أنهم شغالة غرباوي أو مستخدمين منزله العامر.

الرجل كان في حوالي الثلاثين من عمره لابس جلابية نظيفة زاهية اللون ومسبسب قصة عاوج عليها الطربوش وباين عليه إنه مدردح جدا. رغما عن إنه كان لا يزال في صورته شيء غامض ينم عن أصله الريفي. أما المرأة، فرغما عن أني لم أدقق فيها النظر إلا أني لاحظت أنها تجاوزت سنين الشباب وإن كانت لا تزال محتفظة بمسحة من الجمال مع إغراء الأنوثة لأني كنت أراها من ظهرها ماشية تتخلع وتتقصع وهي تهز أردافها على الوحدة مع دقة طرقعة شبشبها.

بعد يومين دخلت علي حماتي، وقد ارتسمت على وجهها علامات الرضا والسرور، حاملة في يدها طبق عليه قطعة جاتو وقالت لي:
- من جهة الشقة اللي فوق حط على قلبك بطيخة صيفي يا أبو خليل.

- يعني إيه؟

- يعني إن الساكن الجديد وعدني بأن فصل بهجت وعلية دامش حيتكرر تاني وانها كانت غلطة ومش حتعود.

- وانتي مالك بس يا ستي ومال الرجل دا؟ كلمتيه ليه؟

- يوا! مش من واجبي برضه إني أخاف على سمعة بيتنا وأولادنا.

- دي وظيفتي أنا. وأنا كلمته وخلاص.

- تعرف إنه رجل ذوق وباين عليه ابن حلال.

قلت في بالي ((ابن حلال مصفي خالص))! هكذا سريعا عرف

t.me/qurssan

غرباوي الخبيث كيف يأكل مخ حماتي ويستميلها إليه. أصبحت غير مطمئن بل متخوف من غرباوي بعد ما تبين لي من مناقشتنا الطويلة معا أنه ليس منحرف معدوم الشرف تحت ضغط الحاجة أو بحكم الظروف، وإنما هو كذلك عن قصد وإيمان بمبادئ شيطانية خبيثة، فهو ليس ممن أغواهم الشيطان وإنما هو من تلامذة إبليس الملتفين حوله. قلت لحماتي: - إيش عرفك إنه ابن حلال؟

- الواحد كله نظر. باين عليه ابن أصل وكريم. وكان داخل وفي إيده علبة كرتون فتحها شفنا فيها فطيرة أفرنجي. طلب من الشغال بتاعه ى يجيب طبق و سكينة وراح قاطع لي حتة كبيرة وحلف علي لانا واخداها. ما رضيت أكسر يمينه أخدتها. لما أكلت منها لقيتها لذيذة بشكل! عجينتها بتدوب في البق دوب. داغير القشطة والشوكولاتة اللي بيسيحوا على اللسان لوحدهم. أقول لك الحق يا خويا أنا عمري ما أكلت حاجة زي دي. علشان كده افتكرتك وخليت لك حتة. خد أهي.

وراحت مادة لي يدها بصحن كان عليه قطعة من تورتة لازم تكون من عند جروبي اللي باسمع عنه لأني لم أعتبه من يوم إفلاس والدي، معذورة حماتي في إعجابها بهذه التورتة لأنها متعودة على كحك العيد اللي بنعمله إحنا والجيران كل شي كان، وعلى البسبوسة والكنافة والبقلاوة اللي كنا بنشتريهم أحيانا من حلواني بلدي في السيدة.

ساعدت الصدف غرباوي على أن يأسر حماتي لا بمعسول القول فقط وإنما بمهاجمتها في نقطة الضعف فيها يعني معدتها، دون أن يدري أن معدة حماتي هي الباب الموصل لقلبها.

كان لقطعة تورتة جروبي هذه أكبر فضل في استيلاء غرباوي على قلب حماتي وجذبها لصفه. ألا تقول الأمثال ((اطعم الفم تستحي العين)) و ((من أكل عيش الكافر يضرب بسيفه)) عن الناس العاديين، فما بالك بمن كان شره مثل حماتي. هال يا ترى هذه كانت مجرد مجاملة من غرباوي لحماتي أم أنه بلغت به

t.me/qurssan

الجرأة والوقاحة إلى أن يفكر في استخدامها في أعماله الدنيئة؟ اعتذرت عن أكل قطعة التورتة رغم إلحاح ودهشة حماتي اللي قالت لي أخيرا: - ولا يعني يمكن علشان فاكرها مال حرام مش راضي تداخلها في جوفك؟ مالك حق، ما احنا على كلى حال عايشين اليومين دول من خيره.

كانت كلمتها هذه مثل خنجر غرسته في قلبي. تحاملت على نفسي ولم أرد عليها. وماذا عساي أن أقول لها وهي على حق؟ حقيقة أي فرق بين قطعة التورتة الحرام وبين الطعام اللي باكله كل يوم؟ ألم أشتريه بنقود غرباوي الحرام؟ أليس مصدر التورتة والنقود اللي بنصرفها واحد؟ أليست كلها حرام مصدرها يد غرباوي الملوثة النجسة؟ حبيت أغير مجرى الحديث فسألتها عن خدم غربا وي، فقالت لي: - دول كمان أولاد حلال. الراجل أصله فلاح من ناحية المنصورة اسمه سيد، جا مصر وهو صغير واشتغل في الأول في بيوت عايلات وبعدين ما عجبته فاشتغال في قهاوي وخمامير وفي بيوت الأزبكية.

- يعني في البيوت البطالة.

- والله ما أعرفش هو قال لي كدا ((بيوت الأزبكية))، وأنا ما اعرفش. البيوت دي تطلع إيه. نهايته لحد ما وقع في إيد غرباوي بك فانبسط منه وفضل معاه من سنين.

فكرت إنه لا بد من أن يكون رجل خالي من الضمير وتجرد من كل معاني الشرف اللي تعلمها في قريته قبل مغادرته لها للقاهرة وإلا لما استخدمه غرباوي لأن الطيور على أشكالها تقع. قلت لحماتي: - طيب والشغالة؟

- دي يا سيدي نصرانية أصلها شامية من جبل لبنان. اسمها زهيرة، وزي ما شفتها كانت لازم في زمانها حلوة خالص ولعبية، لأنها لسه لحد دلوقت مع إنها جاية على الخمسين، تلاقيها مقصعة ومش على بعضها. بس يا خسارة لولا عينها.

- أيوه حقيقي عينها العورة دي مخسرة شكلها خالص.

t.me/qurssan

- تعرف دي أصلها إيه؟ دي كانت في زمانها حلوة زي السناييير اللي بنشو فهم في الصور، يعني مافيش بعد كدا حلاوة: الخدود ورد والمناخير نبقة والشفايف فراولتين والصدر رمانتين، فكان الشبان بيجروا وراها ومحوطينها زي الدبان اللي محاوط طبق عسل، لحد ما حبت واحد منهم ووعدها بالجواز فمشيت معاه وبعد ما خسرها هرب منها. الفصل دا اللي بيحصل لكتير من البنات الغشم و حتى بتكتب عنه الجرايد.

نهايته يا سيدي ما أطول عليك. تعمل إيه البنت المسكينة في الحالة دي بعد ما انسد قدامها باب الجواز؟ انجبرت تمشي في المشي البطال، وبقت تشتغل في الكره خانات. قابلت في واحدة منهم تاجر حشيش غني، جه واخدها سكنها في شقة لوكس وما خلاش نفسها في حاجة. بس يا خسارة! كان غيران عليها غيرة عميا: مسمر عليها الشبابيك ولا يخرجها من عتبة الشقة. ومع إن البنية اللي مش واخدة على الحبسة دي، كانت مستحملة وصابرة، الرجل سكر يوم سكرة جامدة وهاجت عليه غيرته راح دابب صباعه في عينها طلعها وقال: ((أهو كدا تبقي عورة علشان ما حد يبص لك ولا ياخدك مني)). لكن الحكومة هي اللي أخدته هو منها ورمته في السجن. الولية ضيعت عينها وشبابها والقرشين اللي كانت محوشاهم لأن المال الحرام في غربال ما يدومش أبدا، فانجبرت تشتغل خدامة في البيوت اللي كانت زمان قاعدة فيهم ست.

تاريخ حياة هؤلاء الشغالين كما سمعته من حماتي، يدل دلالة واضحة على نوع أخلاق الرجل اللي بيستخدمهم، فالناس على دين ملوكهم أو على رأي الشاعر العربي: إذا كان رب البيت بالدف مولعا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

ها هو غرباوي يطبل لهم، بل يطبل لكل من يدخل بيته، وهم نازلين رقص في الفساد والدعارة. إذا كان هذا نوع الشغالة فأظن أن نوع اللي بيترددوا على البيت ظاهر. تنهدت من همي تنهيدة عميقة وقلت لحماتي: - نهايته ربنا يفوت الشهرين اللي فاضلين على خير ويخلصنا من شر الناس دول.

t.me/qurssan

- يوه! ما تقولش كدايا خويا. طيب دانا كنت جاية أبشرك إن غرباوي بك مبسوط قوي من شقته وحيزود لك إيجارها كمان.

- إيش عرفك؟

- ما انا كلمته في كدا وجسيت نبضه.

اتنرفزت منها فجأة وشخطت فيها:

- وانتي مالك تنحشري في شغلي يا حشرية؟

- هوإيه يا أختي دا؟ مالك كدا؟ مش واجب علي برضه إني أطمن على مستقبلكم؟ دا انت يا كبدي رجعتم تاني للأكل الهايف وصعبانين علي. أما أنا فما يهمني، البركة في زهيرة والواد سيد اللي كل يومين يستلفوا مني صحن ولا حلة وما يرجعوهم فاضيين. أما بيطبخوا فوق أكل هايل يرد الروح، أجيب لك منه بكرة شوية؟

- يا ستي إمتى تفهمي إني ما آكلش من أكل الناس دول حتى ولو كنت باموت من الجوع.

- إنت دايما كدا يا خويا حاطط نقرك من نقرهم. مالهم الناس دول؟ هو فيه مستأجرين في الدنيا كويسين زيهم؟

- طبعا، ناس أشراف قوي!

- معلوم أشراف غصب عين كل واحد. هو غرباوي بك أكل عليك ولا على غيرك قرش؟ دا حتى الرجل دفع لك الإيجار مقدم على آخر قرش. مش أحسن من المستأجرين الموظفين الأشراف اللي كانوا قبله وعزلوا وعليهم إيجار ست أشهر؟ ياما راح عليك يا خويا إيجارات من المستأجرين الأشراف. نبقى استفدنا إيه إحنا من شرفهم إذا كانوا ما بيدفعوا القرش اللي عليهم؟

- وحضرتك يعني مبسوطة قوي من الزوار اللي بيجوا له؟

- واحنا مالنا ومالهم .. كل واحد مسؤول عن بيته، واحنا أجرنا له

t.me/qurssan

شقة لكن ما أجرنا له شرفنا.

حقيقي بيجي له نسوان ورجالة ولكن ناس في غاية الأدب، ماحدش بيسمع لهم حس، وإن احنا ما أجرنا له بيتنا حيأجر له غيرنا والبيوت قدامه كتير. لكن المستأجر اللقطة اللي زيه هو اللي قليل. مش احنا أولى من غيرنا، وآدينا دلوقت على الأقل عرفنا ناكل لنا لقمة نضيفة.

- بس بندفع ثمنها غالي يا ست الحاجة.

- تمن إيه يا خويا؟

- يعني مش عارفة؟ حنضحك على بعض!

- يعني إيه الكلام دا؟

- يعني إنه بالعربي كدا بيتنا أصبح كره خانة.

- أعوذ بالله. تف من بقك. إيه الكلمة الوسخة دي اللي بتقولها؟!

- كلمة الحق يا ست الحاجة، ولا حننكر الواقع؟

- حتى إذا كانت كره خانة، أهيه برضه كره خانة شريفة.

لم أتمالك نفسي من الابتسام لتعبير حماتي هذا، فسألتها: - وهو فيه كره خانة شريفة وكره خانة مش شريفة؟

- أيوه. يعني اللي زي بيتنا دا اللي بيخشه ناس نضاف متربيين ما لهم لا حس ولازيطة، يبقى زيه زي أي بيت شريف بتتردد عليه الزوار. أما الكره خانة اللي مش شريفة فتبقى البيوت البطالة المفتوحة لكل من هب ودب وملياانة زعيق وسكر وعربدة. وياما الدنيا ماليانة بيوت زي بيتنا دا وماحدش حاسس بهم.

على رأي المثل البيوت مقفلة على بلاوي.

حقيقة، بيتنا ليس الوحيد من نوعه، فأمثاله كثيرة منتشرة في البلد حتى في أكثر الأحياء محافظة وحشمة. وهذا يفكرني بحكاية سمعتها تروى عن المرحوم حفني بك ناصف وهي أن بيت

t.me/qurssan

سري فتح أمام منزله في الحلمية الجديدة، فكان زباين ذلك البيت يوصفوه لبعضهم بأنه شارع كذا أمام منزل حفني بك ناصف. تصادف مرة أثناء خروج حفني بك من منزله أن تقدم منه شاب وسأله: - من فضلك تعر فش بيت حفني بك ناصف فين؟

فقال له بلطف مبتسما ومشيرا إلى المنزل المواجه لهم: - أنا حفني ناصف ودا بيتي ودا بيت السر اللي بتدور عليه.

t.me/qurssan

٧

أوشك الشهر الثاني من إيجار غرباوي لمنزلي على الانتهاء دون أن يحدث شيء يعكر صفونا. حقيقي كان يتردد على المنزل ناس من مختلف الأجناس والأعمار، ولكنهم كانوا ملتزمين الهدوء والسكينة فضلا عن أنهم كانوا لا يجيئوا إلا بعد أن يخيم الظلام فلا يسترعوا الأنظار.

استمر هذا الهدوء مخيما على منزلي حتى سمعت في ليلة بعد العشا، صريخ سيدة صادر من الدور الأعلى. كان صريخ ألم شديد كصريخ شخص يعذب. هبيت من مقعدي وجريت إلى صالة المدخل فوجدت أفراد عائلتي سبقوني إليها وقد ارتسمت على وجوههم علامات الدهشة والقلق والخوف وانضموا لبعضهم كأنهم قطيع من الغنم سمع عوا الذئاب.

فكرت فيما عسى أن يكون مصدر هذا الصريخ. أترى بلغت الجرأة بغرباوي إلى أن يسمح بهتك عرض سيدة بالإكراه؟ استبعدت هذا الفرض لأن السيدة اللي تدخل مثل هذا البيت تعرف تماما ما ينتظرها فيه. إذن هل يمكن أن يكونوا بيسرقوا سيدة وبيجردوها من مالها وصيغتها بالقوة؟ استبعدت أيضا هذا الاحتمال لأني أعلم أن غرباوي ثعلب مكير، أذكى من أن يستعمل مثل هذه الطرق المكشوفة اللي تعرضه للفضيحة. هل يا ترى ضبط رجل زوجته في هذا المنزل القذر وانهال عليها ضرب وهي تستغيث؟ أم لعله طعنها بسكين وسال دمها يغطي الأرض، وسيحضر البوليس للتحقيق وتصبح فضيحتنا بجلاجل؟

بينما كانت كل هذه الاحتمالات تمر بذهني بسرعة، إذا بصرخة عميقة أعلى من الأولى تجلجل في أنحاء المنزل وترتجف لها أفئدتنا. كنا نسمع في نفس الوقت صوت وقع أقدام تجري فوق رؤوسنا وبعض طراطيش كلام مكتوم لانتفهمه.

أمرت أهل منزلي بالدخول في غرفهم وأن يقفلوا عليهم أبوابهم، كما أمرت النمل أن تدخل في منازلها خوفا عليها من أن يحطمها

t.me/qurssan

سيدنا سليمان وجنوده. ما كادوا يمتثلوا للأمر ويخلوا الصالة حتى رأيت شخص يهبط السلم جاريا نحو باب الشارع فكنت أسرع منه وقطعت عليه طريقه للباب. وجدتني وجها لوجه مع سيد الشغال. كان مصفر اللون مضطرب ومستعجل للخروج. سألته عما يجري، فقال: - مافي حاجة.

- ما في حاجة ازاي؟ أمال إيه كل الصريخ دا اللي سمعناه؟

- أنا كمان سمعت صريخ لكن ما اعرفشل أصله إيه.

- يا واد اطلع منهم بقى! حتضحك علي؟ طيب رايح جري دلوقت على فين؟

- ما عنديش إذن أقول لك حاجة.

- يعني فيه حاجة مخبيها. لازم تقول إيه.

- يا سيدنا الأفندي ما تتعرض لي خليني أروح لمشواري ولا تكون أنت المسؤول عن التأخير.

- تأخير عن إيه؟ لازم تتكلم باقول لك.

ومسكته من كتفه أهزه بعنف، ولكنه أزاح يدي ودفعني دفعة شديدة جعلتني أصطدم بالحائط اللي كان من حسن الحظ قريب مني وإلا كنت وقعت على ظهري. ما كدت أستند دائخا على الحائط حتى كان الولد انطلق من الباب انطلاق السهم من القوس. طبعا ما كان يستطيع عجوز مثلي اللحاق بشاب قوي سريع مثله.

وقفت في مكاني ودمي يغلي من الغيظ لما لحقني من إهانة من مخلوق حقير شغال كره خانات. فكرت في الأمر فوجدت أنه لايمكنني السكوت على ما يجري تحت سقف منزلي حتى ولوكان مؤجر، لأنه ربما كان في الأمر جناية، خصوصا أن الفار لعب في عبي بعد ما رأيته من اضطراب سيد الشغال وإصراره على تكتم الأمر، بينما كانت الصرخات والتأوهات تتوالى الآن بشدة كل بضع دقائق ثم يعقبها تنهيدات وأنين يشبهوا صوت النزع. رأيت أنه لا

t.me/qurssan

- وانا مالي ازاي ؟! بقى أسمع صريخ وصوات و تنهيدات تدل على وقوع جريمة في البيت اللي أنا ساكنه ولا أتحرك من مكاني؟ أقول إيه بكرة للبوليس لما ييجي يحقق. أقول له ما أعرف حاجة وما تحركت من مكاني وسط الصريخ دا كله؟

ما يصدقني ويعتبرني شريك في الجريمة.

ضحك غرباوي ضحكة صفراء مفتعلة، وقال: - اطمئن من الجهة دي يا عزيزى. على كل حال ما في جريمة.

- أمال إيه الحال دا؟

- كمان مرة أؤكد لك أنه ما في جريمة، بل بالعكس دا عمل خيري وإنساني كبير. أنا بأدي خدمة إنسانية جليلة يا عم خليل.

- إذا كان كدا ليه أمال بتخبي الموضوع عني؟

- لأنه ولو إنه ما في الموضوع جريمة إلا أنه يتعلق بشرف ومستقبل وسعادة عايلة محترمة، ودامش سر خاص بي فما أقدر أبوح به.

- بقى شوف. إنت ما تحسبني عبيط باريل تقدرتزحلقني بكلمتين. الكلام دا لا يدخل مخي، فلازم أتحقق من الأمر بنفسي.

- مصمم على إنك تتحقق؟

- أيوه.

- وإن ما سمحتلكش حتعمل إيه يعني؟

- حاروح حالا أبلغ أقرب نقطة بوليس بأني باشتبه في وقوع جناية في بيتي، فأخلص نفسي من المسؤولية وانت ساعتها تبقى تعرف شغلك مع البوليس.

سيرة البوليس هذه كان لها أثر سحري على الرجل لأنه بدأ يغير لهجته، فقال لي بصوت ناعم لطيف: - شوف يا عم خليل. إنت مش ممكن تعمل حاجة زي دي، لأني عارفك راجل شريف طيب

t.me/qurssan

القلب ما يخلصك تعمل كدا.

- ما هو علشان إني شريف وطيب لازم أعمل كدا.

بعد ما سرح في التفكير قليلا وتقاطيع وجهه تتلوى في مختلف الأشكال قال: - إنت بتقول يا عم خليل إنك راجل شريف وطيب القلب؟

- أظن إنك انت كمان قلت كدا ولا إيه؟

- الكلام مني ومنك سهل، لكن المهم إنك تقدر تثبت الكلام دا عند اللزوم.

- أنا مستعد أثبته في كل وقت.

بعد ما سرح في التفكير ثانيا وقلب وجهه أشكالا وألوان أكثر من المرة الأولى قال: - طيب أنا حاجربك في الموضوع دا. راضي؟

- أنا متأكد من نفسي ومش محتاج لتجربة، فطبعا راضي.

هنا أخذني من ذراعي وقادني إلى غرفة الجلوس حيث جلس كل منا على فوتيل وأشعل سيجارة ثم قال: - بس ما أقدر أقول لك السردا إلا بشرطين: الأول إنك تحلف لي على كتمانه، والتاني إنك تشترك معايا في موضوعه، لأنك لما تعرفه حتشوف إن واجبك يحتم عليك القيام بوظيفة إنسانية.

- وأقدر أقوم بها بدون أي حرج؟

- بكل سهولة.

- أبقى قبلت.

الطريقة اللي استدرجني بها غرباوي وإثارته لي للاطلاع على ذلك السر وضعوني تحت تصرفه كأني عصفور يجذبه ثعبان بسحر عينيه المغناطيسي. سكتنا كلانا برهة كنت أسمع فيها صوت دقات قلبي، إلى أن بحلق في غرباوي فجأة بعينيه الخبيثة كأنه يراني لأول مرة وقال: - يعني قبلت الشرطين بتوعي؟

t.me/qurssan

- إذا كان الشرط التاني مايخا لفش الشرف.

- من الجهة دي أطمئن. احلف لي دلوقت على إنك حتكتم السر على كل حال.

أقسمت له القسم اللي طلبه، فقال لي أن أنتظره دقيقتين ليذهب لإحضار صاحب السر الأصلي. خرج وتركني وحدي وأنا لا أزال أسمع صرخات الألم ترن في المنزل من وقت لآخر وهي صادرة من غرفة مجاورة. حينئذ تحققت من أن الأمر جدي وأني أمام سر عائلي حقيقي وليس من اختراعات غرباوي الجهنمية.

t.me/qurssan

٨

أحيانا يعيش الإنسان مطمئن في جوهادي وهو لا يدري أن ظروف خفية تدفعه نحو هاوية سحيقة كأنه زورق ينزلق على مياه نهر هادئة تسير به الهوينا حتى تصل به إلى شلال فتوقعه فجأة في هاويته قبل الشلال بأقل من شبر. كان الزورق يسير هادئا وفجأة يتحطم على منحدر الشلال. كان هذا وضعي في تلك الساعة. حقيقة أن ساعة القدر يعمى البصر كما يقولوا. العين تعمى واللسان ينعقد والإرادة تشل ويسير الإنسان آليا نحو المكتوب له كمن يسير في نومه.

لم يطل غياب غرباوي عن الغرفة إلا بضع دقائق، عاد بعدها ومعه شاب طويل القامة حسن المظهر قدمه لي قائلا: ((إبراهيم بك شوكت))، ثم التفت إليه وقال له مشيرا إلى: ((صاحب البيت خليل أفندي))، ثم جلسنا.

اسم ((إبراهيم شوكت)) هذا لم يزدني معرفة بالرجل المجهول الجالس أمامي. تأملته جيدا فوجدته في نحو الثلاثين من عمره، محلوق الشارب، نحيل الجسم، كستنائي الشعر، أبيض اللون، مما يدل على أنه من أصل تركي أو شركسي. كانت تلوح عليه علامات التعب والإعياء اللي تظهر على المسرفين في ملاذ الحواس وسهر الليالي. لونه أصفر باهت، عينيه نصف مقفلة تنبعث منها نظرة حزينة، فكه الأسفل دائم الارتعاش، ومن نحوله كانت جوزة رقبته بارزة جدا، طالعة نازلة باستمرار بشكل يلفت النظر. لكن رغم كل هذا، كان منظر الشاب مهاب يعني كما نقول عادة ((رجل عليه القيمة))، لكن لا بد من أن شكله هذا كله غش وخداع لأنه لا يعقل أن يوجد في منزل غرباوي رجل شريف خصوصا إذا كان هذا الرجل شريك في سر المرأة اللي بتصرخ في بيت سري.

نظرت مستفهما من الاثنين عن ذلك السر اللي وعدني غرباوي بكشفه، بعد أن تبادل الاثنين النظرات بدأ غرباوي الحديث بقوله:

t.me/qurssan

- ما تنساش يا خليل أفندي إنك مش بس حلفت على كتمان السر اللي حنكشفه لك دلوقت وإنما وعدت كمان حتشارك فيه بتأدية خدمة إنسانية مش كدا؟

- أيوه، حلفت ووعدت.

- على كدا حنستودعك سر مهم يمس شرف عايلة كبيرة.

- ما تخاف في بير.

- الست اللي بتصرخ دي في الأودة المجاورة تبقى والدة سعادة البيه.

- طيب وبتتألم وتصرخ ليه؟ عيانة بمرض شديد؟

- لأ. بتولد.

احتار فكري. الشاب الجالس معنا في نحو الثلاثين فلا بد من أن والدته في حوالي الخمسين، ولو سلمنا أنه يصح أن تلد في هذه السن فلماذا لا تذهب لتلد في إحدى مستشفيات الولادة بدلا من أن تأوي لمثل هذا البيت القذر؟ أم يا ترى ليس لها زوج ولجأت لغرباوي لتخفي عارها؟ لكن في هذه الحالة كيف سمحت لنفسها بأن تبوح بسرها لابنها؟ وكيف رضي هذا الابن بأن يشاركها في التستر على عارها؟ كنت أمام معميات يستعصي علي حلها.

كان لا حيلة لي في فهم هذه الألغاز إلا بالانتظار حتى يكشفها لي ممثلين هذه الدرامة اللي بتمثل في منزلي. كنت لا أزال أشاهد الفصل الأول منها، فكان لا بد لي إذن من انتظار الفصول الأخرى. ظهر أمامي حتى الآن على مسرح هذه الدرامة اثنين من ممثلينها وكنت أسمع صوت صرخات البطلة آتية من وراء الكواليس من حين لآخر، الغريب في الأمر هو أنهم يريدوا مني أن أنضم إلى فرقتهم فأصعد معهم على خشبة المسرح في الفصول القادمة. كنت أسائل نفسي عن الدور اللي يمكني أن أقوم به في مثل هذه المسرحية القذرة. لا شك أن غرباوي قرأ على أسارير وجهي دلائل الحيرة اللي كانت تملأ نفسي لأنه قطع علي حبل تفكير ي بقوله:

t.me/qurssan

- يا عم خليل، الدنيا كلها عجايب والبيوت مقفلة على أسرار. المآسي الحقيقة مش اللي بيمثلوها على المسارح وفي السينما وإنما اللي بتدور في العايلات بين أربع حيطان.

- طيب تسمح بقى تفسر لي المأساة دي اللي قدامنا دلوقت.

- اسمع يا سيدى: إبراهيم بك شوكت دا اللي قاعد قصادك يبقى ابن الباشا الكبير الغني المشهور إسماعيل باشا شوكت، والمولود اللي حيتولد دلوقت حيبقى أخوه يعني ابن الباشا، لكن يجب إخفاء أمره عن أبوه الباشا.

- ليه؟ هو الباشا دا ما عرفش إن مراته حامل؟

- لأما عرف.

- طيب ولما يطلع المولود في الدنيا حتخبوه ازاي؟ حتدفنوه بالحيا؟

- أعوذ بالله! هواحنا مجرمين ؟! المولود حيعيش معزز مكرم بس مش حينتسب ليعلة.

- يعني كأنه ابن حرام.

- زي كدا برضه.

- طيب وليه عاوزين تشردوا ابن الحلال وتحرموه من أبوه وكمان تحرموا أبوه من متعة الأبوة؟

- ياعم خليل دي مسائل معقدة صعب عليك فهمها. مش يصح إن الأب ناصح وعارف نفسه إنه عجوز وعاجز عن الخلفة فيعرف إن مراته خانته وحملت من غيره.

- لكن قانونا يعتبر المولود ابنه غصب عنه ويتمتع بماله.

- نعم، ولكن يقدر يحرمه هو وأمه من ميراثه، بينما هو الآن كاتب للست حرمه اللي جوه دي عمارات وعزب، حاجة مضمونة في إيدها دلوقت فمش عاوزة تطير منها.

t.me/qurssan

رأيت المسألة معقولة. يصح إن إبراهيم شوكت الجالس أمامي يشارك والدته في إخفاء أمر هذا المولود لأنه هو أيضا صاحب مصلحة في ذلك، لأن المولود سيشاركه في ميراث أبوه العجوز اللي على وشك أن يودع الدنيا بما فيها. لكن مالي أنا وكل هذه الحكاية المكعبلة. تذكرت أن غرباوي طلب مني أن أشارك فيها بما سماه: ((وظيفة إنسانية))، فقلت:

- دا كلام كويس لكن إيه دخلي أنا في الحكاية دي؟

- إزاي؟ لسه ما فهمت؟

- يعني المولوددا حيعيش بعيد عن عايلته فين؟ مش لازم إنه يتربى في عايلة تانية يكونوا ناس طيبين زي حالاتك.

- إياك عاوزين تسلموني المولود؟

- طبعا. واحنا حنلاقي حد أحسن منك؟

صعقت من المفاجأة، ومن ثقل الدور اللي سألعبه في هذه المسرحية المحزنة. تبينت حرج مركزي فحاولت أن أتخلص من هذا الحرج قائلا:

- لكن مافيش في عايلتي لا حبلى ولا واحدة يصح إنها تحبل وتولد فالناس حتقول جبنا المولود دامنين.

- يا سلام بس كدا؟ بسيطة. يا سيدي تقدر تلاقي لك ميت حجة وسبب لأن المولود دا حيملا لك بيتك تقله فلوس.

- إزاي بقى؟

- طبعا يا عم خليل كل حاجة بتمنها، واحنا إذا كنا اخترناك لتربية المولود العزيز علينا فدا لثقتنا التامة في أمانتك وشرفك. شوكت بك شاف إنه يقرر لك عشرة جنيه شهريا في السنة الأولى نظير رعايتك للمولود وبعدين المبلغ داحيزيد طبعا مع مر السنين. يعني أنا باهديك بالفرخة اللي حتبيض لك بيض دهب.

هذا عرض دقيق يحتاج للتفكير ومشاورة عائلتي قبل البت فيه،

t.me/qurssan

لأني سأعهد لنساء عائلتي بتربية طفل كأنه ابننا مع أنه سقط القيد أي لم يقيد في مصلحة الصحة مما يعتبر مخالفة. في الحقيقة هذه المخالفة ليست ذات أهمية لا من الوجهة الأخلاقية ولا من الوجهة الجنائية لأن القانون لا يعتبر المخالفة أمريمس الشرف لأن لا دخل للإرادة فيها. هذه المخالفة إذن لا تمس الشرف فضلا عن أني لست أبو الطفل وبالتالي لست المسؤول عن قيده.

من جهة أخرى ما دمت سأقوم بإيواء طفل غريب في منزلي والعناية به كأنه ابني فلا شك في أنه يكون من حقي أن أتقاضى عن ذلك أجر، النقود اللي سآخذها عن هذا العمل ليست حرام. ربما لم يكن هذا العمل نظيف تماما ولكنه على كل حال لا يخدش الشرف ولا يخالف الضمير.

بينما كنت شارد الفكر وعقلي بيودي ويجيب في سبيل مغالطة نفسي بتطمينها أن هذا المشروع لا غبار عليه، إذا بي أتنبه لنفسي بلمسة على كتفي من يد غرباوي اللي رأيته يدس في يدي ورقة بعشر جنيهات خدرت البقية الباقية اللي كانت لا تزال عندي من مقاومة الضمير. مع ذلك لميت أطراف إرادتي المزعزعة واستيقظت ضميري بقدر المستطاع فقلت له بصوت متردد ضعيف كان يخال لي أنه صادر من شخص غيري:

- ولكني لسه ما قبلتش العرض بتاعك لأن دا موضوع عاوز تفكير.

- ولا تفكير ولا حاجة يا شيخ! ما تنساش إنك قبلته مقدما لأنك وعدت بإنك حتشاركنا بالقيام بدور إنساني فيه. وتربية مولود في حكم اليتيم تعتبر من أكبر أعمال الثواب عند ربنا. أظنك مش حتنكر كمان إن ربنا وصى على اليتيم؟ يبقى خلاص مبروك. ((اليتيم)) يا منافق يا ضلالي! أمه موجودة في الغرفة المجاورة وهو لا يزال لابد في بطنها لا يريد الخروج كأنه يعلم ما يدبره له غرباوي. وكذلك أبوه حي معروف منكم ثم تعطوه لرجل غريب يربيه كما يفرق صاحب القطة أولادها الصغار على أصدقائه!

t.me/qurssan

بلغت الجراءة والوقاحة بالرجل إلى أنه يقول إن المولود ((يتيم)) ويستعين باسم الله في التوصية عليه! يا للقوم الظالمين!

كانت زهيرة لا تكف طول هذا الوقت عن تقديم القهوة والشاي لنا، وكان شوكت بك اللي لم يفتح فمه بكلمة حتى الآن لا يكف عن التدخين يولع سيجارة من سيجارة ويقدم لنا علبة سجايره. كان تارة هو وتارة غرباوي يذهبوا إلى غرفة الوالدة ليستطلعوا أخبارها على أثر كل صرخة من صرخات الطلق اللي كان حمي في ذاك الوقت. كنا نسكت أحيانا متأثرين بهذه الصيحات المؤلمة اللي تهز الأعصاب وعيوننا مسمرة على باب غرفة الوالدة. كنا منتظرين ربنا ينتعها بالسلامة بفروغ صبر. دون وعي مني كنت أنا أيضا أشاركهم هذا الشعور في تمني سرعة قدوم ذلك المولود، لا لأنه سيملأ لي بيتي بالفلوس أو على رأي غرباوي لأنه سيكون لي الفرخة اللي بتبيض ذهب ولكن بشعور إنساني طبيعي.

أخيرا ذهب غرباوي لغرفة الوالدة وأطال الغياب فبقيت وحدي مع شوكت بك بوجهه المعقد الكشر. كان يدخن مثل المدخنة وقد ملأ جو الغرفة بالدخان حتى أصبح مثل الشبورة في صباح بعض أيام الشتا. حبيت أقطع حبل هذا السكون الممل بالكلام في أي موضوع فيما أطارح الحديث رجل لا أعرف عنه إلا اسمه فقط فضلا عن أننا كنا شركا في موضوع مراكزنا فيه دقيقة حساسة. أظن أني لو حادثته عن الجو أو السياسة يكون الحديث مفتعل بايخ. فكرت أن أمضي الوقت بأخذ رأيه في غرباوي، فقلت له إن غرباوي حقيقة رجل غريب الأطوار، وإن أغرب ما فيه أنه يتكلم عن أعماله بكل ثقة بل وأحيانا بافتخار. تنبه إبراهيم بك شوكت من سرحانه ورمقني بنظرة حادة كأني غلطت في كلامي غلط فاحش، وبعد ما سحب من سيجارته نفس عميق قال لي:

- غرباوي رجل ذكي ومجتهد وطيب ولذلك يحق له أنه يفتخر بأعماله.

اتغظت من دفاعه هذا عن رجل منحل الأخلاق مثل غرباوي، وعلمت أنه من نوعه فعولت على مهاجمته بصفة غير مباشرة.

t.me/qurssan

قلت له:

- سعادتك تعرف جميع أنواع الأعمال اللي بيقوم بها غرباوي بك؟

- أفتكر أيوه.

- ومع ذلك بتشوف إنه يحق له الافتخار بها؟

- أفتكر أيوه.

- أظن أنه إما سعادتك ما تعرفش أعمال غرباوي تمام وإما إنك مش فاهمني تمام وإما إن مخي الوسخ مش قادر يفهمك.

- أبدا يا خليل أفندي. أنا عارف أعمال غرباوي كلها تمام، وفاهمك انت كويس قوي، وإنما كل ما في الأمر هو اختلاف الأعمار والأوساط بيننا. الدنيا بتمشي يا خليل أفندي لقدام وبتتقدم وبتترقى فلا تبص لها بالنظرة اللي كنت بتنظر لها بها لما كان عمرك عشرين سنة. أظن أنه لا يمكنا التفاهم إلا إذا كنت حضرتك تتطور وتتقدم في أفكارك خطوتين وأنا أتأخر وأرجع لورا في أفكاري أربع خطوات.

- أفتكر أنه من يوم ما تعرفت بغرباوي بك اتقدمت في أفكاري خطوات كتيرة قوي.

- بيتهيألك يا عم خليل. لأن الظاهر عليك إنك لسه واقف في مكانك القديم ما تحركت.

- طيب تحب تتكرم علي سعادتك بإنك تدردحني وتجدد لي أفكاري شوية.

- بكل سرور. اعرف أولا أن غرباوي رجل عظيم. طبعا عظمته تخفى على العقول القديمة المحافظة اللي زيك.

- والله أنا اللي أعرفه لحد دلوقت إن الرجل العظيم هو اللي يكون أدى للوطن أو المجتمع خدمة كبيرة، يعني زي اكتشاف علمي أو إخراج عمل أدبي أو فني عظيم أو الفوز بنصر عسكري كبير، وأظن إن غرباوي مع تقديري لذكائه بعيد قوي من أن يكون

t.me/qurssan

عمل عمل من دول.

- عظمة غرباوي في الميدان الاجتماعي وفي محيط الحياة.

- اسمح لي أقول لك مش فاهم.

- أفهمك يا سيدي. مثلا الليلة دي غرباوي نجاني من مصيبة كبيرة.

- واخد عنها منك أجرة كبيرة.

- ولو. فلو أعطيته حتى ألف جنيه برضه شوية عليه، لأن الخدمة اللي بيقوم لي بها دي كبيرة، فلو وقعت في إيد واحد من النصابين وائتمنته على سر عائلي كبير زي دا، كان يستغلني ويعمل لي شانتاج.

- يعني إيه دي بالعربي؟

- أفتكر بيقولوا عنها بالعربي ابتزاز، يعني يفضل يجر مني في فلوس لآخر العمر تحت تهديد إفشاء السر، وغرباوي مش من الناس دول، فمتى أخد مني مبلغ متفق عليه انتهى الأمر وينسى الموضوع كأنه ما حصل. يعني باختصار بيأدي وظيفته بشرف.

- بشرف! يعني سعادتك تعتبر إن كل أعماله شريفة؟

- اسمح لي أوضح لك، لأن الموضوع دقيق شوية. إزاي أعبر لك؟ أيوه. عاوز أقول إنه ربما يكون بيقوم بأعمال غير شريفة ولكنه يؤديها بشرف، يعني عنده شرف في عمل اللاشرف.

اختنق الكلام في حلقي ولم أقدر إلا أن أقول ((كدا))! وما جدوى الكلام مع هذا المخلوق اللي ظهر لي أنه أحط من غرباوي فذكرني بالمثل القائل ((شهاب الدين أزرت من أخيه)). لا شك أن فيلسوف الرذيلة هذا اللي كان بيشرح لي نظرية ((الشرف في اللا شرف)) لاحظ الوقع السيئ لكلامه في نفسي اللي انعكس فيها ظهر على وجهي من علامات الاستغراب والاشمئزاز لأنه بعد أن نظر لي مليا هز رأسه باحتقار كمن يأخذ طفل على عقله، واستمر

t.me/qurssan

في حديثه قائلا:

- أنا مش قلت لك إن الزمن والبيئة بيفرقوا بيننا فمن الصعب إننا نفهم بعض؟

ولكن ما دمنا عايشين سوا في وقت واحد وفي أرض واحدة، وحتى دلوقت قاعدين تحت سقف واحد، فلازم نجتهد إننا نفهم وجهة نظر بعض. لا أقول إننا نقتنع بهالأن دايكون كتير، وإنما كفاية إننا نفهمها بدون عناد ونحترمها بدون حقد. علشان كدا لازم أطلب منك ومن أمثالك لما يناقشوني إنهم يتجردوا من تعصبهم للماضي وتمسكهم بالمبادئ اللي تلقوها في شبابهم ويعترفوا إن الدنيا ماشية لقدام فينسوا الماضي ويفكروا للمستقبل. الماضي ميت أما المستقبل حي. وعلى كدا يكون غرباوي من الناس اللي بيساعدوا على تقدم الإنسانية في سيرها ولو بدا للناس اللي زيك إن داشر ورذيلة.

- يعني بيساعد على تقدم الإنسانية حتى في فتحه بيت سري زي دا مثلا؟ يعني لا مؤاخذة خلينا نتكلم بالمفتوح.

- طبعا طبعا. أنا مبسوط من صراحتك لأن كل مناقشة جد لازم تكون صريحة. اسمع يا خليل أفندي، إنت طبعا عارف إن المدنية تقدمت تقدم كبير، فالنهاردا بتسمع في الراديو وانت قاعد هنا صوت واحد بيتكلم في أمريكا، كان الناس اللي قبلينا يعتبروا دا معجزة ما يتصورها العقل، بل يمكنني أقول إن اختراع التلفزيون يعتبر معجزة أصعب من معجزة عصا موسى اللي أكلت حيات سحرة فرعون، لكن مع كل دا، هناك الناحية البيولوجية في الإنسان بقيت زي ما كانت عليه من ألوف السنين بل زي ما هي عند الحيوان، وأقصد بكدا عمليات التنفس والغذاء والتناسل والموت، في دول الإنسان المتمدن والحيوان المنحط متساويين. الهوا كفلته الطبيعة مجانا للجميع أما موضوعين الطعام والسكس فالناس مهتمة بهم جدا وبيعملوا فيهم دراسات طويلة، ولكن بينما بنجدهم بيبحثوا مسألة الطعام بحرية وبمنتهى الصراحة نجدهم بيبحثوا مسألة السكس بشيء من التحفظ والكتمان

t.me/qurssan

ويخبوها عن الأطفال والمراهقين والبنات ويعتبروا الكلام فيها عيب، بينما تلاقيهم بيتكلموا بأصوات عالية وبمنتهى الحرية في الكلام عن الأكل والمطاعم ويحكوا أكلوا إيه وشربوا إيه، نجدهم يتجنبوا الكلام أو يوطوا أصواتهم وحتى يتوشوشوا لما يتكلموا عن مسائل السكس والكره خانات وبيوت السر. ليه؟ مع إن وظيفة الكره خانة تيجي بعد المطعم مباشرة في نظام الهيئة الاجتماعيـــة. مـن الجـهة دي مـديرين المطعـم واللـو كانـدة والمستشفى مش أرقى درجة من مدير أو باترونه الكره خانة. ليه نغالط نفسنا في إن مسألة السكس بتشغل جميع الأفكار وبتلعب في حياتنا دور مهم؟ دا يمكن نص الجنايات سببها السكس. مش فيه مبدأ في تحقيق الجنايات بيقول ((فتش عن المرأة))، يعني فتش عن الباعث على الجريمة تلاقيه في السكس.

كنت أسمع هذا الكلام الغريب وأنا مندهش مبحلق العينين مفتوح الفم كمن يرى أمامه مخلوق خيالي مثل الغول أو العفريت. بلغت بي الدهشة من هذا الكلام لدرجة أني نسيت السيجارة في يدي فلم أنتبه لها إلا لما لسعتني نارها. استمر شوكت بك في كلامه:

- طبعا إنت مندهش من الكلام دا، لكن فكر فيه بدون تحيز تجده صحيح. فإذا كان مدير المطعم والفندق بيشبع الإنسان من جوعه للطعام وللنوم، ومدير المستشفى بيقوم بعلاجه من الأمراض، فصاحب الكره خانة بيشبع غريزة الإنسان السكسية ويعالجه من كبت شهوته. مدير المطعم بيقدم لزبونه الطعام بتمن، ومدير الفندق يقدم له أودة بتمن، فليه ما يقدمش صاحب الكره خانة كمان أودة فيها ست بتمن؟ ليه بعد كدا تيجي الناس فتحترم الأولانيين وتحتقر التاني مع إنه بيقوم بوظيفة اجتماعية زيهم؟

- والله مش انا ولا انت اللي نحكم في كدا، وإنما اللي أكبر منا احنا الاتنين وهي الحكومة قررت بعد ما درست الموضوع قفل بيوت الدعارة العمومية اللي كانت مرخصة بقانون.

- ودا لأنها حكومة متأخرة رجعية ومنافقة عاوزة تسترضي المتدينين. حقيقي ماهياش الحكومة الوحيدة في كدا، فكتير

t.me/qurssan

غيرها زي إنجلترا وإيطاليا وحتى فرنسا كمان أخيرا ما بتسمحش قوانينهم بالبغاء تحت تأثير رجال الدين، ولكن دا ما يمنعش إن الفجور منتشر فيهم في كل مكان حتى في الحدايق العمومية. لكن جنب كدا فيه بلاد تانية سامحة بالبغاء ومحددة عدد بيوته في كل مدينة بنسبة عدد السكان وواضعاه تحت مراقبة قانونية وصحية، لأن علماء الاجتماع قرروا أن البغاء لا بد منه، وما دام داشر لا بد منه فيكون الأحسن تنظيمه ووضعه تحت المراقبة. إذا اعتبرت البغاء عش مكروب فأظن إن الأحسن حصره في مكان واحد ووضعه تحت المراقبة بدل من تركه ينتشر في جسم الأمة. حكومتنا هنا منعت البغاء فهل منعت وجود البيوت السرية؟ بالعكس زاد عددها. من جهة تانية قفل بيوت البغاء اللي بتنفس عن شهوات الشباب بتسبب عقد نفسية لبعضهم من الكبت، وبتخلي البعض التاني لا يتورع من إنه يهاجم زوجاتنا وبناتنا، وبذلك بنشجع انتشار الفجور في العايلات، بل بلغ ببعضهم أنهم يختطفوا الستات في الشوارع.

لم أجد وسيلة للرد على هذه السفسطة الفارغة أحسن من أن أسخر منه وأتريق عليه، فقلت له:

- وهلبت كمان ما بتعتبر على كدا إن الشرموطة بتقوم بدور اجتماعي مفيد؟

تجاهل الرجل ما في كلامي من سخرية، وقال بكل جد وبرود:

- طبعا، إلا إذا كانت وحشة مش مخلوقة للوظيفة دي، لأن الشرموطة بتقوم بدور في الهيئة الاجتماعية ما يقلش عن دور المطربة أو المغنية في الأوبرا من الوجهة الفردية، يعني أن المطربة لا تفضل على الشرموطة لأن زي ما ربنا أعطى الأولى صوت جميل زي ما وهب الثانية جسم جميل، والاتنين ما لهم في كدا فضل لأنه عطية من عند ربنا، وإذا كانت المطربة بتمتع الجمهور بصوتها الجميل فالشرموطة الأخرى زيها، بتمتعه بجسمها الجميل.

- بقى دا برضه اسمه كلام يا بيه؟ الصوت شيئ فنى يصح يكون

t.me/qurssan

مشاع، أما الجسم فشيء مادي فردي إذا شاع استعماله تدنس وابتذل.

- مين اللي قال كدا؟ إحنا الرجالة بنقول كدا علشان نمتلك بأنانيتنا مرة ونتحكم في النسوان المظاليم.

هنا سكت شوكت بلث ووضع كل همه في شفط دخان سيجارته. أما أنا فبقيت ذاهل كالصنم تحت تأثير كلامه الهدام العجيب اللي عمري ما سمعت له مثيل. صدق المثل اللي بيقول ((ياما بكرة نسمع وبعده نشوف)). كيف عديت الستين سنة من عمري ولم أسمع حتى هذا الوقت بأن الكره خانات وبيوت السر والدعارة والبغاء الرسمي تقوم كلها بوظيفة اجتماعية هامة وتؤدي للإنسانية خدمة جليلة؟ هل يا ترى أنا رجل متأخر متحجر الفكر كما يقول هذا الشيطان الجالس معي أم أنه هو اللي من أعوان إبليس تحرر من كل القيم الأخلاقية وخرج على الأصول الإنسانية؟ كان تلميذ إبليس هذا يتكلم بصوت هادي مهاب وبلهجة الواثق من نفسه ومما يقول كأنه أستاذ يحاضر في مدرج جامعي أو إمام يعظ في جامع. كان أسلوبه في الحديث جذاب لدرجة أنه يجعل من يسمعه يأسف على أنه ليس صاحب كره خانة أو بيت سري. لكن رغم هذا كان كلامه يدخل من أذني اليمين ليخرج من أذني الشمال دون أن يغريني أو حتى يخفف من وخز ضميري على تأجيري منزلي بيت سري. بعد برهة سكوت استأنف شوكت بك كلامه ثانيا ليقول:

- أنا نسيت أقول لك يا خليل أفندي إني مديون لك بالشكر إنت كمان بعد غرباوي بك، لأنك حتقوم بتربية المولود كأنه ابنك.

شعرت كأن الرجل لطمني على وجهي لطمة قوية حينما أشركني مع غرباوي في الشكر فوضعني معه في كفة واحدة. دلدلت رأسي خزيا وعارا ولم أستطع أن أخرج من فمي كلمة واحدة.

بقيت أنا شوكت بك ساكتين برهة من الزمن لم تطل لأننا رأينا كرش غرباوي يظهر من وراء الباب ثم أعقبه دخول جسمه الضخم اللي سيزيد بكرة نار جهنم شعللة. دخل مسرعا وهو

t.me/qurssan

يصيح بأعلى صوته:

- خلاص الست اتنتعت بالسلامة. مبروك يا إبراهيم بك، بقى لنا ابن.

عبارة غريبة هذه ((بقى لنا ابن))، من هم اللي بقى لهم ابن؟ هل هو
ابننا جميعا نحن الثلاثة على المشاع؟ لئن كان لهذا المولود المسكين آباء كثيرة على حد قول غرباوي إلا أنه لم يكن له في الواقع أب رسمي واحد يمكنه الانتساب إليه. ربما سأكون أنا أقرب الآباء إليه لأنه سينشأ ويكبر في منزلي وكلانا قد نسعد أو نشقي بعض حسب ما تخبئه لنا الأقدار. ليت شعري أي شيء سيجره معه هذا المولود الملفوف في لفته. لئن كانت أمه تخلصت منه الآن ورمته خارج بطنها فما ذلك إلا ليقع بكل ثقله على رأسي أنا. إن شاء الله ربنا يجعل قدمه خيرا!

t.me/qurssan

بينما كنت أدير هذه الأفكار في دماغي، إذا بصوت أقدام تصعد السلم ثم يظهر أمامنا خواجة من خلفه سيد يحمل في يده شنطة صغيرة. علمنا أن هذا الخواجة دكتور أرمني مولد استحضره سيد بناء على أمر غرباوي ليولد السيدة. كان هذا الدكتور طويل عريض أحول العينين، تركت آثار الجدري حفر صغيرة في جلده فكان وجهه قبيح بل بشع لدرجة أني أظن أنه لو رأت سحنته هذه المواليد اللي كان بيسحبها لعالم النور لكانت لبدت في بطون أمهاتها وتحصنت فيها رافضة الخروج على إيدين مثل هذا البعبع المخيف. إزاء نظرات التساؤل الموجهة من غرباوي لسيد قال: - أنا يمكن أتأخرت لكن غصب عني لأني دخت السبع دوخات لحد ما عترت على جناب الدكتور. تصور سعادتك إني ضربت أربع تلفونات من بيت الدكتور و كل واحد منهم يحولني على نمرة التاني كأن كل نسوان مصر بتولد في الساعة دي. ولما رحمت خامس بيت مالحقتوش فيه ووصفوا لي البيت السادس اللي لقيته فيه. طبعا دكتور مشهور اختصاص زي داكل الناس بتجري وراه.

هنا قال الدكتور:

- كفاية يا ابني كلام. يا الله بينا للشغل اللي جيتو علشانه.

لكن غرباوي تصدى له ودخل في الحوار الآتي مع الدكتور المولد:
- إحنا في الحقيقة تعبناك يا جناب الدكتور. مرسي كتير خالص.

- لسه مش يقول مرسي دلوقت. استنى بعد الشغل كلمة ((مرسي)) على كيفك.

- أصل فيه جوه ست داية مع الوالدة وخلاص ولدت بالسلامة وجابت ولد.

- خلاص ولدتو؟

- أيوه خلاص.

t.me/qurssan

- مبروك! مبروك كتير! أنا جيت مبسوط كتير.

- مرسي يا دكتور. كتر خيرك.

- يعني البيبي دي شقي كتير. أول ما حس إني أنا جيتوجه خايف وجه بره في الدنيا.

أظن إن المولود كان مكشوف عنه الحجاب قبل أن يهبط للدنيا فعلم بقبح هذا الرجل وأراد أن يتفادى الوقوع بين يديه فخرج من بطن أمه قبل قدومه.

الدكتور فهم غرباوي أنه ما دام قد حضر فيحسن أن يكشف على الوالدة والمولود ليتخذ الإسعافات الطبية اللازمة بعد الولادة. اصطحبه غرباوي لغرفة الوالدة، وبقيت مرة ثانية منفردا بشوكت بك تبادلنا النظرات وابتسمنا. قلت له: - عاوز يحلل الفزيته.

- طبعا. مش فاهم ازاي راجل زي الوحش زي دا بقى دكتور مولد؟

- دا إيده عاملة زي الفخدة الضاني.

- ومع ذلك مشهور في صنعته.

- هو سعادتك سمعت به قبل كدا؟

- أيوه، ولو إني أفتكر إن شهر ته ترجع بالأكتر للتهويش والشارلاتاينزم.

- طبعا. ياما دكاترة كدا. إن مات العيان قالوا لأهله ((إحنا مش قلنا لكم إنه كان ميؤوس منه ودا أمر ربنا))، وإن عاش افتخروا بشطارتهم والناس تقول ((يا سلام دا دكتور شاطر قوي نجاه من الموت))، مع إن العمر واحد.

بينما كنا بندردش هكذا عن الدكاترة وحكاياتهم إذا بنا نسمع صرخات تتصاعد ثانية من غرفة الوالدة، فاندهشنا وتساءلنا عما إذا كان هناك توأم للمولود تخلف عنه فأخذ الدكتور في إخراجه.

t.me/qurssan

بعد برهة دخل علينا الدكتور وخلفه غرباوي يتحادثوا، فسمعنا الدكتور يقول: - علشان البيبيه جه في برزنتسيون بلفيين أن أفان.

- يعني إيه دا؟

- يعني جت في الباب بالمقلوب والداية مش يقدر يصلحه. لو كنت أنا موجود كنت صلحتو البرزنتسيون بتاع البيبيه ونزل قوام. لكن علشان استنيتو كتير المدام جت تعبان كتير وحصل له الديشيرور (تمزق) دا.

شوكت بك سأل غرباوي:

- هي النفسة صوتت تاني ليه؟ هوكان بيو لدها توأم من جديد؟

- لا يا أخي المسألة زي ما بيقول دلوقت، حصل لها تمزق عمل له الدكتور تلات غرز على كلامه.

شوكت بك قال للدكتور بلهجة لا تخلو من السخرية: - مرسي يا دكتور. خسارة ما قدرناش نجيبك قوام كنت ولدتها بسرعة.

- إذا كنت أنا جيتو هنا قوام كنت ولدته في تلاتة ساعة مع إنه ولادة صعب كتير علشان دي أول ولادة يعني اسمه بالعربي بكرية والمدام صغير كتير. إيه دي؟ عنده عشرين سنة؟

جلس الدكتور على فوتيل وأخذ يكتب في رشتة، بينما كلماته الأخيرة هذه كانت لا تزال ترن في أذني. أتراني سمعته غلط؟ هذا لا يمكن لأن نطقه العربي ولو أنه مكسر إلا أنه كان واضح جدا. إذن كيف يمكن أن تكون والدة شوكت بك بكرية عمرها عشرين سنة إذا كان هو حوالي الثلاثين؟ ربما كانت الوالدة زوجة أبوه اللي قالوا عنه إنه يقرب من الثمانين. في هذه الحالة هل يمكن أن يرزق طفل من زوجته الشابة هذه؟ من أبو المولود؟ تذكرت قول بعضهم من أنه من الجايز أن تلد زوجة ابن الثمانين ولكن من المؤكد أن أبوه يكون أحد الجيران.

أغلب الظن أن المولود ليس من صلب الباشا المذكور وإلا لما

t.me/qurssan

لجأوا لكل هذا اللف والدوران. على كل حال الوالدة ستترك ابنها هنا وتذهب لحال سبيلها، كما تذهب البقرة بعد ما يفصلوها عن عجلها، تاركة مولودها عندي دون أن تكون له أي علاقة بوالدة شوكت باشا اللي يجهل حتى وجوده.

ربما أمكن تفسير هذه المؤامرات اللي بتحاك حول المولود، ولكن كيف يمكن تفسير موقف الوالدة منها؟ الوالدة الحنون المحبة بطبيعتها بل بغريزتها لمولودها، ضناها وقطعة من كبدها ولحمها، كيف يمكن أن ترضى بحرمانها من ابنها وبحرمانه منها ومن أبوه فينشأ ابن حرام مجهول النسب؟ إنها بلا شك امرأة غير طبيعية وإلا لما استطاعت أن ترتكب مثل هذه القسوة في حق ابنها. هل تشفع لها قسوة ظروفها أو طيش شبابها؟ لا أظن. لأنه حتى الحيوانات المحرومة من التفكير تدفعها غريزة الأمومة إلى أن تفدي أحيانا صغارها بحياتها. قرأت في أحد كتب الحيوان – لأني مغرم بالقراءة في كتب الحيوان وعجائب المخلوقات اللي قرأت عنها من القزويني لوالت ديزني – أن الأم من الطير المسمى بالإنجليزية بليكان عندما تعود إلى أفراخها بدون طعام، بعد أن تكون أجهدت نفسها في البحث عنه طول اليوم، تعمد إلى شق بطنها بمنقارها أي تنتحر على الطريقة اليابانية هيراكيري، ثم تخرج منه كبدها وأمعاءها تطعمها لفراخها وتظل تطعمهم من أحشائها وهي تتقلب ما بين نشوة الحنان الأمي اللذيذة وسكرة الموت المؤلمة. حدثت مرة عن ذلك صديقي حسين الأديب المطلع على الأدب الغربي فأخبرني بأن الشاعر دوموسيه كتب عن هذا الموضوع قصيدة رائعة مشهورة في الأدب الفرنساوي.

ظلت هذه المعميات تدور في ذهني دون أن أجد لها حل أو تفسير أطمئن إليه، إلى أن خرج الدكتور يشيعه غرباوي. بمجرد أن عاد غرباوي من توصيل الد كتور انتحيت به جانبا بعيدا عن شوكت بك وسألته: – أظنك سمعت بودنك الدكتور وهو بيقول إن النفسة بكرية وعمرها يطلع عشرين سنة؟

– أيوه.

t.me/qurssan

- طيب تقدر تفسر لي في الحالة دي تبقى ازاي أم شوكت بك؟

- يا سيدي ما تدقش! مرات أبوه يعني تبقى زي أمه.

- وجابت مولودها من طريق غير مشروع؟

- فلنفرض. واحنا مالنا؟ يهمنا إيه؟

- لكن شوكت بك ازاي يرضى إنه يساعدها في الغش ويتستر على عار مرات أبوه؟

- يا عم خليل ما تبقاش حنبلي قوي وتحبكها. يا أخي شغل عقلك شوية. مش جايز يكون له يد ولا مصلحة في الحكاية؟ يعني لما أبوه الباشا يكون عجوز قوي ومراته شابة صغيرة وحلوة وساكنين في بيت واحد، مش جايز يكون حصل بينهم حاجة كدا ولا كدا؟ أنا ما باقولش حاجة، علمي علمك وإنما دا مجرد استنتاج أو ظن وإن بعض الظن إثم.

يا للقذارة والانحطاط! لم يكن يدور بخلدي أن الإنسان يمكنه أن ينحط إلى مثل هذا الدرك السحيق فيخون أبوه في زوجته اللي في مقام أمه. لا بد أن هذه هي الحقيقة اللي لمح بها غرباوي الثعلب الماكر الخبيث رغم تهربه من تأكيدها. لم أطق بعد ذلك أن أنظر إلى وجه شوكت بك اللي خيل لي أنه شيطان لا ينقصه إلا قرون وذيل حسب تصورنا للشيطان، فقمت من مكاني مسرعا وخرجت من الغرفة مهرولا إلى السلم ونزلت إلى أهلي لأتنفس الصعداء.

t.me/qurssan

كنت في غرفتنا مع زوجتي منفردين، ولأني لم أرد أن أخبرها بحكاية المولود اللي سنأخذه في بيتنا إلا في حضور والدتها لأني كنت أعلم أني سأجد في السيدة حماتي خير سند ومعين، فعلا لم يمضي كثير من الوقت حتى دخلت علينا حماتي، فتجرأت وحكيت لهم قصة تعهدي بتربية المولود اللي رماه علينا أمه وأبوه بأجر شهري قدره عشرة جنيه.

زوجتي حملقت في بعينين متسعة وهبت قائلة كمن لسعها عقرب:

- والله عال! ما كان ناقص علينا كمان إلا نعمل بيتنا على آخر الزمن ملجأ لأولاد الحرام بعد ما عملناه... زي ما انتم عارفين. حاقول إيه بس ولا إيه؟

- دامش ملجأ وإنما نازل فيه ضيف صغير بأجرة.

- ضيف صغير يا حبيبي! يكون في علمك من دلوقت إني مالي دعوى بابن الحرام دا ولا حتى حالمسه بإيدي.

هنا أتاني الغوث المنتظر من حماتي اللي قالت:

- يانـدامة يـا بنتـي! هـو انتـي مش مسلمة لكي قلب يرق على اليتيم؟ حد يقول كدا عن مولود صغير بريء لسه جاي الدنيا جديد؟

- قولي لها بس يا أبلة.

- ولايكون عندك فكر يا خويا. أنا حاتكفل به وأشوفه من عيني دي وعيني دي.

- لأ والمسألة فيها عشرة جنيه إلا ما بنطولهم من تأجير الشقة.

- الحتت العيل دايا حبة عيني، بالكثير حيشرب له في الأول أربع خمس علب لبن صناعي في الشهر وبعدين أقة لبن حليب في

t.me/qurssan

اليوم يعني في الشهر مش محصل لما يتمعظم اتنين جنيه والباقي كله مكسب. دا يا أختي أحسن من بيت ملك.

- يا فرحتك يا أما بتربية ابن الحرام.

- يا بنتي الله يهديكي ما تقولي لي كدا. ابن حرام ولا ابن حلال مش بني آدم خلقه ربنا؟ أصله إيه وفصله إيه مالناش دعوى؟ هو احنا ولدناه؟ ما دام ربنا بعت لنا لحد عندنا اليتيم دا فلازم نربيه ونكسب فيه ثواب. دا حتى يا بنتي سيدنا النبي اتربى يتيم.

- والنبي يا أما ما تدخلي سيرة سيدنا النبي في الحكاية الوسخة دي.

- يو! اللهم صلي عليك يا نبي! هو انا يا بنتي غلطت؟ هو مش ربنا وصى على اليتيم؟

- أهو اليتيم بتا عكم عند كم اعرفوا شغلكم فيه أنا ماليش به دعوى.

قالتها زوجتي بشخط وقامت خرجت من الغرفة وخبطت الباب وراها بغضب. من الغريب أن تكون زوجتي اللي لا تصلي في منتهى الاستقامة والتزمت، وأمها الحاجة المصلية بهذا التساهل والتسامح في تحوير مبادئ الدين والأخلاق. ربما لأن غريزة الطمع والحرص اللي في طبيعتها تطغى على مبادئها الدينية والأخلاقية. من سخرية القدر أن اسمها ((صالحة))، هي فعلا صالحة اسما وشكلا أما موضوعا ...!

في الواقع كانت حماتي أقدر السيدات اللي في منزلي على تربية المولود، خصوصا وأنها ستربح من وراه قرشين لأنها تعلم طبعا أني سأعطيها من ذلك المبلغ جانب، فضلا عن أنها ستشارك المولود في لبنه.

لما عدت مساء لمنزلي بعد يومين وجدت عائلتي ملمومة على مهد مزركش بالدنتلة وشريط حرير بمبة يرقد فيه المولود الجديد. في الحقيقة وحيد - لأن هذا اسمه - كان جميل بالنسبة

t.me/qurssan

لسنه، فكان كل واحد من أفراد العائلة - ما عدا زوجتي - يتغزل في جماله. حتى بنتي حملته وسارت به تهنته ثم أعادته لمهده وهي مسرورة به لأنه كان يحرك عاطفة الأمومة الكامنة في نفسها. أخيرا قالت حماتي:

- والله أنا بديت أحبه زي ما يكون ابني من لحمي.

- يا أبلتي هو اللي في سنك يولد؟

- أنا باقول يعني زي ما يكون، يعني فرضا. بلاش يا سيدي ابني خليه زي ابن بنتي. أنا حتى حافوته من طوق جلابيتي ويبقى زي ابني تمام.

سألت حماتي عن الكيفية اللي أحضروا لهم بها الطفل، يعني من أحضره؟ وماذا قال؟ فقالت:

- يدوب بعد انت ما خرجت جاغرباوي بك ومعاه زهيرة شايلة المولود، ولما عرف إنك خرجت سلمني المولود وقال لي ((أهو تسليمك وفي عهدتك وإن شاء الله تكوني له أم تانية. واسمه وحيد عبد الله)) ومشوا.

في الحقيقة كانوا موفقين في اختيار هذا الاسم للمولود لأنه دخل الدنيا وحيد وسيبقى فيها وحيد بدون أم ولا أب ولا أهل. كتبت عليه الوحدة في الحياة، فهل يا ترى كتب عليه الحرمان أيضا؟ استمرت حماتي في حكايتها:

- ما فاتش ربع ساعة إلا ورجعت زهيرة تطلب المولود فأخذته وطلعت، وأنا حبيت أشوف أمه فطلعت وراها. يا ريتني ما طلعت لأني شفت منظر الأم وهي بتودع ابنها ضناها فكان حاجة تقطع القلب.

- ولقيتيها ازيها؟

- دخلت أودتها ورا زهيرة لقيتها قاعدة على فوتيل زي القمر في ليلة أربعة عشر. شابة صغيرة يا عيني وجميلة جمال! عنين إيه وحواجب إيه وبق إيه ما اقدرش أوصف لك يا خويا. قمرة عاملة

t.me/qurssan

كدازي صور ممثلات السينما اللي بنشوفهم في المجلات. لونها بس يا حبة عيني كان مخطوف شوية من أثر الولادة ولكن كان مخليها أحلا وأحلا زي الوردة الحلوة البهتانة. ومع الحلاوة دي الشابة في غاية الأدب، أول ما شافتني عرفت أنا مين.

قالت لي بصوت هادي حزين: ((إنتي يا ست اللي حتشوفي المولود دا ؟)). فأنا نعمت صوتي على قد ما قدرت وقلت لها: ((أيوه يا هانم)). قالت لي:

- *أنا سمعتهم بيمد حوا كتير في تربيتك وأخلاقك.*

- *دامن لطفك وأصلك يا حبيبتي.*

- أرجو كي ما تعيبيش على حد، *فالناس أغذار وكل واحد لازم يشوف المكتوب على جبينه.*

وأخذت المولود في حضنها وبقت تبوسه بحرارة والدموع نازلة من عينيها زي المطر. الظاهرإن المولود اتضايق من تفعيص أمه فيه فابتدا هو الآخر يعيط حتى اختلطت على خدوده دموعها بدموعه بين البوسات اللي كانت نازلة عليها. يا عيني كانوا الاتنين بيعطوا بحرقة كدا زي مايكون قلبهم حاسس إن دي ساعة وداعهم الأخير.

وبعد بوسة طويلة مدت لي الوالدة ابنها، وقالت لي: ((خديه بقى يا الله خديه. كفاية عذاب يا ربي! ما كانش حقهم يوروه لي. لما شفته دم الأمومة حن في عروقي وحسيت إن دا حتة قطعوها من لحمي. خذيه بقى لا مش حاقدر أستحمل أكثر من كدا، بعدين حاضعف ومش حاقدر أسيبه ومش حاسأل لا عن الناس ولا عن الأصول علشان أسيبه ابني يكون ضحية لعاداتهم وقوانينهم. خديه في عرضك يا ستي. أنا بعد ربنا استودعته بين إيديكي. يا الله اهربي به قوام)).

أخذت الولد في حضني وخرجت بسرعة من الأودة زي اللي أكون سارقاه وهو بيعيط على صدري وسامعة صوت بكا أمه ورايا. ما تمالكت أنا كمان نفسى ففرت الدمعة من عينى على المولود تبل

t.me/qurssan

شعره الد هبي. ودلوقت كل مايعيط الوليد داقلبي يتقطع لأني أفتكر إن أمه هي كمان قاعدة بعيد بتعيط عليه زيه وأكثر.

هنا مسحت حماتي عينيها بطرف طرحتها. كان كل السامعين متأثرين من هذه الحكاية المفجعة، خصوصا الجنس اللطيف بما فيهم بنتي، وكلهم طلعوا مناديلهم وراحوا يمسحوا عيونهم. حتى ابني عادل ظهر عليه التأثر، ولا أنكر أني أنا أيضا بلغ بي التأثر مبلغه. كان طبيعي أن نتأثر كلنا بهذه الفاجعة الإنسانية، ولكن هل كان يصح أن أدع لأولادي الشباب الفرصة اللي تجعلهم يتأثروا من نتيجة جريمة أخلاقية تأثير يشعرهم بالعطف عليها؟

لكن من اللي جاء بثمرة هذه الجريمة لمنزلنا وجعلها موضوع عطف العائلة؟

ألست أنا؟ وكل ذلك من أجل الحصول على بعض جنيهات تساعدنا على المعيشة.

يقول المثل ((مصائب قوم عند قوم فوائد)) ولن يصح تعديله في حالتنا هذه إلى ((رذائل قوم عند قوم فوائد)). لكن أين تلك الفوايد؟ كان غرباوي قال لي إن هذا الطفل سيكون عندي كالدجاجة اللي بتبيض بيض من ذهب. ها أنا أخذت الدجاجة ولكني لا أجد بيضها الذهبي، اللهم إلا العشرة جنيه اللي أخذتها منه أجرة الشهر الجاري. فهل هذا هو كل ثمرة اشتراكنا في هذه الجريمة أو على الأقل في التستر عليها وإخفاء معالمها؟ يا الله! لقد انحدرت أخلاقي إلى أبعد مما كنت أتصور، فها أنا أساوم بيني وبين نفسي في ثمن الجريمة. لا شك أن أثر غرباوي كان أبعد غورا في نفسي وإلا لما فارقني الشعور بالاشمئزاز من اشتراكي في الجريمة نفسها ليحل محله التفكير في مقدار ثمنها.

ثمن الجريمة! أتراني تقاضيت ثمن مجزي لاشتراكي في هذه الجريمة؟ حقيقة لا بأس بالأجر الشهري البالغ عشرة جنيه القابل للزيادة، ولكن أي ضمان عندي لدوام هذا الأجر؟ إني أعامل قوم من الشياطين لا يعطوا القرش إلا إذا كانوا متأكدين أنهم سيربحوا من وراه عشرة. فربما بعد أن يطمئنوا على اختفاء كل

t.me/qurssan

آثار جريمتهم وتستقر بهم الحال يعمدوا إلى قطع هذا المرتب، فيقع مستقبل سي وحيد هذا على عنقي كأني أبوه الحقيقي، وأزداد عبء فوق أعبائي العائلية وأكون كمن ذهب ليصطاد فصادوه.

ذلك لأنهم لو قطعوا عني مرتب وحيد فإنه سيستحيل علي التخلص منه لأنه سيصبح بلا شك كأنه ابني. ألا تقول حماتي منذ الآن بأنها تشعر كأنه ابنها أو على الأقل ابن بنتها أي ابني أنا أيضا؟

على أي حال وحيد أصبح منذ ذاك اليوم أحد أفراد عائلتي نهائيا لأن قلبي لن يطاوعني على التخلص منه مهما كانت الظروف، فلو كان عند الإنسان قط أو كلب بيربيه فإنه لا يهون عليه يسربه مهما ضاقت به الحال.

من جهة أخرى فكرت في عواقب هذا الموضوع، فأخذت أطمن نفسي أو ربما أغالطها. كنت أقول لنفسي إني لست بوليس ولا نيابة حتى أتحقق من أمر ميلاد وحيد وعن شخصية أبوه وأمه وعن قيده في دفاتر وزارة الصحة، فكل إنسان مسؤول عن أعماله الشخصية فقد. ألم يقل الله جل جلاله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ و ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ ؟ فأنا لا يدلي في وجود وحيد هذا، وكل ما أعرفه عن موضوعه هو أن غرباوي طلب مني حضانة طفل يتيم نظير أجر معلوم فقبلت، هذا هو كل ما في الأمروليس فيه ما أؤاخذ عليه.

كل واجبي هو أن أعتني بالطفل كأنه ابني وما عدا ذلك فلا شأن لي به.

ثاني يوم تركت الوالدة بيتنا وأصبحنا نعتبر وحيد كأنه ابننا الحقيقي ونسينا أصله وفصله، واستمر غرباوي في استغلال شقته كما كان يفعل من قبل في سرية وهدوء.

t.me/qurssan

١١

كنت أصبر نفسي على احتمال وخز ضميري والتغاضي عن كل ما أنا فيه من مشاكل تمس الشرف وتجرح الأخلاق، بأن الثلاثة أشهر مدة إيجار غرباوي كانت على وشك الانتهاء، وأعد الأيام والليالي الباقية بفروغ صبر حتى أتمكن من طرد غرباوي من منزلي شر طردة، فأسترد حريتي وأنظف الطين والقاذورات العالقة بشرفي وأستطيع أن أرفع رأسي عاليا ولو أمام نفسي راضيا برجوعي لشظف العيش اللي كنت فيه. كنت أتمنى الجوع لوكان يضمن لي الخروج من البير القذر اللي وقعت فيه.

أذكر جيدا أنه كان باقي من مدة إيجار غرباوي تسعة أيام لما شكت لي زوجتي من ورم في صدرها بدأ يكبر تدريجيا. علمت منها أنه كان في بزها الشمال. كنت أسمع أن الأورام في مثل تلك الأعضاء اللحمية قد تكون بادرة سرطان فلايصح السكوت عليها.

ذهبت ثاني يوم مع زوجتي للعيادة الخارجية في مستشفى صيدناوي لأنه أقل زحاما من القصر العيني وأحسن منه سمعة في معاملة المرضى. بمجرد ما عرف منها الد كتور مرضها، كتب لها ورقة ليعملوا لها أشعة بالمستشفى بثمن مخفض. ثاني يوم دفعت للمستشفى القرشين اللي كانوا حيلتي وعملوا لزوجتي الأشعة وقالوا لنا نرجع في الغد لمعرفة النتيجة. لما رجعنا وجدنا صورة الأشعة عند الدكتور الباطني اللي كان كشف عليها أول مرة. قال لنا إن حالتها مشتبه فيها بأن تكون سرطان ويجب إجراء عملية حالا لاستئصال ذلك الورم الخبيث. لذلك حولنا لقسم الجراحة. فهمونا في قسم الجراحة أنه لا توجد عندهم سراير خالية ولا بد من انتظار دورنا اللي يمكن يستغرق أسبوع على الأقل. أسبوع كامل! هذا وقت طويل يعطي الفرصة للمرض الخبيث في التقدم والانتشار. الدكتور قال لنا إنه يجب عمل العملية بأسرع ما يمكن. أي أنه يجب محاربة السرطان بأساليب حرب الصاعقة. ما العمل إذن؟ لو التجأنا لمستشفى مجاني آخر سنصطدم بنفس العقبة: ((مافيش دلوقت سرير فاضي. قيدوا

t.me/qurssan

اسمكم واستنوا لما ييجى دور كم)). يعني موت يا حمار لما ييجي لك العليق.

كان لا بد إذن من الالتجاء لجراح خصوصي سيتقاضى طبعا عن إجراء العملية أجر. أعلم أن أجر العمليات عالي، فمن أين لي النقود لأدفع للجراح وللمستشفى أجر العملية حتى لا أترك زوجتي العزيزة فريسة سهلة لوحش السرطان الكاسر.

كنت أهري وأنكت هكذا، ودماغي يكاد ينفجر من التفكير وقلبي من الأسى، خصوصا كلما وقع نظري على زوجتي الحبيبة، شريكة حياتي وأم أولادي، فأجدها حزينة كئيبة صابرة على بلواها لا تخرج من شفتيها كلمة شكوى ولا آهة ألم. كلما نظرت إليها تخيلت السرطان كأفاعي تسري تحت جلدها وتنهش في لحمها. بعد ذلك بيومين وأنا جالس في حجرتي مساء أقاسي من همي ونكدي وقد نسيت غرباوي والشقة والإيجار وكل ما يتعلق بتلك الأمور، إذا بغرباوي ينقر على باب شقتنا فأدخلته. بعد قليل من الكلام العادي قال لي: - أنا رجل دقيق في معاملاتي يا عم خليل. إنت عارف إنه مش فاضل غير تلاتة أيام على انتهاء مدة إيجارتي؟

- أفتكر تمام.

- علشان كدا جيت لك علشان أجداد الإيجار مدة تلات أشهر تانية. هلبت ما القرشين اللي أخذتهم مني انصرفوا من زمان ورجعت لعيشة البؤس تاني فما عندك مانع من تجديد الإيجار.

أطرقت رأسي مفكرا في مصاريف العملية اللي يجب عملها بسرعة ولم أفتح فمي بكلمة.

كلما تذكرت موقفي هذا وأني لم أتلهف على طلب قيمة الإيجار رغم حاجتي الشديدة إليها، أرضى عن نفسي. أخرج غرباوي من جيبه خمسين جنيه ووضعها أمامي على طرابيزة السجاير وقال: - اتفضل خد الإيجار الجديد وحلال عليك يا عم.

أيقول الرجل ((حلال عليك))؟ كيف يمكن أن تكون هذه النقود

t.me/qurssan

النجسة حلال؟

أخذت النقود من سكات ووضعتها في جيبي وأنا عالم بأني ما وضعت فيه إلا تعابين ستظل تنهش في ضميري وتدمي قلبي طيلة ثلاثة شهور أخرى. ولكن ما باليد حيلة. قال إيه اللي جبرك على المر قال اللي أمر منه. مهما كان الثمن لا بد من دفعه، فما كنت لأترك زوجتى الحبيبة تموت أمامي دون أن أفعل المستحيل لإنقاذها.

تألمت كثير في حياتي ولكن ألمي في هذه الساعة كان أشد وأقسى من كل ما فات، لأنه كان بيخيل لي أنه صادر من طبقة عميقة جدا في قلبي كانت في قعره ولم تصل لها الآلام بعد.

لا شك أن هذا الشيطان كان لاحظ أني أخذت نقوده في هذه المرة بسهولة أكثر من المرة الأولى لأني لم أشدد في سؤاله واستجوابه، فأراد أن يشجعني على السير معه في طريقه المعوج فطبطب على كتفي ملاطفا. شعرت بقشعريرة تسري في جسدي كأنما لمستني يد عزرائيل، ثم سمعته يقول بصورت المنتصر: - برافو عليك يا عم خليل. أنا ملاحظ إنك تقدمت عن زمان.

- اتقدمت في إيه؟

- يعني اتنجرت ومخك بدأ يتفتح ويمشي مع الزمن.

فأجبته ساخرا:

- طبعا يا سيدي بفضل دروسك المفيدة.

- رجعنا تاني للكلام اللي ماينفع، يا راجل اعقل بقى وشوف الدنيا ماشية ازاي حواليك. فكر في الأرواح اللي في رقبتك وكلهم اعتمادهم عليك لأنه ما فيهم واحد بيكسب قرش والمعيشة كل يوم بتغلا عن يوم. أنا عارف إن القرشين اللي أخدتهم مني دلوقت مش حيصملوا في إيدك جمعة من طلبات البيت والست والست الكبيرة والأولاد وو ...

- والمصيبة إن كمان الست لازم تعمل عملية بعد بكرة.

t.me/qurssan

- طيب وازاي ساكت على الحال دا؟ إنت يمكن انتهى أمرك ولكن عائلتك صعبانة علي.

- أهو ربنا مابينساش خلقه. بيرزقني ويرزقهم.

- حقيقي بيرزقكم، بس أديك شايف قوت لا يموت، بيرزقكم بالقطارة نقطة نقطة.

- طيب وانا في إيدي إيه؟ تقدر تقول لي رجل اختيار زيي يقدر يعمل إيه؟

- أهو دلوقت عجبتني. أقول لك يا سيدي. إنت عارف بلا شك يا عم خليل إن الزمن تغير وقيمة المال في صعود وقيمة الفضيلة في هبوط، واحنا وسط دوامة من التدهور الأخلاقي بتلف الإنسان مهما قاوم لأنه خاضع لنظام بيئته.

- دا شيء ما حد ينكره، لكني قدرت أقاوم لحد دلوقت وأعيش بشرفي.

- بعد دلوقت الحال حيتغير.

- طيب أعمل إيه؟ قل لي.

- يجب إنك تكتسب مناعة، فترى ما بيعملوا تطعيم ضد الأمراض المعدية كذلك يجب تعمل تطعيم ضد مرض الفقر.

- والله أولادي اتطعموا في المدرسة ضد الجدري، ولكن التطعيم ضد الفقر دا لسه ما سمعت عنه.

- طبعا، وانت حتعرف الحاجات دي منين؟ قصدي من التطعيم دا إنه يكسب الإنسان مناعة ضد الفقر.

- يا ريت يخترعوا تطعيم زي داكنا نطعم به كل الناس فنمنع الفقر.

- التطعيم دا وقائي، يعني يحمي الناس من الوقوع في الفقر.

t.me/qurssan

- في عرضك دلني عليه.

- إنت مش عندك ابن وبنت.

- أيوه.

- تقدر تقول لي عملت لهم إيه؟ يعني حضرت لهم إيه للمستقبل؟

- والله أظن إني عملت لهم اللي قدرني عليه ربنا، يعني ربيتهم تربية نضيفة وباعلمهم زي كل الشبان اللي زيهم.

- بتقول تربية نضيفة؟ أنا متأكد إنها تربية فاسدة قديمة زي الطبيخ البايت الحامض اللي يضر المعدة. إحنا في عصر مزدحم، التنافس فيه شديد، نعيش فيه كالحيوانات في الغابة، القوي ياكل فيها الضعيف، والقوة هنا الفلوس.

- دا شيء معروف.

- والانحلال الأخلاقي اللي ماشي دا سببه الحالة الاقتصادية اللي حتنتهي بأزمات حادة وارتفاع فاحش في الأسعار، وآديك زي ما انت شايف الغلا عمال يزيد.

- حقة دا ما حدش يقدر ينكره. دانا أبو يا الله يرحمه كان بيعطيني وأنا تلميذ بالي في الشهر كان منغنغني، ودلوقت ابني مش مكفيه جنيه ونص في الشهر.

- ولسه الغلا دا حيزيد لحد ما تبقى أقة العيش بخمسة صاغ وأقة الرز بعشرين قرش.

- ربنا يرحم عبيده.

- ربنا مالوش دعوى بأشغالك الخصوصية، مش فاضي لك.

- إزاي؟ مش قال ﴿أُدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؟

- أيوه يا سيدي. وغلبت إنت والغلابة اللي زيك وأسخم تدعوه وتدعوه. تارة تسجدوا له وتارة ترفعوا إيديكم للسما، وهو عمره ما يستجيب لكم، والغريبة إنكم لسه ما اقتنعتوا بأنه إما ما

t.me/qurssan

بيسمع أو مش عاوز يسمع أومش عاوز يستجيب أو مش موجود خالص.

- أستغفر الله العظيم! يا راجل اختشي وخاف من ربنا.

- كيف أخاف من شيء مجهول لا أعرف عنه حاجة. ربنا دا الغول اللي بيخوفوا به الأطفال الكبار اللي زيك.

- إنت رجل ملحد ما لك دين، فكلامك دا ما له قيمة عندي.

- مش فاهم ليه الدينيين أمثالك يحتقروا الملحدين، مع إن الإلحاد في ذاته دين. فكما تعتقد أنت في النبي محمد أنا لا أعتقد فيه، وحرية الاعتقاد يجب أن تكون مكفولة. إذا كان أغلى وأثمن ما وهبه الله للإنسان هو عقله وعقله لم يسعفه بالإيمان بالدين فكيف يحاسبه الله على ذلك، وخصوصا إن القرآن قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾، فإذا كان ربنا ما شاء هدايتي فكيف بعد ذلك يؤاخذني على كدا؟

- لأنه أعطاك حرية الاختيار وهو يعلم بعلمه الواسع أي طريق ستختار.

- نرجع لموضوعك انت، فلاتعتمد على ربنا، اعتمد بالأكتر على نفسك في تدبير أمورك ولقن أولادك الدين الجديد.

- وإيه هو الدين الجديد بتاعك دا؟

- هو الدين اللي يخليهم ينجحوا في الحياة ويبقى عندهم فريجيدير وغسالة كهربائية بل وسيارة، يعني أفكار متمشية مع العصر الحديث.

- يعني أعلمهم مبادئك فأشجعهم على إنهم يفتحوا بيت سري مثلا؟

- عند اللزوم يا عزيزي عند اللزوم. وماله كله أكل عيش وأكل العيش مش عيب، مش بيقولوا العمل شرف؟

- لا يا حبيبي! هو دا برضه عمل؟ أكل عيش عن أكل عيش يفرق.

t.me/qurssan

ما الحرامي كمان بيشتغل في السرقة علشان ياكل عيش.

- طبعا الحرامي كمان رجل صاحب صنعة بيا كل منها عيش.

- بس صنعة مش شريفة بل مجرمة ومحرمة.

- الشرف والإجرام دول حاجات نسبية اصطلاحية، لكن نقدر نقول عن صنعة الحرامي إنها خطرة ضارة لأنه بيخطف عيش غيره، وأنا معاك إن الشيء الضار يجب منعه، ولذلك المجتمع بيعاقبه علشان يحمي نفسه أو على الأقل يحمي الطبقة القابلة للسرقة، ولكن هل العقاب دا عادل من وجهة العدالة المطلقة؟

- طبعا.

- لا تنسى يا عم خليل ان الفكر والذكا ما لهم حدود فلاى يصح تقيدهم بقيود، فالرجل اللي ...

- يعني بقى نسيب الدنيا فوضى اللي يسرق يسرق واللي يقتل يقتل.

- حلمك علي. عاوز أقول إن الرجل اللي وهبه الله خفة ورشاقة في إيده بيكون جراح أو رسام أو موسيقي أو حاوي ناجحين والناس تعجب بهم وتحترمهم، ولكن نفس الرجل دا إذا نشأ في بيئة وسخة بيكون نشال أو نصاب وفي الحالة دي الناس تهاجمه والمجتمع يحاكمه ويحبسه مع إن عمله محتاج لذكا و مقدرة تجعل من صنعته فن رفيع واجب إنه يوكل صاحبه عيش حتى ولو كان على حساب غيره من العبط اللي ما عرفوش يحافظوا على أموالهم، مهما تفنن القانون ومهما تنوعت النظم السياسية فلا بد من إن الأذكياء يركبوا سيارات يجروا بها على أجسام العبط والمغفلين.

- مافيش فايدة إني أكلم واحد زيك بيحلل الجريمة.

- أنا قصدي أخدمك وقلبي على أولادك يا عم خليل. يعني الحق علي اللي عاوزك تربيهم تربية حديثة تنفعهم في الحياة؟

t.me/qurssan

- ما تتعبش نفسك يا سيدي. أولادي لازم يتربوا تربيتي ويطلعوا زيي.

- يعني علشان بكرة يعفنوا في إدارة حكومية زيك ويطلعوا من المولد بلا حمص ويفضلوا طول عمرهم مرؤوسين وخدامين للي اتربوا تربية حديثة ونشأوا في وسط الكدب والرياء والدسيسة والفجور لأن زمننا دا كله غش وخداع ونفاق.

- من الأسف. ولو إنه برضه الدنيا بخير وفيه مستثنيات.

- وهل هذه الحال تعجبك؟

- ودي عاوزة سؤال؟ طبعا لا تعجبني لأنها كلها كدب وخداع وتغيير للحقائق.

- أبدا. دول ما بيغيروا الحقائق وإنما بيغطوها، ودا شيء واجب، لأن الإنسان زي ما عنده عورات في جسمه بيغطيها بالكسوة، كذلك عنده عورات معنوية من واجبه إنه يغطيها بالنفاق. وما دمت لاتحب تشوفني عريان جسميا، فليه عاوز تشوفني عريان معنويا؟ ما دام لاتحب، ربنا أمر بستر العورات الجسمية فليه مش عاوزنا نستر عوراتنا الأخلاقية.

- وبالشكل دالا يظهر الواحد منا على حقيقته وإنما ينتحل شخصية تانية ويكون زي ممثل على مسرح الحياة.

- تمام كدا. فمافيش حد بيظهر على حقيقته وإنما كلنا ممثلين بنمثل أدوار من تأليفنا على مسرح الحياة.

- بس المهم إنها تكون أدوار نضيفة مافيهاش حرام.

- النجاح في الحياة ما يعرفش حلال وحرام.

- طيب والنجاح في العالم الآخر يعني بعد البعث؟

- داشيء غير موجود إلا في خيال المتدينين. فتركيب الإنسان البيولوجي زي الحيوان تمام، فالقرد كمان له عقل مثل الإنسان ولكنه أضعف من عقله، فالاختلاف إذن في الكم وليس في النوع؛

t.me/qurssan

فما دام النوع واحد يبقى المصير واحد، فبمجرد ما تقف حركة القلب في الإنسان أو الحيوان يتحرم من الحياة ويصبح جماد والجماد لا يمكن يعيش.

- عمر الحرام ما نفع صاحبه يا ابني. القرش الحرام يضيع به حلال. والناس اللي بتقول عليهم دول يمكن يرتفعوا في وقت من الأوقات ولكن دايما بتكون آخرتهم زفت وقطران لأنه ما ينفعش الواحد إلا شرفه.

- ما قلنا سيب الشرف دا في حاله لأنه مافيش حاجة اسمها شرف وإنما فيه حاجة اسمها النجاح والوصول.

- يعني يبقوا وصوليين والغاية تبرر الواسطة.

- عليك نور! آديك بديت تفهم.

- يا شوم ما فهمت يا سيدي. يعني عاوزني أسيب الأخلاق والشرف والدين وأتبع زيك الشيطان ؟!

- ما انت آديك شايف إن الله واقف جامد في أحكامه بينما الشيطان بيتطور ويتجدد و كل يوم يطلع لعبة جديدة يستهوي بها الناس. زمن معجزات الأديان انتهى من قرون بينما العلم بيطلع كل يوم معجزات.

- الناس الملعونين أتباع الشيطان مصيرهم في جهنم!

- سيبك من كلام زمان دا اللي ما ينفعش، واعرف ياعم خليل إنك عايش في وسط وحوش، في وسط غيلان، يا تاكلهم يا ياكلوك. كل يوم لما تطلع من بيتك لازم تعتبر نفسك يا معتدي يا ضحية، يا سارق يا مسروق. كل واحد قدامك عاوز يضحك على أخوه وإن طال عينه يأخذها. علشان كدا لازم تربي أولادك على إنهم يقدروا ينجحوا في الجو دا ويقدروا يضحكوا على الناس قبل ما تضحك عليهم، مش تطلعهم زيك كدا خايبين.

- والحمد لله على ذلك يا سيدي.

t.me/qurssan

- بتحمده على إيه؟ على إنه سايبك جعان.

- جعان، لكن نفسي شبعانة ومطمئنة وضميري مستريح وما في لحد عندي حاجة.

- أهو أنا مش عاوز أسيبك جعان لأني مبسوط منك وقلبي عليك، فعاوز أنضف لك مخك من أنسجة عنكبوت الأفكار القديمة اللي معشعشة فيه. لازم تعرف إن الناس في الدنيا دي نوعين: المضحوك عليهم واللي بيضحكوا عليهم، زي ما في عالم الحيوان فيه الآكل والمأكول، والجعانين اللي زيك هم المضحوك عليهم والمأكولين. دا قانون الحياة الطبيعي اللي تلاقيه النهاردا مطبق في كل الميادين: في التجارة والصناعة والسياسة والفلسفة وحتى في الحب والزواج وعلم الأخلاق، ومهما قاوم الإنسان فهو خاضع لنظام بيئته.

- لحد دلوقت قدرت أقاوم وأعيش بشرفي.

- حتى وانت مأجر لي بيتك كدا يعني .. زي ما انت عارف.

- دي غمة وتزول وأرجع لشرفي تاني.

- طيب انت رجل كبير ما تهم، فهمنا، لكن أولادك لازم تفكر فيهم. تقدر تقول لي بالظبط عامل فيهم إيه؟

- حاجة بسيطة قوي. الولد في الجامعة في كلية الحقوق حيتخرج إن شاء الله السنة الجاية، أما البنت فبتحضر للتوجيهية.

- الولد ماشي في طريقه ما نقدرش نعمل له حاجة على الأقل دلوقت، لكن البنت ناوي تودبها فين بعد التوجيهية.

- ولا مطرح. أنا مش من اللي يودوا بناتهم الجامعة يا عم. تقعد في البيت تستنى نصيبها.

- إيه الكلام الفارغ دا. أنا معاك حقيقي في مسألة الجامعة لأنها ما توكلش عيش النهاردا، لكن حكاية إنك تقعدها في البيت دي

t.me/qurssan

حاجة ما يقولهاش عاقل. اعرف يا أفندي إن بنتك بالشكل دا عمرها ما حتتجوز. مين يتجوز بنت رجل فقير زيك وكمان محبوسة في البيت بعيدة عن الشبان.

- يا سيدي كل فولة ولها كيال.

- الكلام دا كان زمان وجبر. النهاردا الجواز بقى تجارة يا عزيزي. إذا كان التاجر بيعرض أحسن بضاعة في فترينة دكانه، تقوم إنت ما تعرضش بنتك اللي هي أغلا من كل بضاعة قدام الناس.

- الناس اللي زيي لسه كتير على وش الأرض ما اندثروش والحمد لله.

- إنت ازاي ترضى إنك تكون مقصرفي التفكير في مستقبل بنتك بالشكل دا؟ بنتك دي جوهرة بل منجم دهب لو عرفت تشغله.

- إزاي بقى؟ غرضك تكون بلغت بك الوقاحة إنك تقترح علي إني أطلعها لك في شقتك؟

- لا لا، لا سمح الله، المسألة ما وصلتش للدرجة دي. قصدي أقول إن بنت حلوة جذابة زي بنتك يمكن يكون لها مستقبل عظيم في السينما.

غريبة! كيف تمكن هذا الشيطان من فحص بنتي حتى رأى فيها هذه الصفات اللي بيقول إنها تؤهلها لأن تكون نجمة سينما؟ ربما لا يكون الأمر غريب من مثل هذا الرجل المتخصص في النساء كتخصص الجواهرجي في الجواهر. ألم يفحص في الشهر الماضي بعينه الثاقبة، البنت نعيمة اللي عندي بمجرد أن قدمت له القهوة وأعطاني عنها نصائح؟

ليس بالمستغرب إذن أن يجري نفس الفحص على بنتي بمنظاره الشيطاني. حبيت أعرف ألاعيبه ومبلغ سفالته فكظمت غيظي وقلت له: - وانت منين تعرف بنتي علشان تقدر تحكم باستعدادها للسينما؟

- ما تنساش يا خليل أفندي إننا عايشين فى بيت واحد وإنى

t.me/qurssan

مش حاطط عيني في جيوبي.

- يا غرباوي بك أرجوك إنك تتأكد للمرة الأخيرة من إني رجل محافظ يستحيل يرضى يشغل بنته ممثلة أو مغنية أو رقاصة أو أي شيء من القبيل دا.

- دي أنانية يؤسف لها. تذكر إنك بتمكن بنتك من إنها تبقى نجمة شهيرة وتصبح غنية قوي وتنتشلك من الفقر اللي انت فيه.

- يا أخي هو انا اشتكيت لك من الفقر.

- أصل فيه ناس مخلوقين كدا وش فقر زي ما فيه ناس وش نكد.

- أنا راضي وهو راضي وانت مالك يا قاضي.

- أنا بس صعبان علي إنك بعقلك الضيق دا حتجني على بنتك وعلى نفسك.

- بنتي بكرة حتتجوز زي كل البنات وحتكون إن شاء الله سعيدة.

- يا خليل أفندي حط في عقلك كويس إن بنتك عمرها ما حتجوز.

- ليه بس؟ هو انت دخلت في علم ربنا؟

- المسألة ظاهرة. فتح عنيك وبص للناس حواليك، تلاقي المعيشة غالية والشاب بيكون إيراده محدود في أول حياته وعارف إنه لما يتزوج حيحرم نفسه من نص إيراده.
فلذلك ما بيتجوز إلا مع زميلة بتشتغل أو مع واحدة صاحبة إيراد بيساعدوه على المعيشة. وأحيانا يتفق شاب على الجواز لكن لا يتم جوازهم لأن أهل العريس أو العروسة يبوظوه لاختلاف مراكزهم الاجتماعية أو لاختلافهم على المهر أو الشبكة أو الجهاز. والنتيجة إن اللي زي بنتك بتوجهها الظروف الاجتماعية للجواز الغير شرعي. سميه الزواج العرفي أو الطبيعي أوزي ما

t.me/qurssan

- طيب ودا برضه يبقى اسمه زواج؟

- طبعا زواج. هو مش الزواج عقد، الرك فيه على رضا الطرفين.

- أنا لا أفهم الزواج إلا على يد المأذون.

- بكرة كل الكلام دا حيزول، مش حيبقى فيه لا مهر ولا شبكة ولا جهاز ولا حتى جواز ومأذون بل ولا حتى أديان، فكما أن الطفل عندما يصبح شاب ناضج يرفع من مكتبته كتب الأطفال والحكايات الخرافية، كذلك الإنسانية كلما تقدمت بها المدنية كلما أخرجت من مخها عقائد ما وراء الطبيعة.

- يعني حسب كلامك دا تعيش الرجالة والستات مع بعض كدا بدون أي رباط شرعي زي القطط والكلاب ما بينطوا على بعض في الخلا.

- طيب وماله، على الأقل القطط والكلاب عندهم حيا لما بيحبوا يتزاوجوا ما بيعزموا بعض، أما احنا علشان راجل وست حيناموا مع بعض نبعت كروت دعوة ونعمل عزايم وأفراح ونطبل ونزمر. داشيء يكسف.

- يا حضرة الفيلسوف المخرف دول بيعزموا الناس علشان يكونوا شهود على إنهم أصبحوا زوج وزوجة أمام الله والناس، ويفرحوا ويفرحوا الناس بهم.

- الله إيش دخله في كداكمان. ربنا قال تناكحوا وبس، يعني أعطى لنا الإذن في الزواج، فمش حيقعد بعد كدا يعمل مأذون ويقيد اسم كل واحد يتجوز.

- والله ياعم أروح لك من هنا تيجي لي من هناك، فمافيش فايدة في الكلام معاك.

- طيب قول لي، تفتكر إن الدين ضد الحاجات اللي با قول لك عنها دي؟ مثلا إنت يمكن متضايق إني باستعمل الشقة اللي مأجرها منك بيت سري؟

t.me/qurssan

كانت هذه أول مرة يستعمل في كلامه معي كلمة ((بيت سري)) بصراحة هكذا مما يدل على أننا أخذنا على بعض، وربما صار يعتبرني شريك له في الصنعة بدون تكليف.

طبعا ألسنا أولاد كار واحد؟ كان مالي يده مني لأن النقود اللي أعطاها لي كانت لم تبرد بعد في جيبي. يا لعاري! أجبته قائلا: - طبعا ودي عاوزة كلام.

- ليه بقى؟ لأنها حاجة مخالفة للدين؟

- ودي فيها شك؟

- أبدا يا سيدي. هو دينك مش وعد الصالحين بالجنة وقال إن فيها حور وولدان؟

- أيوه.

- طيب خلاص يعني الجنة كمان فيها بيوت سرية بس رسمي على المفتوح.

- بقى اسمع، أنا لا أسمح لك إنك تكلمني كلام كفر زي دا! ولا تنتظر مني إني أرد عليك لأنه ليس بعد الكفر ذنب!

هنا سمعنا صوت جرس باب الشارع، فقام غرباوي منتفضا قائلا:

- لما أسيبك بقى وأروح أشوف مين اللي جاي لي. فكر في الكلام اللي قلته لك. خليتك بالعافية.

وخرج مسرعا نحو باب الشارع. الحمد لله. تخلصت من سماع محاضرة فيلسوف الشيطان ومحامي الزنادقة والشيوعيين. لكن لماذا يجتهد الرجل كلما زارني أن يلقي على مسامعي محاضرة في الفساد والانحلال الخلقي؟ الظاهر إن الرجل يريد أن يستجلبني إلى صفه وقد رآني صلب العود فأخذ يحطم استقامتي وشرفي بأن يدكها المرة بعد المرة بقنابل فلسفته المادية. ألم يقل لي قبل خروجه ((فكر في الكلام اللي قلته لك))؟ لا فائدة من ذلك يا سيدي، فكلامك بالنسبة لي هواء لا يترك في

t.me/qurssan

نفسي أثر. لكن ما هدفه من هذا الكلام وهذا الهجوم المستمر؟ لعل الرجل يطمع في أن يشركني معه في أعماله الدنسة، فأخذ يعمل على زعزعة إيماني والقضاء على مبادئي الشريفة. ألم يقترح علي أن أجعل من بنتي ممثلة سينما وربما يدور في خلده أن أجعل ابني شرموط (جيجولو)، وأن يستخدم زوجتي في شقته كسييرة، محتفظا لحماتي بوظيفة مديرة التشريفات يعني المختصة باستقبال الزبائن والاتفاق معهم. لماذا يريد الرجل أن يجرنا معه في هاوية الفحش والفجور؟ أتراه في حاجة لأعوان أم أنه غاوي نشر أفكاره الهدامة؟

كيف تمالكت نفسي وصبرت على سماع اقواله الإباحية؟ طبعا ضبطت نفسي لأني كنت لا أزال أشعر بنقوده تملأ فراغ جيبي، وأن هذه النقود النجسة هي اللي ستنقذ حياة زوجتي الطاهرة. ما دام هذا الرجل يلعب بأوراق البنكنوت وأنا وعائلتي تتمرغ في الفقر والحرمان فلا بد من أن أحني رأسي أمامه. لكن هل سأظل أسير له مدى الحياة؟ كلا ثم كلا! الموت أحب إلي من أن أبقى تحت رحمة هذا المخلوق الحقير، لا بد من أن ربنا يفرجها بشكل أو بآخر لأني لا أستطيع أن أستمر في علاقتي مع هذا الرجل وإلا خشيت على نفسي من غوايته. ألا يقول الناس أنه لا أشد أثر على النفس من ((الدوي على الودان))؟ حقيقة إني لا أزال أقاوم تيار الرذيلة المنطلق من فمه، ولكني أشعر في دخيلة نفسي أني أقل ثورة عليه مما كنت من قبل. هل يرجع ذلك لأني اعتدت سماع أقواله الإباحية فأصبحت لا تصدمني بالقدر اللي كانت بتصدمني به عند أول سماعي لها؟ لكن الرجل سيكرر بلا شك حملاته على معاقل فضيلتي، فهل ستصمد حتى النهاية أم أن العادة، على حد قوله، قوية جبارة تستطيع أن تفتح الباب أمام المتردد فيتشجع على الدخول؟ إن رأسي في دوامة فلا أستطيع أن أتبين مستقري من هذه الأمور تماما. فهل أنا حقيقة لا أزال على حافة الهاوية كما أتصور أم أن رجلي قد انزلقت ووقعت فيها دون أن أدري. اللهم هبني من لدنك قوة لمقاومة الإغراء، واجعلني أتمسك بأهداب الفضيلة لآخر أيامي. أتراني سأضطر - أو ربما أرضى عن طيبة خاطر - لأن آخذ من هذا الشيطان

t.me/qurssan

أترى سيستمر الحال مدة التلات شهور المقبلة مستور كما كان مـدة التـلات شـهور الماضـية؟ ألا يمكـن أن تشـتكي الجـيران ويتداخل البوليس وتصبح فضيحتي بجلاجل؟ لقد حكمت علي الأقدار أن أقضي تلات شهور أخرى أكون فيها كأني مربوط على برميل بارود وقد وضعت عليه شمعة والعة. اللهم سترك ورحمتك فإني أسألك حسن الختام.

وهنا سمعت أمواج صوت المؤذن وهي تخترق ألواح زجاج الشباك لتنفذ لسمعي، فكانت برد وسلام على قلبي، هدأت أعصابي. كان هذا الأذان ترجمة موسيقية للكائنات في هذه اللحظة، تعبر بتوقيعها الرزين عن هدوء المغرب، وتدعو نفوس المؤمنين للاطمئنان، وتبشر بجلال الليل وهدوءه وجمال صنعة الخالق.

t.me/qurssan

إلى هنا انتهت تلك المغامرات اللي صادفتني في السنة الأخيرة ودونتها ترويحا عن نفسي، فهل أكف بعد الآن عن كتابتها؟ لا. سأستمر فيها لأنها روحت عن نفسي وأكسبتني قوة روحية وثقة في نفسي، كما نبهتني إلى مكامن الخطر المتربص بي، فضلا عن أني تعودت على تدوينها ووجدت فيها خير صاحب أفضفض له عن نفسي وأستودعه سري فيخفف عني حمل البلوى تارة ويزيدني عذابا تارة أخرى، لأني اكتشفت أثناء كتابتي لها بأن الكتابة تركز الإحساس في الكاتب أي أنها تجعله يشعر بالسرور أو الرضا أو الألم أكثر مما يشعر بهم من مجرد استعادة الذكريات. الكتابة تجسم الذكرى فتحيي الماضي، لذلك كنت أشعر أحيانا بأن وخز ضميري كان يزداد شدة أثناء كتابتي هذه الصفحات. ربما كان هذا عذاب جديد فرضته علي نفسي، ولكنه أمر مفيد لا بد منه. فلاشر إذن في كتابتها، ولأدون فيها ما ستكشف لي عنه الأقدار يوما بيوم أو كل بضعة أيام.

إلى هنا أعتقد أني كنت أقاوم الإغراء غير راضي عن نفسي، بل في حرب مستمرة مع وخز ضميري، محاولا جهدي التزام السير في طريق الشرف اللي كان ممتد في وسط صحاري الفحش تحيط به الأشواك من جانبيه. لما أقول إني كنت أحاول جهدي التزام السير في طريق الشرف، أعتبر هذا تساهلا مني لأني كنت في الحقيقة رجل شريف نسبيا، أي أني لم أكن فاعل أصلي بل ولا شريك، ولكن مستفيد من المال الحرام تحت ضغط الظروف المعيشية أوقعته المقادير في يد رجل يعتبر أخطبوط الشر، كل ذراع من أذرعته العديدة ينطوي على رذيلة خاصة ومتى لف أذرعته على ضحية كان من الصعب عليها أن تتخلص منه.

إلا أني كنت مطمئن إلى نفسي لأني كنت لا أزال أشعر بوخز ضميري مما يدل على أنه كان لم يزل لي ضمير يحس ويقاوم. كما يقول ديكارت: ((أنا أفكر إذن أنا موجود))، يمكني أنا أيضا أن أقول: ((أنا أقاوم إذن أنا شريف)).

t.me/qurssan

لكن يجب أن لا أغالط نفسي أو أخفي بعض الحقيقة وأنا أستودع هذه المذكرات كل ما يجيش في نفسي دون زيادة ولا نقصان. لذلك يجب أن أقر بأن ضميري أصبح أقل حساسية عن قبل، لأني لو كنت أشعر بوخز ضميري من قبل كوخز الخناجر أو المسامير فإني أشعر الآن بوخزه كوخز الإبر.

اللهم قوني واجعل ضميري دائما يقظان ولا تجعلني أشعر بهوان نفسي لأنه:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح في ميت إيلام

بعد يوم من زيارة غرباوي الأخيرة اللي دفع لي فيها قيمة إيجار تلات شهور، عملنا عملية زوجتي في مستشفى خصوصي خرجت منه بعد أسبوع، طمني الجراح بقوله إن العملية جاءت في الوقت المناسب قبل أن يستشري المرض في جسمها، وإن هناك كبير الأمل في أن لا يعود. لكن مصاريف المستشفى والعلاج كانت كثيرة وغالية: أدوية، إبر، أجر الغرفة، أجر غرفة العمليات، أجر طبيب البنج، وأخيرا الجراح اللي أجرى العملية. استهلكت هذه المصاريف كل ما أخذته من غرباوي تقريبا، ولكن الحمد لله اللي جعل العواقب سليمة.

بعد رجوع زوجتي لمنزلنا ببضعة أيام، دخلت علي حماتي في ساعة عصرية تعلنني بقدوم غرباوي. طب قلبي وتخوفت من هذه الزيارة اللي لا بد من أن وراها شيء. كان لا بد من مقابلة الرجل فخرجت حماتي ثم أدخلته معها.

بعد أن تبادلنا التحيات المعتادة استأذنت حماتي لتذهب لتعمل لنا قهوة لأن الشغالة نعيمة كانت متغيبة في السوق.

بمجرد ما بقينا وحدنا أردت أن أضيق الخناق على الرجل فلا أعطيه فرصة للرغي والتوسع في الكلام لبث سموم أفكاره كما كان شأنه في زياراته السابقة، فقلت له:

- إن شاء الله خير يا غرباوي بك؟

t.me/qurssan

- كل خير إن شاء الله. أنا جاي قاصدك في خدمة بسيطة تأديها لي الليلة.

- بس على الله تكون حقيقي خير ومافيها شر.

- يا حبيبي لو تعمقنا في نظر الأشياء ما نجد خير وشر وإنما دي أسماء نشأت حسب المجتمعات وهي وجهات نظر نسبية، ففي الدنيا أفعال كثيرة طبيعية زي الألوان الطبيعية فتلاقي ناس يصفوا بعض الأفعال دي بالخير وناس تانيين يصفوها بالشر لاختلاف وجهة نظرهم، زي ماسموا لون أبيض وسموا لون تاني أسود ولون ثالث أصفر وهكذا، لكن بين الأفعال اللي سموها خير وشر ...

- بقى اسمع، أنا مش عاوز منك كلام سفسطة فارغة زي المرة اللي كانت. من فضلك تتكلم في الموضوع اللي جيت علشانه.

- وهو كذلك يا عم خليل. المسألة في غاية البساطة. الليلة عندي ضيوف كتير بحيث إن كل الأود عندي مشغولة.

- طيب وعاوز إيه؟ جاي علشان تستلف لك أودة عندي فتفتح لك فرع في شقتي؟

- لا سمح الله يا عم! أنا ما أتجرأ عليك بالدرجة دي. الموضوع إن فيه بعض الضيوف حيروحوا بدري يعني زي الساعة أحد عشر.

- داهية لا ترجعهم.

- لا يا عم خليل! ما فيش لزوم للقباحة، دول ناس خير هم على وما تنساش إنهم بيوكلونا عيش.

حقيقة كيف نسيت أن النقود اللي أخذتها منه قبل بضعة أيام مصدرها هؤلاء الضيوف اللي بالعنهم! يا لنكران الجميل! كيف أسمح لنفسي أن ألعن القوم اللي بيوكلوني عيش؟ ألم أنقذ زوجتي وأملأ بطني طول هذه الأيام الأخيرة من نقودهم النجسة؟ كيف أسمح لنفسي إذن أن أعض اليد اللي أطعمتني؟ لم يسعنى إلا أن أقول له:

t.me/qurssan

- لا مؤاخذة، أصل أحيانا بانسى نفسي.

- معلهش. الموضوع إني كنت وعدت شخص محترم إنه يزورني الساعة عشرة وما قدرت أتصل به تلفونيا علشان أخليه يتأخر عن ميعاده بساعة، فكل اللي عاوزه منك هو إنك تستضيفه عندك ساعة زمن بس.

- وانا حاعرف أقعد ساعة أدردش مع شاب من الشبان الطايشين المستهترين بتوع اليومين دول؟

- لا بالعكس، دارجل كبير يطلع من دورك ومثقف ومحترم كمان.

- طيب والرجل الاختيار اللي زي حالاتي واللي كمان محترم يبقى شغله إيه في بيتك دا في ساعة زي دي؟

- أصل فيه ناس يبقى عمرهم متقدم ولكنهم لسه بيشعروا كأنهم شباب.

- الله يصلح حالهم. بس قل لي بصراحة: جايب معاه ست؟

هنا دخلت حماتي حاملة صينية القهوة وقدمت لكل واحد منا فنجال ثم جلست على كرسي. غربا وي استمر في حديثه قائلا:

- لا من الجهة دي اطمئن. الراجل جاي لوحده خفيف ظريف. ما عليك إلا تقدم له فنجال قهوة وسيجارة وحادفع لك تمنهم جنيه يا عم. ها مبسوط؟

قبل ما أرد عليه كان أخرج من جيبه جنيه وضعه أمامي على طرابيزة السجاير، وكانت حماتي المسحوبة من لسانها تولت الإجابة عليه، فقالت:

- وماله يا خويا يتفضل. أنا أعمل له فنجال قهوة مظبوط على كيفك.

لم أرى محظور في مقابلة عجوز بيقول عنه إنه محترم في نظير أن أتقاضى عن ذلك أجر قدره جنيه كأنه أتعاب طبيب أو محامي

t.me/qurssan

عن مقابلة أحد زباينه.

سكت وقام غرباوي للا نصراف وهو يقول:

- متشكر جدايا عم خليل، أنا مش حانسى جميلك دا، ولا جميلك إنتي كمان ياست الحاجة.

وخرج الرجل وأنا أشيعه في سري باللعنات، والتفت إلى حماتي أعاتبها قائلا:

- وانتي إيش حشرك بين رجلين بيتكلموا مع بعض؟

- أنا حبيت أساعدك لاحسن عارفاك حنبلي قوي ويمكن تطير الجنيه من إيدك وعيالك أولى به.

- طيب تاني مرة ما تتحشريش في شغلي.

- وهو لولايا كنت عرفت تمشي بيتك دا؟ اسمع بقى دارزق وجالنا احنا الاتنين سوا. فيالله لايمني على حق القهوة.

- اتفضلي يا ستي.

أعطيتها بال، ولا أستبعد أن تكون أخذت شيء من غرباوي قبل إدخاله عندي لأنهم لا شك كانوا متواطئين معا على التأثير علي. بعد قليل قامت حماتي تنظف الغرفة وترتبها استعدادا لاستقبال الضيف العجوز المحترم. لاشك في أن ذلك الزائر كان صيد سمين حتى إن غرباوي كان مهتم به كل هذا الاهتمام.

بقيت في انتظار الساعة العاشرة وأنا أضرب أخماس في أسداس .على العموم كان ضميري مستريح لأني لا أشترك مع غرباوي في عمله القذر، وإنما كانت كل مهمتي قاصرة على قضاء ساعة في مجالسة رجل من سني دون أي تداخل مني في أعماله. إذا كنت على علم بما يجري في الدور اللي فوق رأسي من فحش وفجور فأظن أن أقل ما يمكنني أن أؤاخذ عليه نفسي هو قضاء ساعة بريئة في مجالسة أحد الزوار.

لا شك في أن رجل في مثل سنه يكون صاحب عايلة، ربما كان

t.me/qurssan

جد له أحفاد كثيرة ومع ذلك لا يتورع عن التردد على مثل هذه البيوت السرية. أظن أن مثل هذا الرجل محت الشيخوخة كل أثر للشهوة في جسمه، ولكن ذكراها كانت لا تزال مطبوعة في ذاكرته، فيرسم له خياله مختلف المتع والشهوات اللي مرت به فيظنها حقائق دائمة يريد أن يعيشها من جديد.

ها أنا سأقضي ساعة مع رجل من هذا الصنف خلع عن وجهه برقع الحياء.

t.me/qurssan

أرهفت السمع لجرس الباب عندما اقتربت الساعة من العاشرة. الساعة العاشرة وخمسة رن صوت الجرس ضعيفا قصيرا كأنه صادر من يد شخص خائف أو مكسوف. أسرعت بنفسي إلى الباب أفتحه. وجدت أمامي رجل عجوز في غاية الأناقة. رغم الظلام وعدم برودة الجو، كان لابس نظارة سودا ومتلفع بكوفية تغطي النصف الأسفل من وجهه مما يدل على أنه كان يجتهد في التخفي. بمجرد ما فتحت الباب انفلت إلى الداخل بسرعة الفار اللي يحتمي في جحر عندما يداهمه قط. خلع نظارته السودا ورفع كوفيته عن وجهه ثم حملق في وجهي وقال: - أنا الظاهر ما اعرفش حضرتك.

- ولا أنا.

- لو كانت دي أول مرة باجي فيها هنا كنت افتكرت إني غلطت في البيت.

- يعني دي مش أول مرة بتشرف فيها هنا سعادتك؟

- هو انا أقدر أستغنى عن زيارة غرباوي بك؟

- اتفضل من هنا.

وقدته إلى مسكني في الغرفة اللي كنا أعددناها له أنا وحماتي. قال الزاير: - أمال غرباوي بك فين؟

- جاله مشوار مهم مستعجل اضطره للخروج، وكلفني أقول لحضرتك إنه جاي حالا وأقعد معاك لحد ما ييجي.

- يعني بسلامته حيخليني النهاردا أعمل انتيشمبر.

حفظت كلمة ((أنتيشمبر)) هذه في مخي ولم أرد أن أسأله عنها حتى لا أظهر له جهلي باللغات الأجنبية، ولكني سألت بعد ذلك في القهوة صديق ممن يعرفون اللغات عن معناها، فقال لي إنه بالفرنساوي هو ((غرفة الانتظار))(*) الآن كانت الفرصة سانحة ا

t.me/qurssan

لأتأمل هيئة هذا الخباص العجوز.

كان الرجل يشرف على السبعين، تدل سيماه على أنه كان رجل جميل في زمانه، أما الآن فإن وجهه الدابل كان يشبه سطح طبق المهلبية أو الأرز بلبن لما يبات ويصبح مكرمش. من تأثير الصبغات كان شعره يشبه ليف النخل لونا وشكلا. أما من جهة الملبس فكان في أناقة الغني ابن الثلاثين، لابس بدلة بني متمشي لونها مع لون شعره المصبوغ، وكرافتة خضرا على بني لا بد وأنها كانت لائقة على لون البدلة في اصطلاح من يفهموا في الملبس، لأني لا أفهم في الشياكة مطلقا، فرجل غالبان مثلي تكاد لا تتغير ألوان بدله وكرافتاته الداكنة طول حياته. رغم سنه كان الزاير معتدل القامة تنعكس عصبيته في حركاته السريعة المستمرة، يعني أنه كان غير قاعد على بعضه.

جلسنا نتكلم في تفاهات الحياة اليومية لنعتاد على بعض قليلا، إلى أن واربت حماتي باب الغرفة ففهمت وذهبت فتلقيت منها من وراء الباب صينية القهوة ووضعتها على طرابيزة، وأخذت منها فنجال قدمته للضيف المجهول فلم يمد يده لأخذه وإنما طلب مني أن أتركه على طرابيزة السيجارة. فقلت له: - ليه؟ هو حضرتك ما بتشربش قهوة؟

- لا ازاي؟ أشرب قوي، إنما في بيت زي دا الواحد لا يشرب القهوة سادة وإنما يشربها محوجة.

- دي مش سادة دي سكر مظبوط.

- أنا عارف، إنما قصدي يعني ما تكون قهوة عادة، وإنما لازم الواحد يحوجها لأن الواحد لما بييجي في بيت زي بيتكم دا، يعني زي ما انت عارف، بيكون محتاج لشوية منبهات ومقويات. مش كدا ولا إيه.

وابتسم من طقم أسنانه العيرة، وغمز لي بعينه، وطلع من جيبه علبة معدنية صغيرة ربما كانت من الفضة وأخرج منها فص غامق اللون وضعه في القهوة ثم أخذ يقلبه فيها بعود كبريت.

t.me/qurssan

يا لوقاحة هذا الخباص العجوز! هل قضي علي أن أتحمل وقاحته من أجل ذلك الجنيه الملعون؟ على أن سيل وقاحته لم ينضب إذ قال بعد لحظة: - بس انا لا حظت هنا حاجة غريبة يا حضرة الأفندي.

- إيه هي؟

- فيه واحدة ست أعطتك القهوة من ورا الباب.

- طيب ودي غرابتها إيه؟

- بقى دي مش تبقى غريبة في بيتكم؟

- والله أنا مش شايف في الأمر غرابة.

- عجايب! بقى برضه في بيت زي دا الستات تستخبى من الرجالة، ودي برضه تيجي؟ لازم الست دي لسه ما استعدت ولا ما كملت زواقها. لكن أنا ما يهمني، بالعكس أنا أفضل الست قبل ما تتزوق علشان بتكون زي الخوخة اللي لسه نازلة من على شجرتها بنداها. أنا أحب الست كدا بعبلها. تعرف يا حضرة إن عندي ريحة عرق الستات ألذ من ريحة الكولونيا!

قلت في بالي ((الله يقرفك))، ولم أعلق له بشيء على ذوقه القذر.

استمر الرجل في كلامه الجارح، فقال:

- إنت لازم بتشتغل مع غرباوي بك ولا يمكن حتى تكون شريكه؟

- لأ. أنا صاحب البيت وهو مستأجره مني.

- يا سيدي ما تدقش. أهو صاحب بيت ولا مستأجر مافيش فرق. الغرض إنكم متفقين في صنعتكم وممشيين حالكم. ويا ترى إنت كمان ملحلح وفهلوي زيه كدا؟ لأن شغلتكم دي عاوزة دردحة وشطارة وحتى أقدر أقول كمان دبلوماسية.

دمي فار وشعرت كأن نار والعة في رأسي، والتمست له الأعذار بل وجدت أن الرجل كان على حق في حكمه على الأشياء حسب

t.me/qurssan

ظواهرها، وعلى رأي المثل ((اللي ما يعرفك يجهلك)).

لم أحاول أن أشرح له موقفي وأن أبرئ نفسي من تهمة مشاركة غرباوي في صناعته القذرة، لأن ذلك كان يستدعي شرح طويل فضلا عن أن جميع الظروف كانت ضدي، فلن يصدقني الرجل وسيظن أني بالعب عليه نمرة. وآخر الأمر ماذا يهمني ما يظنه عني رجل أجهله بقدر ما يجهلني؟ هنا سمعنا من الغرفة المجاورة صوت بكاء الطفل وحيد عبد الله، فرفع الزائر رأسه نحوي ورماني بنظرة استغراب قائلا: - إزاي دا؟! عند كم هنا كمان طفل صغير؟

- أيوه وفيها إيه؟

- يعني عايلتك هنا؟

- أيوه.

- إنت رجل عملي هايل.

- ليه بقى؟

- لأنك وحدت محل سكنك ومحل عملك في بيت واحد فتوفر الوقت والمال، زي الدكتور أو المحامي اللي يخلي مسكنه في عيادته أو في مكتبه. دي حاجة عظيمة!

لا وكمان دي لها ميزة تانية! إذا كان عندك أولاد كبار شوية يمكنهم يلقطوا الصنعة بسهولة من التمرين ودا مهم قوي بالنسبة لأصحاب الصنع.

اللهم طولك يا روح؟ إلى متى سيستمر هذا الرجال في رمي بهذه الإهانات اللي ولو أنها غير مقصودة وهو معذور فيها إلا أنها ليست لذلك أقل إيلاما لضميري الجريح. اعتبر منزلي الخاص بيت سري، واعتبرني معرص، واعتبر أولادي صبيان لي أعلمهم الصنعة، فماذا بقي بعد ذلك؟ لماذا أستحق كل هذه الإهانات من رجل مجهول أراه لأول مرة في حياتي؟ لأني أنا كنت السبب وأستحق ذلك وأكثر من ذلك، لأن من يعاشر رجل مثل غرباوي

t.me/qurssan

يستحق كل ما يجرى له، وعلى رأي المثل ((من جاور الحداد يتكوي بناره)) فما بالك وأنا لا أجاور غرباوي فقط وإنما أعيش معه تحت سقف واحد. وها أنا أؤدي له خدمة. طبعا لم يكن الزائر يعلم أن كلامه هذا كان كخناجر يغرزها في قلبي.

ابتسم وقال لي بصوت حنون:

- والله يا سيدنا الأفندي أنا حبيتك كدا لله في لله، لأنك رجل كبير موزون مش زي عيال النهاردا المهووسين. والداير القديم اللي زيي هو اللي يقدر أولاد الكار بتوع زمان. وغير كدا باين عليك إنك راجل صريح اللي في قلبك على لسانك ما عندك خبث ولا لؤم.

- في دي صحيح قلت الحق. كتر خيرك يا سيدنا البيه.

لكنه نظر فى ساعته وقال بعصبية ونرفزة:

- إيه دا؟! فات أكثر من نص ساعة وانا هنا. لا! دا غرباوي زودها قوي! دا زمان كانت إدارته منتظمة قوي زي الساعة، أما دلوقت أهو راخر باظ وبقى زي مصلحة السكة الحديد في تأخير القطارات. لا. أنا ما أقدر أستنى أكثر من كدا. لما ييجي قل له إن راشد بك جه ومشي زعلان.

- معلهش يا راشد بك علشان خاطري انتظر خمس دقائق كمان. زمانه جاي. حتى يمكن يكون جه وما عنده خبر. عن إذنك دقيقة لما أروح أشوف يمكن يكون جه.

- طيب يا سيدي. دا بس علشان خاطرك.

تركت الزائر وصعدت لغرباوي في شقته وأفهمته أن صبر راشد بك نفذ من الانتظار كما نفذ صبري من سماعه وأنه يريد الانصراف. قال لي غرباوي إنه رجل غني عبيط من السهل أن أضحك عليه بكلمتين حلوين. أما إذا شرب كاسين فيمكني أن آخذ منه كل ما في جيبه، وغاب دقيقة وأحضر زجاجة وسكي قدمها لي قائلا: - خذ، اجتهد إنك تسقيه وتجر منه قرشين. يا لله

t.me/qurssan

إنت وشطارتك.

والله عال! ما كان ينقصني إلا هذا لتكمل حلقات عاري. تركت إهانات راشد بك تحت لأتلقى فوق هذه اللطمة من غرباوي اللي لم يكتفي بكل ما عمله معي، حتى يريد الآن أن أجعل منزلي خمارة أسكر فيها الزائر وأضحك عليه لأبتز ما في جيبه من نقود كأني إحدى بنات الصالات. لم يبقى لي إلا أن أنحط لهذا الدرك. دفعت الزجاجة في وجهه وتركته ساخط فلحق بي وأفهمني أنه سيستدعي راشد بك بعد ربع ساعة.

عدت إلى راشد بك فوجدته يصفر لحن رقص أفرنجي وماسك الواحدة بيديه وهو يلف ويدور وينط في وسط الغرفة راقصا. لم يتوقف عن الرقص عند دخولي إلا بعد أن دار عدة لفات ونط عدة نطات، ثم قال وهو لا يزال مقطوع النفس: - ها لقيته؟ أصل أنا باتمرن على الرقص الجديد لأنه بقى حاجة صحب قوي. فين زمان كان الفوكس تروت والبلوز والتانجو هاديين، الواحد يقدر عليهم، أما دلوقت طلعوا لنا الشيمي والرومبا والسامبا وشوية رقص مجانين كدا كله تنطيط يقطع النفس.

- طيب وعليك من دا إيه؟ ما بلاش رقص في سنك دا يا بيه.

- إنت حتعمل لي زي الدكتور بتاعي اللي بيقول لي ما أرقص. إذا كان الواحد حيسمع كلام الحكما عمره ما هو عامل حاجة. إنت فاكر إن سني لا يسمح لي بالرقص؟ ليه؟ هو أنا يعني أطلع قد إيه؟ فكرك كدا أنا عمري كم؟

صعب علي هذا العجوز المتصابي المغرور اللي بيغالط نفسه في عمره. طبعا لو قلت له الحقيقة لثار وربما أمسك في خناقي. أردت أن لا أجرحه مع تفادي الكذب فلجأت للسخرية في قالب الهزار، فقلت له: - والله اللي يشوفك يا راشد بك يقول ابن عشرين سنة.

- لأ. كلام جد. سيبك من الهزار.

- دامش هزار. حقيقي من الصعب إن الواحد يقدر يحدد سنك.

t.me/qurssan

- لأنه ولو إنه بتظهر في وجهك بعض علامات العجز إلا إن منظرك العمومي بيخليك تبان شباب.

- سيب الأربعين واقف قبل الخمسين.

- يعني ما يصحش تعدي الخمسين؟

- طبعا. لأنه يصعب على الواحد إنه يقول إن سنه بعد الخمسين علشان ما يعترف على نفسه بالعجز، فأنا ما عديت الخمسة وأربعين، وما تبص لبعض علامات التعب والتكرميش اللي في وشي لأنها نتيجة السهر والإسراف في كل شيء، فأنا مافيش منكر في الدنيا ما ارتكبته: سهر، شرب خمر، نسوان، حشيش، أفيون، كل حاجة ما عدا بس الكوكايين لأني خفت منه. دالو اللي عملته كان عمله تور لكان انسخط وبقى خروف.

لم أطق الاستمرار في ضبط نفسي في مغالطة الرجل ومسايرته في غروره هذا، فأفلت من فمي قولي: - لكن سعادتك دلوقت أقرب تكون خروف من إنك تكون تور.

- يعنى إيه الكلام دا؟ طيب إنت تقدر ترقص قدي؟ تقدر تكمل دورين شيمي؟

- والله يا سيدنا البيه أنا عمري ما رقصت، وأظن إني دلوقت بعد ما عجزت ما أقدر أرقص ولا حتى خطوتين.

- أهو علشان كدا مش قادر تفهمني، لأن التفاهم بيني وبين رجل عجوز زيك يبقى صعب.

في هذه المرة أيضا لم أتمالك أعصابي وفلت مني عيار لساني، فقلت له: - أفتكر إن المسألة بالعكس، يعني إننا من سن واحد فكان يجب إننا نفهم بعض.

انحمق الرجل واحمر وجهه الباهت ونط واقفا من كرسيه قائلا:

t.me/qurssan

- بتقول إيه يا راجل انت؟ دانت تطلع قد أبويا.

- طيب معلهش حقك علي يا ابني.

- هو جرى إيه في غرباوي؟ (ونظر في ساعته) يا! دي الساعة جاية على أحد عشر. أنا مش ممكن أنتظر أكثر من كدا لأن جنتي فايرة، كلي قوة وحيوية. الأحسن إني أروح بيت تاني لأني لو انتظرت أكتر من كدا حيروح تأثير معجون الحياة اللي تعاطيته.

- هو سعادتك أخدت معجون الحياة؟

- طبعا يا والدي! علشان ولو إني لسه في عز شبابي إلا إن لما واحد مدقدق زيي يروح في بيت زي بيتكم دا لازم يتعاطى معجون مقوي.

الظاهر إن الرجل كان يعتقد بحسن نية في أنه كان لا يزال شاب لأنه ناداني بقوله ((يا والدي))، أما معجون الحياة هذا فإني حقيقة كنت سمعت عن أشياء من هذا القبيل ولكني لم أسأل عنها ولم أستعملها. تزوجت مرتين وأنجبت أربعة أطفال دون أن أتعاطى شيء من هذه المقويات. إلا أن الفضول وحب الاستطلاع دفعوني لأن أسأله: - ويعني معجون الحياة دا بينفع حقيقي؟

- إلا بينفع دي كمان! أمال انت فاكرني بالعب في البلد؟ اعرف يا والدي إني درست الموضوع دا دراسة تامة. نظريا وتجريبيا. ما في كتاب فاتني فيه، من ((رجوع الشيخ)) للكتب الفرنساوية الجديدة. دانا جمعت منهم وصفات كتبتها في تلات دفاتر يعني ميه وخمسين صحيفة. وإن كنت تعرف حاجة منها مفعولها أكيد، بصفتك من أهل الكار دا، دلني عليها أكتبها.

- والله أنا آسف إن دراستي في الفرع دا لم تمتد قد سعادتك.

- أنا أخيرا بس وجدت أكسير الحياة! تعرف أكسير الحياة دا إيه؟

دا اختراع أهم من القنبلة الذرية لأنه يخليك تشعر جوه جسدك بقنبلة ذرية.

t.me/qurssan

- أنا أهنيك على اكتشافك الهايل دا.

- فكرك دا كان أمر سهل؟ أبدا. دانا ما لقيته أخيرا إلا بعد ما فضلت أدور على راجل مغربي مدة تلات أشهر لحد ما عترت عليه أخيرا في عزبة عرب جنب المطرية وعرفت منه السر العظيم دا.

- وطبعا دفعت تمنه غالي.

- إيه يعني عشرة جنيه! طزا تيجي إيه جنب اختراع زي دا يعيد للإنسان شبابه.

- بس مش لسه من لحظة سعادتك قلت إنك شاب فلا تكون محتاج لحاجات زي دي؟

- ما قلت لك يا بويا الإسراف وفراغة العين.

- طيب مش أحسن لك برضه إنك تبطل الإسراف دا بقى علشان صحتك.

- أعمل إيه يا عزيزي في طبيعتي الوحشة! طبيعتي كدا. ما أقدر أعيش بدون ما ألاقي نفسي غرقان وسط فساتين وجونلات وسوتيانات وبرفان وخمور ونهود. دا الجو اللي لازم أعيش فيه، زي السمكة ما لازم تعيش في المية.

- بس ما تنساش يا سعادة البيه إن كل دا على حساب صحتك، فالصحة مثل رصيد ثابت للإنسان في البنك فواحد يستنفذ رصيده في شهر وواحد تاني في سنة وتالت في سنين.

- سيبك ولا يهمك ما حد واخد من الدنيا حاجة. فما دمنا خلقنا من طين تتردد فيه أنفاس ستنقطع في يوم ما لتعود للتراب فلماذا لا نستفيد بإطفاء عطشنا من الحياة قبل ما نرجع للتراب.

لولا أن بنية هذا الرجل من حديد لكان توفي منذ زمن طويل. ها هو يسرف في أيام حياته ويستنفذ رصيده من بنك الحياة بسرعة، ومع ذلك فهو لا يزال سليم على قيد الحياة. احترت في

t.me/qurssan

عقلية هذا الرجل المتعلم اللي استولى عليه الجنون السكسي فعماه عن كل ما عداه في الحياة. أردت أن أدرس حالته وظروفه وأحلل نفسيته لأفسر كيف انتهى به الأمر لهذا الحال السيئ، فسألته: - لكن أفتكر إن سعادتك لازم تكون متجوز ويمكن كمان لك أولاد.

- أوها! ما تفكرني! طبعا متزوج ولي أولاد وأولاد كمان.

- طيب والست بتاعتك دي مش إنسان ولها حقوق عليك ويجب إنك ترضيها.

- ما خلاص بقى! هي حقوقها الزوجية دي حتفضل لإمتى! إنت عاوزني أنام مع واحدة لها ابن دكتور والتاني مهندس؟ دي بقت ست محترمة الواحد يكش منها.

دلوقت خلاص راحت عليها.

- خلاص إيه؟ مش برضها زوجتك وعلشان ما هي أم أولادك لازم تزيد عندك معزة وإكرام.

- من الجهة دي ما أقول حاجة. في الحقيقة كان بيننا حب وعشرة طويلة مش ممكن الواحد ينساهم. لكن العلاقة الزوجية اللي كانت بيننا زمان دي، اتحولت دلوقت لعلاقة صداقة أو علاقة أخوية أو حتى زي ما تقول تشبه أكثر للعلاقة بين الابن وأمه.

- ليه؟ هي أكبر منك في السن كتير؟

- لا أبدا. دي أصغر مني بسبع سنين.

- أمال تبقى زي والدتك ازاي بقى؟

- علشان أنا فضلت شاب فأحس من جهتها بشعور كأنها أمي أو أختي.

- وهي راضية عن حالك دا؟

t.me/qurssan

- يـوه! أبـدا. دي فـي الأول كـانت بتغير علي لحـد مـا أجـرت جواسيس يمشوا ورايا، وظبطتني مرتين في بيوت زي بيتك دا وعملت فضايح لرب السما، وياما ضربتني وضربتها. بعد كدا يئست من الطريقة دي واجتهدت تراضيني لدرجة إنها بقت تروح الغورية بنفسها وتجيب لي من العطارين قراطيس مقوية تعجنهم بنفسها وتقدمهم لي.

- كتر خيرها. دي باين عليها ست طيبة قوي.

- لكن على مين؟ أصل أخوك لئيم، فكنت أتعاطى القراطيس اللي بتقدمهم لي ولما أشعر بمفعولهم كنت أتظاهر قدامها بأنها ما نفعت وأقول لها ((قراطيسك دي فالصو! العطار ضحك عليكي وأخد فلوساك))، وأروح جري على بره في بيت زي دا أتمتع فيه بمفعول القراطيس بتاعتها.

- اسمح لي أقول لسعادتك إنه ما كان لك حق في الغش دا. يعني يصبح برضه إن الست بتاعتك تتعب نفسها وتطبخ لك الطبخة بإيدها وانت تروح تاكلها مع غيرها؟ أفتكر دا مش عدل أبدا.

- يا شيخ انت كمان! ما تبقاش ممل. هي الحاجات دي فيها عدل ولا أصول؟ دا الفؤاد وما يريد. دي مسألة مزاج يا أفندي، ولا يعني كنت عاوزني علشان خاطر مراتي أسيب البنات الوظاويظ الحلوة اللي بيخلوا دمي يغلي زي الميه في الحلة؟

- بعد ما تبلع لك حق معجون مقوي.

- ولو. أهو برضه باتمتع معاهم.

- بعد ما تدفع لهم أجرتهم.

- برضه ولو. هو النتيجة مش واحدة؟

- أفتكر إنه فيه فرق بين إنه تكون علاقتك مع ست علشان شخصك إنت، وبين إنها تكون ماشية معاك علشان خاطر محفظتك.

t.me/qurssan

- واللي في محفظتي دا حاعمل به إيه؟ مش باشتري به حاجات؟ مش باشتري به أكل وشرب ولبس وحاجات؟ أهو بالجملة كمان أشتري به حب.

- من إمتى الحب يتشري بالفلوس؟

لكنه لم يرد علي، وإنما نظر في ساعته وهب واقفا كعفريت العلبة وقال: - لا. دازودها قوي! الساعة بقت أحد عشر إلا عشرة، مش ممكن أستنى أكثر من كدا. أنا الدور دا ماشي خلاص. ولا يعني غرباوي بتاعك فاكر إنه مافيش بيت غير بيته في البلد.

- طيب انتظر سعادتك خمس دقايق بس كمان.

- مش ممكن يا سيدي الأفندي خلاص. أنا واخد قبل ما آجي هنا عشر نقط من أكسير الحياة غير القهوة المحوجة اللي شربتها عندك، فبعدين كل دول يروحوا على مافيش. أنا لازم أروح بيت تاني.

ومشي لباب الغرفة وفتحه وخرج وأنا أمد وراه أرجوه البقاء وأقول له ((بس حلمك دقيقة واحدة يا بيه))، ولكنه كان محموق وماشي مسرع نحو باب الشارع لا يلوي على شيء. لكن بمجرد أن وصل قرب باب الشارع وجد نفسه وجها لوجه مع رجل وامرأة كان فتح لهم الباب سيد. وقف الجميع مسمرين في أماكنهم كأنما انقلبوا فجأة أصناما. بعد لحظة سمعت صوت راشد بك يجلجل عاليا: - والله عال يا ست هانم! بقى انتي اللي عاملة لي ست شريفة جاية هنا في بيت سري مع عشيقك؟ ومين هو كمان؟ يا ريته بني آدم إلا الكاتب الكحيان بتاعي.

واقترب راشد بك من الرجل الواقف أمامه وضربه كف رنان. لكن الرجل اللي كان شاب وسيم الطلعة جرى بخفة نحو الباب وفتحه بسرعة وانفلت للخارج بعد أن رزع الباب وراه.

بقي الزوجين منفردين وجها لوجه وعلى مقربة منهم أنا وسيد وغرباوي - اللي كان نزل ووقف على آخر السلم - وحماتي اللي كانت خرجت من شقتنا. كنا واقفين نشاهد الزوجين كأننا النظارة

t.me/qurssan

حول الرنج في حفلة مصارعة أو ملاكمة. وبدأت الجولة الأولى بأن سددت الزوجة ضربة يمين مباشرة لزوجها بقولها: - وماله الكاتب الكحيان؟ على الأقل شاب وجميل ونضيف مش زي البنت الشغالة الفلاحة الحولة القرعة المعفنة اللي ظبطتك معاها السنة اللي فاتت.

- أنا راجل، حاجة تانية.

- لا يا حبيبي، مافيش لا تانية ولا تالتة. النهاردا الست زي الراجل في كل حاجة.

- يصح برضه إنك تهيني شرفك وشرفي لما تيجي في بيت زي دا؟

- طيب وماله ما انت راخر فيه. قال على رأي المثل ((لا تعايرني ولا أعايرك دا الهم طايلني وطايلك)).

- انحطيتي لدرجة إنك تسمحي لنفسك إنك تخوني جوزك بعد عشرة العمر كله.

- جوزي دا كان زمان وجبر، أما النهاردا لا انت جوزي ولا حتى تحصل راجل، ولو تعاطيت كل القراطيس اللي في سوق العطارين.

في هذه الأثناء لاحظت أن غرباوي كان اقترب من حماتي وصار يتهامس معها، مما كانت نتيجته أن تقدمت حماتي من الزوجين المتعاركين وقالت: - جرى إيه بس يا أولادي. كفى الله الشر.

- هو فيه شر أكتر من كدا؟ إذا كان الست الهانم المحترمة اللي أولادها متجوزين ومخلفين جاية هنا في بيت سري.

- اللي موجود فيه زيي سعادة البيه المحترم اللي أولادي هم نفس أولاده.

- لكن يا بنتي الواحدة لازم برضه تبحبح لجوزها شوية. أصل زي ما انتي عارفة الرجالة عينهم زايغة ويحبوا الصرمحة.

t.me/qurssan

- رجالة إيه يا شوم الرجالة! دا الراجل دا خرف ولا يفكر إلا في الخبص والنسوان. تفتحي درج مكتبه عندنا في البيت تلاقيه مليان صور ستات ورجالة من المخلة بالآداب اللي بيمسكها البوليس. وبره البيت ما له صنعة إلا الدوارة في البيوت اللي زي دي علشان يوهم نفسه إنه لسه راجل.

- أصل واحدة قرشانة زيك ما تحركني.

- أنا قرشانة برضه يا شاب يا ابن امبارح؟ إيش حال إن ما كنتش أكبر مني بعشر سنين؟

رأت حماتي أن المعركة ستعود لأشد مما كانت بين الزوجين، فتداخلت ثانية بينهم لمحاولة أن تعقد صلح أو على الأقل هدنة بينهم، فقالت: - يا أولادي ما في لزوم للكلام دا اللي لا يودي ولا يجيب. عاوزين الحق؟ إنتم الاتنين غلطانين ومافيش لزوم للفضايح. أولادكم بس تقول إيه؟

مهما كان الأمر فأنتم ما تستغنوا عن بعض وبينكم عشرة طويلة وعيش وملح، فيا الله الخزوا الشيطان واصطلحوا وبوسوا راس بعض وروحوا سوا أصحاب كويسين وربنا أمر بالستر وخلاص.

لم يتحرك أحد من الزوجين، فراحت حماتي أخذت ذراع من كل واحد منهم ولفته على ذراع الثاني ودفعتهم برفق نحو باب الشارع، فساروا معها ممتثلين، وفتحت لهم الباب فخرجوا كأنهم عريس وعروسة خارجين لسفر في شهر العسل. بمجرد ما قفلت حماتي الباب وراهم أسرع إليها غرباوي يصافحها مهنئا وهو يقول: - برافوا عليكي يا تانت! أنا أهنيكي، دانت لو كنتي اشتغلتي في الحكومة كان زمانك بقيتي وزيرة خارجية أو على الأقل سفيرة. عقبت على كلامه قائلا: - وكانت طبعا اختارتك وكيل وزارتها!

- بتألس حضرتك؟ إنت رجل على نياتك ما انتاش عارف إن عندك حما تسوى تقلها دهب. دانا لو كان عندي حما زيها كنت بقيت على حسها مليونير.

t.me/qurssan

لا غرابة في قول الرجل لأن الطيور على أشكالها تقع. وطبيعي أن يمدح أستاذ زميل له متفوق في نفس الفرع المتخصصين فيه. في الحقيقة كانت سياسة حماتي تدعو للإعجاب. كيف استطاعت بدحلبتها أن تخرج هذين الزوجين وهم متشابكين الأذرع بكل بساطة كأنهم راجعين من فسحة عادية رغم ما اكتشفه كل منهم في حق صاحبه؟ لا شك أن ما قرب بينهم هو شعورهم المشترك بالذنب لأن رأس كل منهم كانت في الوحل.

مسكين راشد بك! خرج من المنزل دون أن يستفيد من تأثير ما تعاطاه من نقط أكسير الحياة والفصل اللي أذابه في فنجال القهوة، ربما كان من نصيب زوجته الليلة أن تستفيد أخيرا من هذه المنبهات بمناسبة عقد الصلح بينهم.

يا ترى أيهم أكثر سفالة وأحط أخلاقا؟ هل هو راشد بك اللي بيضيع وقته ما بين الفرجة على الصور الفاضحة وتعاطي المعاجين والقراطيس المنبهة والتردد على بيوت الدعارة دون أي اعتبار لزوجته وأولاده ومركزه وسنه. أم هي زوجته اللي ذهبت لبيت سري مع شاب جيجولو موظف عند زوجها، بعد أن تعدت الخمسين من عمرها؟ لئن كان راشد بك يصرف على شراميط فزوجته تصرف على شرموط وهي الكلمة اللي أعتبرها ترجمة كلمة ((جيجولو))، لماذا إذن نلوم العجوزات على الصرف على الجيجولوهات ولا نلوم الرجال على الصرف على المومسات ما دام الاثنين في البلا سوا.

على العموم ذنب راشد بك على جنبه لأنه هو اللي بدأ بالخيانة الزوجية وأعطى لزوجته القدوة السيئة، فلا عجب أن كالت له بنفس الكيل والبادي أظلم. في الواقع أنه لا يصيب عادة كل إنسان في الحياة إلا ما يستحقه، وصدق المثل القائل ((كما تدين تدان)).

(*) ليست هذه ترجمة دقيقة لأنها ترجمة.

والترجمة الصحيحة هي ((الحجرة اللي قبل حجرة المقابلة)) ولطول هذه الترجمة يحسن بنا أن نعرب هذه الكلمة فندخلها فى

t.me/qurssan

ما كدت أنتهي من عشاي حتى سمعت هيصة وزعيق في مدخل منزلي. كان صوت سيدة يقذف فمها بشتى أنواع الشتائم كأنها مدفع رشاش. خرجت مهرولا لأستطلع الخبر.

رأيت أمامي سيدة بدينة تجاوزت سن الشباب قليلا تتعارك مع سيد شغال غرباوي وهي تقول له: - مالي دعوى. إنت لازم تطلع لي جوزي حالا. إن ما جبته لي حاطلع أظبطه بنفسي في بيتكم الوسخ دا.

- يا ستي باقول لك جوزك مش هنا.

- مش هنا ازاي؟ وأنا مدورة وراه واحد بصاص وجالي دلوقت قال لي إنه دخل كره خانتكم دي ما بقى له نص ساعة.

لم أتمالك نفسي عن السكوت فتداخلت في نقاشهم قائلا: - طيب والست المحترمة اللي زيك شغلها إيه في كره خانة زي ما بتقولي.

- ما باقول أهو إني جاية أظبط جوزي يا صاحب الكره خانة يا عجوز.

- أنا .. مش صاحب الكره خانة.

- أمال تبقى يا مديرها يا وكيلها. فلازم تجيب لي صاحبها من تحت الأرض.

- وعاوزاه ليه؟

- أهو عاوزاه وبس.

- إن كنتي عاوزة تعرضي عليه خدماتك فأظن إن سنك فات على كدا.

كلمتي هذه أثرت فيها كأنها رصاصة انطلقت من مسدس وأصابتها في صدرها، لأن المرأة لا تتسامح مع من يطعنها في

t.me/qurssan

جمالها أو سنها.

صاحت السيدة:

- حضرتك بتألس كمان يا بارد يا عديم الأخلاق. إيش حال إن ما كنت باشمعرص.

كثيرا ما دعوني أثناء خدمتي بلقب ((باشكاتب))، وسمعتهم ينادون المهندس بلقب ((باشمهندس))، وها أنا الآن على آخر عمري أحوز على لقب ((باشمعرص)). يا للشرف بل يا للعار. لكن السيدة صرخت قائلة: - إنتم حتقبوا وتغطسوا وتطلعوا لي جوزي من تحت الأرض ولا أخلي ليلتكم سودا وأجيب لكم البوليس والنيابة وأطربق البيت على دماغكم.

الظاهر إن غرباوي كان يسترق السمع لكلامها من أعلى السلم لأنها عندما وصلت في كلامها لهذا الحد من التهديد نزل جاريا نحوها وقال لها: - فيه إيه يا ست هانم؟ إحنا في خدمتك.

ثم نظر لنا:

- ليه بس مزعلين الست؟

- حضرتك صاحب البيت دا؟

- أيوه.

- ونعم وأكرم. بقى شوف، إنت تقب وتغطس تجيب لي جوزي دلوقت.

- جوزك يبقى مين أولا يا ست هانم؟ لأننا نعرف شخصية كل الزباين اللي بييجو لنا لأن محلنا بيت راقي لا يقبل ناس من السكة.

- ماهو باين عليه ما دام له مدير ووكيل كأنه بنك. جوزي يا سيدى ((فلان)) وأنا متأكدة من وجوده عندكم في الساعة دي فلا تنكر.

t.me/qurssan

- الاسم دا ما ورد علي يا ست.

- باقول لك ما في فايدة من الإنكار لأني متأكدة تمام.

- طيب المسألة بسيطة. تعالي معايا وفتشي البيت. كمان مش معقول إن جوز واحدة ست شابة حلوة زيك كدا ييجي في محلات زي دي.

كان لهذا الملق تأثير السحر على هذه المرأة لأنها بدأت تهدا، بل وابتسمت لغرباوي وقالت له: - طيب يا الله وريني البيت.

- بكل سرور، بس فيه أودتين مشغولة أظن ما يصحش نزعج اللي فيهم ونعكر مزاجهم.

- طيب وإيه العمل علشان أتأكد كمان من اللي في الأودتين دول؟

- أنا حالفك البيت شق شق وبعد كدا حاقعدك في حتة مستخبية تراقبي منها البابين دول وتشوفي اللي حيخرجوا منها. وداعلشان خاطرك بس لأنه مخالف لواجب المحافظة على سر المهنة. اتفضلي ورايا.

وسار والسيدة وراه نحو السلم، ولكنه ابتعد عنها قليلا واختلى بسيد في ركن وهمس له في أذنه بكلام ثم رجع للسيدة وطلعوا معا السلام، وكان سيد قد سبقهم إليه جريا.

عدت لشقتي وأنا أضرب أخماس في أسداس. كنت أسائل نفسي: هل يا ترى غرباوي يكذب على هذه المرأة محاولا التمويه عليها وأنها ستكشف الأمر وتعمل فضيحة في منزلي وقد تبلغ البوليس وتجرجرني في تحقيق رسمي فتتلوث سمعتي على آخر الزمن، أم أن غرباوي كان صادق في أقواله؟

لم أفكر في النوم لما أنا فيه من قلق وخوف، فواربت باب شقتي وجلست خلفه أسترق السمع مراقبا باب الخروج انتظار الماسيكون. بعد بضعة دقائق رأيت رجل خرج من الباب مسرعا وكان يمشي على أطراف قدميه حتى لا يحدث صوت. بعده بأقل

t.me/qurssan

من نصف ساعة خرجت امرأة، ثم بعدها بساعة خرج زوج - أي رجل وامرأة - وفي عقبه رأيت غرباوي مع تلك السيدة نازلين السلم يتكلموا سويا بلطف وهدوء كأنهم صديقين قدام، وسمعت صوت غرباوي يقول: - الحمد لله آديكى اطمأنيتي بنفسك وشفتي بعنيكي إننا ما لنا علاقة بجوزك بالمرة.

بمجرد ما خرجت تلك السيدة وأغلق غرباوي وراها الباب قفزت من مكمني وجريت نحوه قائلا: - الست دي سيبت ركبي وكنت شايل هم الفضايح، لكن الحمد لله أهي المسألة انتهت على خير.

- الحمد لله ربنا سلم.

- يعني مرة في عمرك كنت مظلوم.

- أبدا ولا مظلوم ولا حاجة لكن أخوك قدها وقدود.

- إزاي بقى؟! قصدك تقول جوز الولية دي كان عندك؟!

- طبعا.

- يا ابن الأبالسة! وازاي عرفت تخبيه منها؟

- المسألة بسيطة. وصيت سيد قبل ما أطلع معاها إنه أثناء ما أنا بافرج الست دي على الأودتين الفاضيين يكون هو هرب جوزها من الاودة اللي فيها ونزله على تحت. أما الست اللي كانت معاه فجت لنا وسلمت على الست إياها وقعدوا يتكلموا شوية لحد ما قالت لها: ((والنبي يا أختي إنتي ظريفة قوي وقلبي حبك)). يعني تبقى الست دي فازت بحب الزوج والزوجة. وفهمت الست إياها إن الست دي ما جالها رفيقها اللي كانت منتظراه، وبعدها روحت. وبعد نص ساعة خرج الجوز اللي كانوا في الأودة التانية وشافتهم الست إياها واطمأنت أن جوزها مش فيهم وروحت مع السلامة.

- بس يا ابني أنا برضه خايف لأنه مش كل مرة تسلم الجرة وعلى رأي المثل ((مرة تصيب ومرة تخيب)). المرة دي جات سليمة لكن يصح إنه مرة تانية حد يعمل لنا فضايح. دا غير ما انا

t.me/qurssan

خايف لاحسن الجيران يكونوا حسوا بحاجة ويشتكونا.

- وهم لسه ما اشتكوا؟

- إزاي دا؟!

- اعرف يا عزيزي إن قبل تلات أيام بالظبط اتقدمت في حقك الشكوى الرابعة.

- يا خبر أسود! وازاي البوليس ما جلب لي خبر؟

- لأني أنا وراك ساندك.

- إزاي؟

- إنت ما بتلاحظ أحيانا وانت خارج المغرب سيارة كبيرة قد أودة من أود الشقق الجديدة واقفة على راس الشارع بتاعنا؟

- والله ما أخدتش بالي.

- أهي دي يا عم خليل تبقى سيارة وكيل وزارة لكن مش وكيل وزارة الداخلية لأنه راجل مستقيم ودقة مصطفاوي، ولكن بواسطة الوكيل زميله اللي بيزورني قدرت أخليه يوصي بوليس قسمنا على بيتك. دا غير من جهة تانية الهدايا اللي باقدمها لهم.

- ياسلام! بقى كدا؟

- وأقول لك أكثر من كدا كمان. إنت ما شميت الجمعة اللي فاتت ريحة غريبة مالية البيت؟

- أيوه شميت، حتى سألت عنها مراتي وحماتي فقالوا لي إنك لازم بتكون بتبخر شقتك.

- أما انت في حالك صحيح يا عم خليل. طيب الستات قلنا غشم ما يعرفوا، لكن ازاي راجل في سنك لا يعرف ريحة الحشيش؟

- وحاعرفه منين يا ابني؟ إذا كنت عمري ما تعاطيته!

- أهو اعرف بقى إن اللي كان بيحرقه عندي ظابط بوليس.

t.me/qurssan

- من القسم بتاعنا؟

- لا. لكن طبعا وصى على زميله بتاع قسمنا.

- طيب وازاى يبقى ظابط بوليس ويدخن حشيش؟

- يوا! إنت حتفضل كدا على نياتك لإمتى؟

تبادلنا تحية المساء وذهب كل منا لشقته. استلقيت على فراشي وأنا أفكر فيما قاله لي غرباوي وقد اقتنعت أني حقيقة ساذج كأني لا أعيش في وسط الناس ويصدق علي قولهم ((تور الله في برسيمه)).

هل لا بد من هذه القاذورات الأخلاقية لكي يدور دولاب الأعمال في هذه الدنيا؟

كيف إذن لا تزال نرى، من وقت لآخر، فضائل رائعة وتضحيات عظيمة ومثل عليا في الحياة؟ هل الخير والشر والفضيلة والرذيلة والله وإبليس متلازمين دائما كتلازم الليل والنهار؟ صح ذلك لأنه لولا السواد ما عرف البياض. بل ربما نشأ الخير من الشر كما يزداد ثمر شجرة الفاكهة عددا وحلاوة كلما ازداد ما يوضع تحتها من أسمدة عضوية متعفنة قذرة.

t.me/qurssan

مر أسبوع عادي دون حصول ما يستحق التدوين. كنت أفكر أحيانا في مصيري. هل حقيقة اندمجت في هذا الوسط الجديد اللي رماني فيه غرباوي وسوء حظي؟ هل لم أزل خليل القديم أم تغيرت وأصبحت من تلامذة غرباوي؟ وإذا كنت تغيرت فلأي مدى وكم في المائة بلغ مقدار شبهي به؟

أظن أن العادة لها دخل كبير في كل شيء كما قال لي مرة غرباوي، فإني أشعر الآن بأني لا أنظر لكثير من الرذائل بنفس درجة الاستنكار اللي كنت أنظر لها بها من قبل، لأني تعودت على رؤيتها أو السماع عنها. أظن أنه لو رأى إنسان كل يوم الغول اللي بيقولوا عنه لأصبح عنده حيوان أليف عادي كالقط والكلب.

الرذيلة مثل ماء البحر البارد، يشعر النازل فيه عند أول نزوله بقشعريرة تسري في جسده من برودة الماء، ولكنه لا يلبث بعد دقائق أن يتعودها ولا يفكر إلا في العوم فيه. لذلك يقولوا إن المعول في سلوك طريق الرذيلة هو اتخاذ الخطوة الأولى.

لذلك أخشى أن أكون توغلت في بحر الرذيلة أكثر مما أتصور، وأريد العودة إلى بر الأمان لأني واثق من أن عاقبة الرذيلة وخيمة وأن الله يمهل ولا يهمل.

كل أمنيتي هي أن أتخلص من أخطبوط غرباوي الملتف على جسدي، وأن أكسر السلسلة الذهبية اللي يقودني بها من أنفي. حقا صدق من قال: ((أذل الحرص أعناق الرجال)).

لا أستطيع البقاء على هذا الحال لأني أشعر كأن كل الناس تنظر إلي شزرا وهم مطلعين على ما أنافيه من خزي وعار. فأسير مكسوفا من نفسي، حتى في منزلي لا أكلم أهلي إلا وأنا مكسور العين منكس الرأس.

بلغ بي الأمر لأكثر من ذلك، فأنا لا أكره نفسي فقط وإنما أكره أفراد عائلتي أيضا وأحتقرهم لأن رئيس عائلتهم رجل سافل

t.me/qurssan

مثلي، بل أصبحت أكره هذا المنزل اللي أقيم بين جدرانه لأنه يخيل لي أنها هي أيضا تشبعت بما يجري فيه من فساد، وأن الحيطان والأثاث ينظروا لي باحتقار. كذلك تفككت روابط عائلتي تحت تأثير الكابوس المخيم عليها، فأصبحنا لا نقضي سويا تلك الجلسات العائلية الدافئة اللي كنا ننعم بها أيام الضيق والبؤس.

كذلك لاحظت أن أولادي صاروا يتغيبوا كثير عن المنزل بحجة أنهم بيذاكروا مع بعض زملاءهم وأنا لا أجرؤ على التحقق من ذلك خوفا من أن يكون السبب الحقيقي في تغيبهم هو محاولتهم الهرب من البقاء تحت سقف هذا البيت الموبوء النجس.

t.me/qurssan

١٦

هل يمكن للإنسان أن يحكم على نفسه حكم نزيه مجرد؟ لاأظن، وإلا لما أوجد القانون إجراء رد القاضي عن نظر قضية يشتبه أن يكون له بها صلة. يظهر أني كنت مغشوش في تحليل نفسي وأن غرباوي أثر في أخلاقي أكثر مما كنت أقدر، بل ربما كان جرني معه في صنعته دون أن أدري لأني شعرت بأن ضميري بدأ يدافع عن نفسه ويخفف مسؤوليته.

بلغ بي الأمر أني فكرت مرة بأن ما يقولوه من أن كل إنسان صانع قدره فكرة خطأ تماما، فأنا مثلا لم أوجد الظروف القاسية المحيطة بي بمحض إرادتي وإنما هي اللي فرضت نفسها علي، فسلبتني حرية التصرف وجعلتني عبد مطيع لأوامرها حتى لا أموت أنا وعائلتى جوعا والله يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. حقا إن إيماني قوي، ولكني لست حر في ممارسته ما دامت ظروفي القاسية حرمتني من حريتي، وبذلك سقطت عني المسؤولية إذ لا توجد مسؤولية حيث لا توجد حرية الاختيار، ولذا أظن أن حكمة الله في قبول التوبة هي لتقديره عدم حرية المذنب أحيانا وأنه يستفيد بما يسميه اليوم رجال القانون الجنائي ((الظروف المخففة)) اللي تستدعي رأفة المحكمة.

أقول ذلك لأنه زارني بالأمس غرباوي فكنت أتخيل أن الجالس معي هو إبليس الرجيم، ومع ذلك غلبني على أمري. من كثرة سؤاله عن الحال والصحة الغالية والمبالغة في المجاملات، أيقنت أنه لا بد أتى يطلب مني شيء فعمد لبلفي بملاطفته هذه. فعلا لم أكن مخطئ في ظني لأنه قال بعد هذه المجاملات: - يا عم خليل، أنا عارف إنك راجل طيب وصاحب مروءة، وانا قاصدك النهاردا في خدمة وأملي إنك ما تكسفني.

- إنت عارف طبعي. أعملها بشرط إنها لا تكون وسخة.

- أنا عارف طبعك. إنت تعصى وتحرن وتهيج في الأول وبعدين لما أقنعك بكلمتين تهدا وتلين.

t.me/qurssan

- أعمل إيه ما انت بتبلفني وتاكل بعقلي حلاوة.

- طيب يا سيدي اسمعني كويس.

- آديني سامعك.

- بقى يا سيدي قدامي عملية مهمة خارج القطر تستدعي سفري.

- سافر لها بالسلامة.

- وأسيب إدارة بيتي هنا لمين؟ فكرتش انت في كدا؟.

- وانا مالي أفكر دا شغلك انت.

- بفكرك كدا يعني، أسيب بيتي لمين؟

- وانا إيش عرفني في كدا يا أخي. لواحد من إخوانك.

- دا بقى دلوقت بيت مهم مشهور في الأوساط الراقية فخسارة إني أسيبه يموت بعد كدا. ففكرك مين يقدر يستمر في إدارته في غيابي؟

- ما قلت لك يا أخي إني لا أفهم في الحاجات دي.

- لأ، تفهم قوي، بس انت اللي بتستعيط. يعني أقول لك بصراحة إن الشخص الوحيد اللي أقدر أئتمنه عليه هو انت.

- يعني تنتظر حضرتك إني أشكرك على ثقتك الغالية دي في؟

- والله تشكرني ما تشكرني أنا باقول الحقيقة. وما تفتكر إني عاوز أسلمك إدارة بيت سري عادي. لا يا حبيبي. أنا بيتي مش زي البيوت اللي بالك منها.

- علي الكلام دا برضه؟ دا احنا دقنينه سواء إن ما كنتش أنا عارف دواخل أمورك وأسرار بيتك دا، أمال مين اللي يعرفها؟

- برضك ما انت عارف. بيتي دا يا عزيزي يعتبر ملجأ اجتماعي أكثر منه محل تجاري، وآديك شفت بنفسك ديك النهار الست اللي ولدت عندي وأنقذت شرفها وشرف عائلتها.

t.me/qurssan

- وأخذت منها أتعاب جامدة وسبت عندي تذكار لشرف عايلتها الكبيرة سي وحيد عبد الله.

- طيب وماله. هي لو كانت راحت مستشفى ولادة مش كانوا حياخدوا منها أتعاب زيي ويمكن أكثر؟ أما الولد فانت بتكسب في تربيته ثواب. وغير كدا بيتي بيساعد على التنفيس عن أزواج وزوجات كتيرة وبيفرج عنهم من غير ما يعرضهم للفضايح اللي يمكن يتعرضوا لها في ظروف تانية.

- إنت جرى لعقلك حاجة؟ إنت لما تتكلم من هنا لبكرة، هل يعقل إني أرضى أستقبل رجالة وستات جايين علشان شغل مسخرة وآخذهم بأهلا وسهلا وأدخلهم في أود وأقفل عليهم الأبواب؟

ما تفوق لنفسك يا راجل. أنا حقيقي أجرت لك بيتي ولكن ما أجرت لك شرفي. فتح وبص لي كويس، أنا مش معرص وعمري ما حاكون معرص، فدور لك على واحد تاني من عينتك.

- يا سلام عليك يا عم خليل لما تهول وتكبر الحاجة وتستعمل ألفاظ قبيحة بدون مناسبة.

- أمال يعني عاوزني أقول لك إيه؟ أقدم لك تشكراتي على عرضك الكريم؟

- أنا برضه كنت عارف فكرك دا م الأول واحتطت له علشان أريحك. فيكون في علمك إني مش عاوز حركة البيت تمتد وإنما يدوب يمشي بطاقته الحالية علشان ما أضيع الزباين اللي في إيدي. وأهو كل زباييني عارفين سيد وزهيرة ومتعودين عليهم. فكل ما يختص بالإدارة الفنية، يعني اللي بتسميه شغل مسخرة، مالك دعوى به.

إنما انت عارف إن الصنف دا ما له أمان. ولو إني حقيقي ربيتهم وعلمتهم الشغل العملي إلا إني ما قدرت أعلمهم الأمانة في المعاملة.

لذلك لا أقدر أثق في ذمتهم. فلاقيهم يمشوا البيت عال حقيقي

t.me/qurssan

لكنهم يلطشوا أكتر من نص إيراده، ويمكن لو طول في إيدهم يبلطجوا عليه. هنا بقى ييجي دورك، يعني إنك تكون المراقب المالي للبيت، وأظن إن دي صنعة شريفة ما لها دعوى بأعمال البيت.

- إزاي بقى؟ ما هو علشان أراقب اللصين بتوعك دول، لازم أنحشر في وسط أعمال البيت علشان أشوف الداخل والخارج وأقدر أراقب الإيرادات تمام.

- لا لا لا. أنا حاهون عليك المسألة قوي. تعرف انت كل وظيفتك حتكون إيه؟ وانت هنا في بيتك حتى وانت في أودتك دي زي ما انت قاعد دلوقت، ييجي لك كل يوم قبل الضهر سيد وزهيرة يقدموا لك الحساب، يعني يقولوا لك أجرنا كذا أودة وحصلنا منهم كذا جنيه أهم اتفضل، وانت تعمل حسابك على إن الأودة السامبل باتنين جنيه والكومبليه بستة.

- سامبل إيه وكومبليه إيه يا خويا؟ أنا أسمع الحاجات دي عن الشاي في القهاوي الشيك.

- ما هو برضه الأود زي الشاي. سامبل يعني أودة بس فقط لاغير، أما الكومبليه فتبقى أودة معمرة يعني فيها ست.

- طيب والمعمرة دي ما بتزيد إلا أربعة جنيه وانتم ضروري بتقصوا منهم حاجة فما يفضلش للست العاملة عندكم إلا أجرة بسيطة.

- لا يا عزيزي. الأودة الكومبليه نحاسب عليها الزبون بستة جنيه لأن دا بيت درجة أولى فطبعا البضاعة اللي فيه تبقى من أوساط راقية. نحسب منهم اتنين جنيه للأودة يفضل كام؟

- أربعة.

- الأربعة دول نقسمهم بالنص بين البيت وبين الست العميلة فيخص كل واحد اثنين جنيه. شايف ازاي أنا كريم مع العميلات.

- تاخد من عرقهم خمسين فى المية وتبقى كريم؟

t.me/qurssan

- ماهو ما تنسى يا عزيزى إن الفضل في شغلهم يرجع للبيت اللي محتاج لرأس مال ومصاريف إدارة وشهرة تجارية. بينما هم ما بيتحملوا حاجة، الواحدة تيجي بالفستان اللي عليها بس وتلاقي قميص نوم شيك في دولاب الأودة.

- واجب برضه إنكم تعطوها عدة الشغل.

- أنا عارف إنهم حيغالطوك في عدد الأود المؤجرة ونوعها، لكن معلهش، نسيب لهم جزء ونمسك الباقي والطشاش ولا العمى. المهم عندي إني ما أطير من إيدي الزباين وألاقيهم لما أرجع. ولاحظ إن الفلوس اللي يلموها يدفعوها لك يوم بيوم، فألاقيها عندك لما أرجع لأنك انت طبعا أمانتك فوق كل شك.

- يعني حاكون زي البنك اللي الموظفين بتوعك يودعوا فيه إيراد المحل ومالي دعوى بإدارة البيت؟

- تمام كدا. فأفتكر إن دي مسألة بسيطة يمكنك تقبلها، وطبعا حاعطيك من المبلغ اللي حتجمعه عشرة في المية أجرة تحصيل ودي عمولة تجارية كل الناس بتعملها حتى البنوك.

- بشرط إني غير مسؤول عن اللي يجيبوه موظفينك. كتير قليل مالي دعوى.

- تمام. ماشي كلامك.

- إن كان على كدا قبلت.

- أنا متشكر لك قوي يا عم خليل. أهو دلوقت حاسافر وانا مطمئن.

- وحتغيب على كدا كتير.

- والله ما أقدر أعرف، حسب التساهيل. جايز أسبوعين وجايز شهر.

- مش عاوز أودع لك رصيدك كل أسبوع في حسابك في البنك؟

t.me/qurssan

- لا، ما في لزوم لبنوك. خلينا كدا زيتنا في دقيقنا وانت زي البنك وأضمن.

- عشت كتر خيرك.

- إنما برضه من وقت لوقت ابقى هوش سيد وزهيرة وانت بتحاسبهم، يعني تقول لهم مثلا ((إزاي أودتين بس وانا سامع الجرس دق امبارح أربع مرات)) علشان يخافوا شوية ويلايموها.

- يعني انت عارف إنهم حرامية حيسرقوك وبتشغلهم برضه؟

- أعمل إيه؟ دول إيدي اليمين ما أقدر أستغنى عنهم.

- معلهش، لما تفوت لهم شوية من الأرباح مش خسارة فيهم. كأنك زي المصانع اللي بتعطي حوافز لعمالها من باب التشجيع.

- على رأيك.

هل سرقة سيد وزهيرة لهذا الرجل تعتبر سرقة؟ أليس المال نفسه حرام فسيان من يأخذه؟ هو على كل حال حرام لن يدوم في أيدي أصحابه لأن ما يحدفه البحر تطيره الرياح. غيب غرباوي اللي تم بيننا ونبه عليهم مشددا بأن يدفعوا لي كل يوم إيراد المنزل وإلا كان لي الحق في طردهم.

ثاني يوم قرب المغرب سمعت حركة في مدخل البيت أعقبها دخول غرباوي علي مودعا ثم خرج وأركان حربه يحملوا له حقائبه حيث وضعوها في تاكسي كان منتظر أمام الباب وسار وأنا أشيعه في نفسي باللعنات.

نسيت أن أسأل الرجل عن الجهة اللي سيسافر لها، وربما كنت لم أسأله متعمدا حتى لا أبدو فضولي أتداخل في أموره المشكوك في سلامتها، لأنه لا شك مسافر ليتصيد في الماء العكر ويعقد صفقات قذرة كعادته. الغرض إنه سافر، سواء لأوربا أو آسيا فهذا لا يهمني ما دام راح في داهية والله لا يرجع الغلا ولا كياله.

t.me/qurssan

١٧

مضى نحو أسبوعين على سفر غرباوي وأنا أنفذ أوامره بمنتهى الدقة لأنها أمانة في عنقي. وكان سيد وزهيرة يقدموا لي كل يوم حساب شفوي ويسلموني ما كانوا يعتبروه أنه إيراد البيت. كان لا بأس بالإيراد لأنه كان يتراوح بين أربعة وثمانية جنيه في اليوم. كنت أضع المبالغ اللي أستلمها منهم في صندوق خشب صغير أحتفظ به في دولابي ولا أمس تلك النقود باعتبارها أمانة عندي.

لكن بالأمس جرت حكاية غيرت مجرى روتين إدارة ذلك البيت الوسخ، فبينما كنت في غرفتي في العصر، دخل علي سيد وبصحبته سيدة قال لي إنها تريد مقابلتي. تركها وانصرف. رأيت الجالسة أمامي سيدة تناهز الخمسين، ضعيفة هزيلة صفراء الوجه مبهدلة الثياب تظهر عليها علامات الفقر، إلا أنه كانت تحيطها رغم ذلك هالة من الوقار والهيبة تزيدها ظهورا طريقة كلامها مما يدل على أنها من وسط راقي، وربما كانت من عائلة طيبة انحدر بها الحال كما تبينت ذلك فيما بعد. بعد التحيات المعتادة سألتها عما تريد فقالت: - أنا جيت علشان أقابل غرباوي بك.

- بس هو مسافر.

- قال لي كدا وجابني لحضرتك لأنك وكيله.

- هو قال لك كدا؟

- أيوه.

لم أنفي ذلك لأنه حقيقي في الواقع. بعد أن نظرت إلي السيدة بعينيها الغائرة، وبعد أن سحبت نفسها كم مرة تغالب به ترددها قررت الكلام، فقالت: - أنا لا أقدر أضيع وقت في انتظار رجوع غرباوي بك، وما دام حضرتك وكيله فتبقى كأنك زيه والبركة فيك. فأنا حاحكي لك موضوعي.

- اتفضلي يا ستي.

t.me/qurssan

- إحنا عايشين في زمان كل شيء فيه مباح علشان الحصول على لقمة العيش، لكن أنا مش متعودة على كدا ومكسوفة من الكلام.

الظاهر إنها كانت بتنتظر مني كلمة تشجيع لتشرح لي موضوعها، ما عسى أن تطلب مني هذه السيدة الوقورة من رجل مثلي في مثل هذا البيت؟ طبعا لا يمكن أنها أتت لتعرض علي خدماتها في منزل غرباوي وهي في هذا السن وعلى هذا الشكل المبهدل، ومع ذلك كانت مكسوفة من الكلام في موضوعها.

حبيت أشجعها على الكلام بأن أثني على حياءها هذا فقلت لها: - في كل مكان وكل زمان فيه حاجات يخجل منها الإنسان، وأنا أهنيكي على إنك بتشعري بالكسوف مما يدل على إن إحساسك لسه حي وإن شاء الله تفضلي دايما كدا.

- طيب وإذا لقيت نفسي جعانة؟

- فيه طرق عمل شريف كثيرة يمكن الإنسان إنه يلجأ لها علشان ما يجوعش فعدم الحيا أكبر مصيبة. مش المثل بيقول ((إذا لم تستحي فافعل ما شئت)).

السيدة بحلقت في بعينيها الغائرة وقد ارتسمت على وجهها الذابل علامات الدهشة من نصائحي الأخلاقية هذه، ثم تمالكت نفسها وقالت: - يا ترى أنا غلطت في الشخص وحضرتك مش وكيل غرباوي بك.

- لأ ما غلطتي يا ست. أنا وكيل غرباوي مدة غيابه.

- أمال إيه كلامك دا؟ هو وكلك عنه علشان تعطي للي ييجوا له نصايح في الأخلاق؟

- الحقيقة يا ستي إني أنا كمان وقعني سوء بختي في الطريق البطال دا. وزي انتي ما قلتي لسه دلوقت إنك مكسوفة، فأنا كمان لسه لدلوقت ما اتعودت على الحال المايل دا ومكسوف وخجلان مش بس من الناس لكن من نفسي كمان.

t.me/qurssan

- بس لو قعدنا إحنا الاتنين نندب على حالنا ونتكلم عن كسوفنا، لا انا حاقدر أحكي لك همي ولا انت حتقدر توصف لي دوا.

- حقيقي، لا مؤاخذة أنا نسيت نفسي. اتفضلي اتكلمي.

- أنا ما جابني عندك إلا العزيز القوي. فلازم تجتهد تحل لي مشكلتي بصفتك وكيل غرباوي بك ومش بصفتك إنك وقعت في السكة دي غصب عنك. وعلى العموم إذا كان حيصيبك من موضوعي قيراط من العار فأنا حيصيبني أربعة وعشرين. فأرجوك تستحملني.

- أنا تحت أمرك يا ستي. اتكلمي على راحتك.

- اسمع يا سيدي وربنا يقدرك على فعل الخير.

كان لكلمة ((الخير)) هذه وقع غريب في أذني، إذ كيف يستطيع الخير أن يتداخل فيما نحن فيه من شر وفساد؟ هل من المعقول أني بصفتي وكيل غرباوى يقدرني ربنا على عمل خير حتى ولو كان مثقال ذرة؟ مسكينة هذه السيدة، إنها تهذي بلا شك. استمرت قائلة: - أنا سمعت إن غرباوي بك زي دكتور للقلوب والمشكلات النفسية، وما دام عملك وكيله فلازم يكون فيك شيء منه.

- لحد محدود لأني لسه ما تخلصت تمام من تأثير الشرف.

- الله يرضى عنك، فأنا كمان كنت طول عمري شريفة ومن عايلة محترمة لولا إنه غدر بنا الزمان، يعني يمكن فيه وجه شبه بين حالتنا إحنا الاثنين.

- جايز، من جهة إننا طالعين في المقدر جديد.

- بقى شوف يا سيدي، أنا عايشة مع بنتي وأختي وأبويا اللي كان راجل قد الدنيا ولكنه فلس في البورصة ودلوقت مخرف ومشلول كأنه ميت بيتكلم، يعني كلنا ولايا وراح اللي كان فوقنا وتحتنا.

t.me/qurssan

- ربنا برضه ما ينساش عبيده.

- كنا راضيين بالمقدر لولا إن بنتي لا قادرين نقعدها في البيت ولا قادرين نجوزها.

- ليه لا مؤاخذة؟ وحشة قوي؟

- أبدا بالعكس، حلوة قوي حتى أقدر أقول لك - مش لأني أمها - إنه ما حد في حلاوتها.

- في الحالة دي إيه المانع أمال من جوازها.

خفضت السيدة رأسها ونظرت للأرض وهي تعضعض شفايفها، ثم قالت بعد تردد: - لأنها ما تجوزت ومش بكر.

- دا برضه لا يمنع جوازها، خصوصا إذا كانت حلوة زي ما بتقولي. هنا ساحت الدموع من عينين السيدة فأخذت تمسحها وهي تقول: - حاقول إيه بس؟ حاجة تكسف. فيه شاب صايع من قرايبنا اسمه فهمي كان طلب يتجوزها فرفضناه. ضحك عليها وهربها معاه وعاشوا سوا بدون جواز. قال إيه بيحبوا بعض، وعيال زي دول يعرفوا إيه بس عن الحب؟ نهايته لا أطول عليك، بعد مدة طهقت منه ومن عيشته السودا وسابته وراحت عاشت مع واحد تاني مش فالح برضه اسمه عصام. فهمي ما سكت على كدا وبقى ينكد عليهم وينغص عليهم عيشتهام لحد ما عملوا فضايح لرب السما. فأنهي راجل بعد كدا يقبل يتجوز بنت زي دي؟ سمعت عن غرباوي بك أنه يحل كل عقدة، فعلشان كدا جيت له.

- بس هو زي ما انت عارفة غايب.

- ما هو البركة فيك انت. لولا إنه مجربك في الحاجات دي ما كانش سابك مطرحه، وانت باين عليك قدها وقدود وزي ما بيقولوا سيماهم على وجوههم.

حز هذا الإطراء في نفسي كما يحز السكين في الجبن. يعني على وجهى سيمات التعريص. أترى هذا صحيح دون أن أدرى؟ ألم

t.me/qurssan

تقل لي المرأة اللي جاءت تظبط زوجها في منزلنا أني لازم أكون الباشمعرص؟ أكان التعريص إذن كامن في نفسي ومرتسم على وجهي وانفجر أخيرا كأنه قنبلة زمنية؟

إلا أن هذه السيدة أيقظتني من تأملاتى هذه بقولها:

- ها، آديك فكرت، على الله تكون لقيت لي حل؟

- بس عاوز منك شوية إيضاح كمان، يعني إنت قصدك إيه بالظبط؟

- قصدي إني أمنع البنت من الدوارة البطالة دي اللي موسخة اسمها واسمنا بدون لا فايدة ولا عايدة.

- يعني عاوزة تلمي البنت في بيت بالحلال بالحرام ما يهمش، وإنما ييجي لها منه قرشين ينفعوها وتستنفعوا منهم إنتم كمان؟

- اسم الله عليك، كأنك بتقرا اللي في فكري.

رثيت لحال هذه الأم المعذبة البائسة وصعبت علي فأردت مساعدتها. لكن كيف مجرد نصيحة؟ خطر في بالي الشيء الوحيد اللي يمكنني أن أقدمه لها فقلت: - والله يا ستي رغما عن تجربتي اللي بتقولي عنها، أنا لا أعرف بيولت يمكنها تساعد بنتك في حكايتها دي إلا... بيت غرباوي دا.

كدت أقول لها ((إلا بيتنا دا)) لشدة تعودي عليه، ألست صاحب البيت ومديره المتولي أمره في الوقت الحالي؟

أجابتني السيدة قائلة:

- أنا شخصيا ما عندي مانع خصوصا إنها حتبقى هنا تحت رعايتك كأنها بنتك وانت باين عليك طيب وابن حلال ولازم أب ولك أولاد.

عال جدا! لقد طفح الكيل. تريد مني أن أشغل الشابة اللي مثل بنتي مومس في الكره خانة اللي أديرها. ولكن أليس هذا تفكير طبيعي حتى يكون زيتنا في دقيقنا؟ قلت لها: - طيب تقدري

t.me/qurssan

تجيبيها لنا وقت ما تحبي.

- بس أنا حاتثاقل عليك وأطلب منك خدمة كمان.

- تاني؟ غير كدا؟

- برضه في نفس الموضوع. أصل البنت راسها ناشفة وما باقدر عليها فما أعرف رأيها إيه في كدا ويا ترى حترضى تيجي لك معايا.

- طيب وعاوزاني أعمل لك إيه؟

- إنك تتم جميلك وتخطف رجلك معايا لحد بيتنا علشان تكلمها وتقنعها وتشوف بنفسك إنها خسارة في البهدلة.

- إذا كنتي أمها مش قادرة عليها حاقوم أقدر عليها أنا؟

- أصل هي ما تهتم بكلامي، لكن تعمل حساب لكلام راجل محترم زيك.

يا الله! تقول عني المرأة الآن أني رجل محترم بعد أن كانت تقول عني أني معرص منذ برهة. ليت شعري أي احترام هذا وهي تستدعيني لأقنع مومسة بالعمل في بيت سري أديره. ترددت في الذهاب معها ولكني كنت متأثر من حالها مشفق عليها فأردت أن أساعدها ولا أكسر بخاطرها فقلت لها: - وبيتك دا بعيد؟

- لا أبدا. في زينهم بعد البغالة دوغري.

- يا! دا بعيد.

- أبدا. نأخذ الترامواي من هنا تنزلنا في ميدان السيدة وبعدها نمشي شوية.

- زي بعضه. أمري لله. يا الله بينا.

لبست طربوشي وأخذت عصايتي وتوكلت على الله مع هذه السيدة المجهولة.

t.me/qurssan

شكرتني السيدة المجهولة لما دفعت لها ثمن تذكرة الترام، فغالبا كانت حضرت لمنزلي ماشية. نزلنا في ميدان السيدة ومشينا حتى وصلنا البغالة.

دخلنا بعد ذلك في أزقة كل بيوتها من دور واحد وبعضها حطام بالأخشاب والبعض الآخر بالصفيح.

كنا نخترق أكوام الزبالة وصفوف الأطفال المنتشرين في تلك الأزقة يلعبوا فيها لأنه ليس في بيوتهم مكان يتسع حتى لجلوسهم. بلغنا أخيرا حارة كانت خالية إلا من بعض الأطفال سنهم ما بين الأربع والسبع سنين. كان فيهم بنتين من غير لباس قاعدين مقرفصين بجوار حائط وبول كل واحدة منهم يجري بين رجليها كأنه مسقة صغيرة وقد وقف أمامهم ولد صاح قائلا:

- خلاص! أمينة اللي كسبت، شختها سبقت شخة فاطمة بشبر.

فهلل بقية الأطفال مصفقين لأمينة بعد ما أعلن الحكم فوزها في مسابقة التبول الطريفة هذه. لا شك أنها مسابقة غريبة لا تخطر إلا على بال مثل هؤلاء الأطفال اللي ليس في ألعابهم أي مجال للتفكير المفيد. انكسفت رفيقتي في الطريق من أن يرى ضيفها مثل هذا المنظر فنهرت الأطفال قائلة:

- إيه دا يا أولاد يا قلالات الأدب؟ حد يعمل وساخة كدا في السكة؟ أنا حاروح أشتكيكم لأمكم.

- روحي اشتكي لها على كيفك. حتعمل لنا إيه؟ ما هي اللي موصيانا ما نشخ في بيت الأدب علشان ما نوسخه.

ظهر على رفيقتي الندم على توبيخها أطفال حارتها لأنها أعطتهم الفرصة في أن يظهروا أمامي أن أمهاتهم أقل منهم أدبا. سرنا بعد ذلك نحو خمسين خطوة، وقفنا بعدها أمام منزل من دور واحد حوائطه لم تبيض ووقعت المونة من بين كثير من أحجاره، لكن كانت تتسلق عليه فروع كرمة مورقة، كان خضارها الزاهي بمثابة

t.me/qurssan

ضحكة رنانة وسط عبوس تلك المباني القديمة اللي تشبه القبور.

دقت رفيقتي على باب ذلك المنزل ففتحته سيدة تشبهها ومن سنها تقريبا.

دخلنا الدار وقدمت لي رفيقتي تلك السيدة على أنها أختها واسمها هدية ثم علمت فيما بعد أن اسم السيدة اللي رافقتني هو هدى. وجدت نفسي مع الأختين هدى وهدية في فسحة صغيرة مفروشة بحصيرة عجزت عن أن تخفي عن عين الزائر أن نصف بلاط الأرضية كان مكسر. كانت حوائط الغرفة مبقعة ببقع من جميع الأحجام والأشكال والألوان. لم يكن بها من الأثاث إلا كنبة تركي، عبارة عن صندوق خشبي كبير فوقه شلتة محشية قطن، وكرسيين خرزان مقعد أحدهما مقطع، وطرابيزة خشب أبيض عادية.

لكن هذا الديكور الفقير كان في غاية النظافة، إذ كان من الصعب العثور على ذرة من التراب في أي جزء من أجزاء الغرفة. ما كدت أجلس على الكنبة حتى زكم أنفي رائحة مرحاض كريهة لا حيلة لسكان المنزل فيها.

ربما كان مصير منزلي نفس هذا المصير لو لم تنتشلني من وهدة البؤس يد غرباوي، اللي أنقذتني من الفقر لترميني في العار فكنت كالمستجير من الرمضاء بالنار.

كان من الواضح أن هؤلاء المساكين كانوا في نعمة قبل ذلك، وأنهم اضطروا لبيع عفشهم قطعة قطعة حتى لم يبقى عندهم منه إلا هذه الكراكيب الحقيرة الضرورية للحياة. وها هم جاءوا اليوم يسعوا في بيع بنتهم أو في تأجيرها لأنهم يعلموا أن بضاعتهم معيوبة لا يمكن أن يجدوا لها مشتري. أجل، جاءوا لي كي أسمسر لهم على تأجير بنتهم كما يذهب صاحب المنزل للسمسار ليجد له مستأجر لمنزله. كان من سوء طالعهم أن وقعوا في سمسار غشيم مثلي حديث العهد بالمهنة. ولكن ماذا كتبت؟ كيف اعترف قلمي بأني أصبحت من أهل هذه المهنة؟ هل هي زلة قلم أم أني ألفت المهنة من كثرة اختلاطي بأهلها ومعيشتي في

t.me/qurssan

بيئتها حتى انطبق علي المثل ((من عاشر القوم أربعين يوم صار منهم))؟

ها هم هذه الولايا المسكينات اللي أخنى عليهم الدهر، يخطوا الخطوة الأولى في طريق الدعارة، ويوقعهم سوء طالعهم في غشيم مثلي لم يسبقهم في هذا الطريق إلا قبل خمسة أشهر فقط، فكنا على رأي المثل ((اتلم المتعوس على خايب الرجا)). أتراني سأستطيع مساعدتهم أم ستقول عني هذه النساء ((جبتك يا عبد المعين تعني، لقيتك يا عبد المعين تنعان)).

السيدة هدى - اللي زارتني - عرضت علي أن تذهب لتعمل لي فنجال قهوة فرفضت بشدة لأني كنت على ثقة من أن عرضها هذا عزومة مراكبية لأنه لا يمكن أن يوجد في هذا المنزل الفقير بن، ولو كانت تورطت في هذه الدعوة كان لا بد لها من الالتجاء لاقتراض بن من أحد الجيران.

بقينا برهة ننظر لبعضنا دون أن نجرؤ على رفع الستار عن المأساة اللي سنشاهدها على هذا المسرح الحقير، حتى قطع حبل الصمت سعال حاد مصحوب بحشرجة، صادر من غرفة مجاورة. حينئذ قالت السيدة هدية:

- دا أبونا العيان.

وعلقت على هذا أختها هدى بقولها:

- دا اللي كلمتك عنه وقلت إنه مخرف وعنده ضغط عالي ونزلة شعبية وربو بيخلوه يكح كتير.

- ربنا ياخد بيده.

هنا استأذنت مني السيدة هدى لتذهب وتحضر لي بنتها اللي عرفت إن اسمها نادية. ذهبت وبقيت منفردا مع أختها اللي قالت:

- البنت دي اللي كانت موضع أملنا، بقت مصدر شقانا.

- علشان ما عرفتوا تربوها.

t.me/qurssan

- والله يا بيه إحنا عملنا كل جهدنا، لكن فيه أولاد زي البذرة النجسة مش ممكن يطالعوا زرع مهما الواحد اعتنى بزراعتهم.

هنا دخلت علينا السيدة هدى ومعها بنتها نادية. يجب أن أقول إن نادية لم تدخل الغرفة وإنما هلت عليها كما يهل البدر في السماء وهو كامل في ليلة أربعة عشر. سبحان من خلق فأبدع!

لست شاعر أو كاتب لكي أتمكن من وصف جمال هذه الفتاة. إني عاجز عن وصف سحر عينيها، وأقواس حواجبها، وفمها الصغير الأحمر اللي مثل الكريزة، وشعرها الغزير المتموج اللامع، وكذلك قوامها الممشوق اللي يشبه أجسام تماثيل الرخام العارية المعروضة في المتاحف. كان لا يبدو عليها الابتذال المنتظر وجوده في فتاة مستهترة مثلها، وإنما كانت تحيط بوجهها هالة من السذاجة بل والطهر رغم فستانها المحزق اللي يعلوه ديكولتيه داعر.

تحققت من أن الأم لم تكن مبالغة في إطراء جمال بنتها لي، وعذرت فهمي وعصام في عراكهم على الاستحواذ عليها، لأني لا أنكر أنه على رغم ما بي من هرم وعجز تمنيت لو كنت شاب يستطيع أن يقضي مع هذه الفتاة ولو ليلة واحدة، ولكني أنا انتهيت من هذه الناحية وتخلصت أخيرا من وحش السكس الكاسر اللي بيكبس على أنفاسنا ويحركنا كما يريد. بعد ما قدمت لي الست هدى بنتها نادية وتصافحنا جلست وقالت:

- ماما فهمتني عن كل شيء وعن مشروعكم لي.

- ورأيك انتي فيه إيه؟

- رأيي إني ما كنت فاكرة إني بضاعة يوصوا عليها سمسار يدلل عليها.

- لا يا بنتي ما تفتكري كدا. دي أمك عاوزة مصلحتك وجات لي ترجوني إني أساعدك زي ما تكوني بنتي.

- وعلشان كدا إنت وأمي اعتبرتوني شرموطة وعاوزين

t.me/qurssan

تشغلوني في بيت السر اللي بتديره حضرتك؟

قالت ذلك بصوت خشن سوقي وقد اتسعت عينيها العسلية وهي ترميني بنظرات كالشرار، وانتفخ صدرها فبرز نهديها بشكل مغري. دهشت من لهجتها المبتذلة هذه وزالت من أمامي صورة تلك الفتاة الطاهرة اللي دخلت علي في الغرفة لتحل محلها فتاة أخرى ظهرت عليها كل علامات السوقية والعجرفة. يا ليتها ما فتحت فمها! ارتعدت فرائص أمها وخالتها من وقاحة كلامها المكشوف وسبقوني للكلام فقالت أمها:

- ما تقولي كدا اختشي. إنت بنت بريئة ضحكوا عليكي شوية أولاد أوباش أرحتي ضحيتهم.

وزادت على ذلك الخالة بقولها:

- ما تختشي يا بنت تقولي عن روحك الكلمة الوسخة دي؟

- أنا وصفت نفسي بالكلمة الوسخة دي حسب وجهة نظركم، لأني عارفة إنكم بعقولكم القديمة تعتبروني كدا بصراحة. فعندكم إذا عاشرت واحدة رجل بدون ما يكتب كتابها المأذون ويندفع لها مهر ويتلموا المعازيم تبقى شرموطة. خلينا نتكلم كدا بالمفتوح. فأنتم لا تفهموا إني حبيت فهمي فعشت معاه زي أي زوجة ما تعيش مع زوجها، وبعدها طهقت من عيشته فسبته ورحت عشت عيشة زوجية برضه مع عصام، وعمري في حياتي ما عرفت غير الرجلين دول فيبقى إيه فرقي عن أي ست شريفة في نظركم تكون اتجوزت مرتين؟

انبرت للرد عليها خالتها اللي كان يظهر عليها أنها أذكى من أختها فقالت:

- يا بنتي إنتي مش عايشة لوحدك في جبل وإنما في وسط ناس لهم عاداتهم وقوانينهم ودينهم. الدنيا من نهار ما اتخلقت ماشية كدا. فمش انتي النهاردا اللي حتقدري تغيريها بأفكارك الإباحية دي.

t.me/qurssan

- الكلام دا كان زمان وجبر. الدنيا اتغيرت مش زي مدتكم، فما تبصوا لها بعقولكم القديمة دي. كل جيل وله أفكاره وأصوله.

قلت لنفسي خسارة إن غرباوي لم يكن معنا حتى كان يرحب بتلميذته هذه. لا شك أنها تلقت هذه الأفكار المسمومة من الشباب المنحرف المتخرج من مدرسة غرباوي وأمثاله. أمها هدى لم تجد وسيلة للرد عليها سوى أن تمسح الدموع المنهمرة على خديها. أما خالتها فاحمر وجهها، لاأدري إن كان من شدة الغيظ أم الخجل، وقالت لها:

- يا نادية مش تخلي عندك شوية دم وبلاش فضايح قدام الأفندي؟ ولا يعني كنا ناقصين فضايح.

وكملت على كلامها هذا أمها بقولها:

- يا بنتي اتلمي وحطي عقلك في راسك واعرفي إني ما جبت حضرة البيه من بيته طويل طويل لحد هنا علشان يسمع كلامك الفارغ دا.

- طيب أنا سكت خلاص. اتكلموا إنتم دلوقت في المفيد.

أردت أن أحسم الموقف وأنتهي من هذا الوضع الحرج اللي وضعت نفسى فيه، فقلت لنادية:

- اسمعي يا بنتي. إنتي حرة إنك تلاقي لك جوز تلت ورابع كمان حسب أفكارك دي في الزواج المودرن الموضة دا، ولكن اللي فهمته من والدتك واللي شايفه من حالكم إنكم دلوقت محتاجين لمساعدة مالية مستعجلة علشان تقدروا تعيشوا لحد ما تلاقي لك الجوز المناسب ولو حتى حسب نظريتك.

- أنا راضية أضحي بنفسي علشان خاطر عايلتي ولكن لا أقبل أشتغل شر... ولا بلاش الكلمة اللي بتخوفكم دي، خليني أقول إني ما أقبلش أشتغل في بيت سري.

- أمال إيه طلباتك؟

t.me/qurssan

- طلباتي إنه ما دمت حضرتك مدير بيت سري فلا بد إنك عارف السوق داكويس، ويمكن حتى عندك دوسيهات عن الزباين السقع، فيمكنك على كدا تجيب لي رجل غني يقدر يعيشني كويس.

المسألة لفت ووقعت على دماغي لأني رأيت كل الأنظار متجهة إلي تنتظر مني الغوث والنجدة. كان يجب علي أن أكون في مقدرة وعلم غرباوي لإنقاذ الموقف، ولكن من أين لي هذا وأنا غشيم في الصنعة بل حتى لست من أهلها؟

نفذت لأعماق فؤادي نظرات البؤس المنبعثة من عيون السيدتين الجالستين أمامي، وهم يترقبوا فمي ينتظروا أن تخرج منه كلمات أمل تطمنهم على أمر معيشتهم كما يترقب المتهم بالقتل فم رئيس محكمة الجنايات عندما يستعد للنطق بالحكم.

لم أجسر على أن أطفئ بريق الأمل في تلك النظرات المترقبة الصادرة من هذه القلوب الحزينة البائسة، فأردت أن أطمنهم معتمدا على قرب عودة غرباوي فأستعين به على الخروج من هذا المأزق، فقلت لنادية:

- راح أحاول يا بنتي. أظن دا ممكن.

تنهدت السيدتين تنهد الارتياح كمن انزاح من على صدره كابوس، لكن نادية لم تلبث أن قالت:

- بس لي شروط.

- إيه هي؟

- أولا الراجل اللي حتجيبه لازم يكون عجوز وفاجر، ما يهم إذا كان متجوز ولا لأ، حتى إذا كان متجوز يكون أحسن.

- طيب وثانيا؟

- ثانيا يكون غني جدا وكريم جدا. يعني يغرقني فلوس وما يبخل علي بحاجة. لأني أهو دلوقت بس اللي حابيع نفسي علشان خاطر عائلتي فلازم على الأقل إني أبيع نفسي بتمن غالي

t.me/qurssan

ولا أكون زي الستات بالجرجرات.

- فيه شروط كمان؟

- لأ. بس في حالة نجاحك في العملية اعمل حسابك إنك تاخد أجرة سمسرتك مضاعفة من الرجل اللي تجيبه، يعني تاخد منه سمسرته وسمسرتي أنا كمان لأني ما عندي حاجة أعطيها لك دلوقت.

عجبت في نفسي كيف تقضي على حياتها فتاة جميلة مثل هذه على جانب كبير من الذكاء والتفكير العملي المنظم. أظن أن السبب كان غرورها، فإن آفة الجمال والذكاء الغرور اللي يفسد كل شيء.

وعدت السيدات الثلاثة خيرا وأني سأجتهد في العثور على ضالتهم المنشودة وقمت استعداد للخروج، ولكني ماكدت أتوسط الغرفة حتى فتح باب جانبي ظهر منه الأب المريض وهو واقف مسنود على شمبرنل الباب كأنه ميت عادت إليه الروح فخرج من القبر. فعلا كان الرجل أقرب للأموات منه للأحياء. كان شعر رأسه ولحيته الأبيض يغطي أكثر وجهه، ومع ذلك ما كان ليخفي صفرة لونه وجحوظ عينيه وعظام وجهه البارزة.

كان الرجل كهيكل عظمي تغطى بجلابية. لذلك أدهشني أن يخرج من هذا الرجل الفاني صوت قوي رن في أركان الغرفة، بمجرد أن وقع نظره علي قال لي:

- أهلا الخواجة ليفي! إنت فين يا راجل من زمان؟ أنا دورت عليك كتير بالتلفون ما لقيتك لأني كنت عاوز أدي لك أوامر. إنت طبعا عارف إني من حزب الصعود. أهو امبارح زاد تلاتة بنط ولسه حتشوف بعد أسبوع حيوصل مائة وعشرين بالي، ويبقى بكرة المغفلين اللي بيضاربوا على النزول يضربوا نفسهم صرم ويقولوا ((يا ريتنا سمعنا كلام صلاح)).

هنا استولت على الرجل نوبة سعال شديدة هزته من رأسه لرجليه، وظهرت رغاوى على شفتيه وخذلته ركبه فأخذ يتهاوى

t.me/qurssan

على الأرض رويدا، لولا أسرعت إليه أنا وبنته هدية فأخذناه من ذراعيه وأجلسناه. بعد أن شم نفسه قليلا غطى وجهه بيديه وأجهش في البكا.

مسكين هذا الرجل اللي فقد ثروته في المضاربة في بورصة القطن - كما يفهم من تخريفه - ثم ضرب نفسه صرم بعد ذلك حسب تعبيره. المضاربة قضت عليه وعلى بناته، وها هي تحكم أخيراعلى حفيدته نادية بأن تصبح شبه مومس.

كان الجميع ينظرون للعجوز المتهالك بنظرات الحب والشفقة والألم بما فيهم نادية اللي من الجائز إن حالة جدها هذه كانت من أقوى الأسباب اللي دفعتها لقبول تأجير جسمها. شعرت في تلك اللحظة بعزم جارف يدفعني لنجدة نادية في سبيل مساعدتها لهذا الحطام الحي. وددت حينئذ لو أنني كنت خبير بصنعة غرباوي حتى كنت أسرع في إسعاف هذه العائلة التعيسة، ولكن أنى لي ذلك وأنا التلميذ الخائب اللي لم يستفد من أستاذه بشيء والحمد لله. سلمت على الجميع واعدا إياهم خير، وخرجت متوجها لمنزلي مخترقا نفس تلك الأزقة الفقيرة وقد زادتها ظلمة الليل رهبة ووحشة وإن كانت أسدلت عليها ستار واراها مما بها من قذارة.

t.me/qurssan

الآن وقد انزاح من فوق صدري كابوس غرباوي، مؤقتا على الأقل، انصرف تفكيري للتأمل في أمر عائلتي. زوجتي بعد أن عملت عمليتها بنجاح بهذا المال الحرام، اتخذت المسكينة موقف محايد وانطوت على نفسها كسيرة الجناح لا تمدح ولا تذم. أما حماتي فما كنت في حاجة للتفكير في أمرها لأنها كانت تحشر نفسها في كل أعمالي تقريبا وكثيرا ما تكون حليفة غرباوي ضدي.

إنما أولادي هم اللي كانوا شاغلين فكري، لا يعجبني حالهم، كانت بنتي طلبت مني عندما شعرت برواج حالتنا المالية نسبيا بفضل غرباوي، أن أشتري لها عود لتتعلم العزف عليه ويصاحبها في الغناء لأنها كانت حسنة الصوت على ما سمعت من سيدات العائلة لأنها لم تتجاسر أن تغني أمامي وأنا لم أدعوها للغنا. لكني رفضت طلبها لا لأسباب مالية ولكني أفهمتها أنه لو صح أن تغني للترفيه عن نفسها في أوقات الفراغ فلا يصح أن تتعلم الغنا والموسيقا كفن لأنها لن تكون مغنية، وعندما تتزوج إن شاء الله لن يطلب منها الغنا بمصاحبة العود.

لذلك لا يليق هذا العمل بفتاة صالحة مستقيمة مثلها. إلا أني لاحظات آخير اكثرة غيابها لأني كنت كلما سألت عنها قالت لي أمها أو جدتها إنها ذهبت لتذاكر مع إحدى صديقاتها. كذلك كان ابني أكثر منها غيابا عن المنزل، وهو الآخر كان يتحجج بأنه يذاكر مع زملائه كلما سألناه عن سبب كثرة غيابه. في صباح اليوم دخل علي وجلس بجواري. قلت له: - يا ابني حالك اليومين دول مش عاجبني.

- ليه يا بابا؟

- لأنك دايما بره. هي المذاكرة يعني لازم تكون دايما جماعة ولا يصح إنك تذاكر لوحدك؟ وكمان سمعت إنك بتلعب كورة في نادي.

t.me/qurssan

- وماله يا بابا؟ دي رياضة مفيدة.

- ما قلنا حاجة، بس دروسك أبدى، والوقت اللي بتضيعه في الكورة عبث أحسن تضيعه في المذاكرة.

- ما هو مش ممكن الواحد يذاكر على طول زي المكنة. مش بيقولوا ساعة لربك وساعة لقلبك؟

- نهايته، ربنا يهديك ويفتح عليك.

- بس أنا جاي لك دلوقت عاوز من حضرتك خدمة.

- خير يا ابني.

- باقول إذا كان تقدر تعطيني خمسة جنيه.

- يا! خمسة جنيه كدا مرة واحدة. مافيش لزوم أسألك عن السبب ما دام مش حاقدر أعطيهم لك.

- لكن دول لازمين قوي يا بابا علشان شيء ضروري.

- والله يا ابني ما كانش ينعز.

- يعني قصدك ما عندك.

- طبعا.

- أمال يعني .. اسمح لي في الكلمة دي .. مش الشقة الفوقانية مأجرة وصاحبها مسافر؟

- طيب وماله؟

- وحضرتك دلوقت مستلمها.

يعني كان الولد يعرف أني أدير بيت غرباوي مما يدل على أنه متصل بخدمه. ليس ذلك فقط وإنما كان واضع عينه على الإيراد يريد أن يستفيد منه هو الآخر. قلت له: - حتى إذا كنت مستلمها فدي مش بيتي وإنما الإيراد اللي بييجي منها أحفظه عندي أمانة لصاحبها.

t.me/qurssan

- رحمتك يا رب. أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم.

- أيوه كدا. واجب علينا نحمده على كل حال. دا حتى من رحمته عوضني عن نفقة وحيد بمرتب وظيفتي الجديدة بالحلال.

أخيرا دخلنا منزلنا محزونين مطأطئين الرؤوس كأنما كنا راجعين من جنازة.

اللهم ما أعظمك في عدلك، وما أرحمك في عقابك. حمد لك يا من لا يحمد على مكروه سواه. اللهم إني لن أعصاك بعد اليوم حتى ولو جعت وسفيت التراب. سأقاوم وأقول دائما ((ربنا يغنيها بالحلال))، وسأتمثل دائما بذلك البيت الشعري القديم: أصون عرضي بمالي لا أدنسه

لا بارك الله بعد العرض في المال

t.me/qurssan

هذا المال الفائض اللي بيسمح لها بهذا الجود؟ بعد ذلك شط فكري لهبوط إيراد منزل غرباوي في الأيام الأخيرة بشكل ملحوظ لأن سيد وزهيرة كانوا لا يقدموا لي أحيانا إلا جنيهين وأحيانا لا شيء محتجين بأن البلد تعاني من أزمة مالية. هل أصدق أن حتى سوق الدعارة في كساد؟

هذا غير معقول. فلو بارت جميع السلع في السوق فلن تبور هذه السلعة، فضلا عن ذلك كنت أسمع أثناء وجودي في المنزل دقات الباب الخارجي مما يدل على أنه كانت هناك زبائن ترد على المنزل. بطريقة لا شعورية وجدت فكري ربط بين هاتين الظاهرتين: مدخرات حماتي الزائدة، وإيرادات منزل غرباوي الهابطة. من أين لحماتي هذه النقود؟ هنا لعب الفار في عبي وشككت في الأمر. من غير المعقول أن يهبط إيراد بيت غرباوي للصفر في بعض الأيام دون أن يكون اللصين اللي فوق اشتركوا مع حماتي في عمل خطة يستحوذوا بها على إيراد البيت لأنفسهم.

إن صح ذلك - ولا بد أنه صحيح - فإني أكون أنا مدير البيت الرسمي، أصبحت طرطور، والسرقة دائرة على قدم وساق تحت أنفي دون أن أشعر بها. لا يمكنني السكوت على هذا كما كنت أضطر للسكوت أحيانا أيام خدمتي في الحكومة. هنا أنا المدير العام لهذا البيت، مطلق اليدين، أتصرف فيه بكامل حريتى دون أن أكون تحت ضغط أو تهديد أو محاباة كما كنت في أيام الخدمة. يجب إذن أن أعمل شيء. سأتحقق من الأمر باكر إن شاء الله.

t.me/qurssan

٢٠

صممت اليوم على مراقبة إيرادات المنزل، فتظاهرت بأني أشعر بزكام ولم أبرح المنزل. بقيت طوال الوقت أرهف السمع لجرس الباب الخارجي. خيم الظلام ولم أسمعه يدق دقة واحدة. كيف ذلك؟ أحقا أن الزبائن انقطعوا عن التردد على هذا البيت وأني شكيت في ذمة الشغالين وحماتي ظلما وعدوانا؟ أيمكن أن يكون منزل غرباوي تأثر بالأزمة المالية كما تأثرت بها المتاجر والبنوك والشركات؟ جايز، فإن المعاملات كلها متداخلة في بعضها حتى إن القرش اللي في يد وزير اليوم قد ينتقل ليد بايع فجل غدا. لكن يجب أن أتحقق من الأمر بنفسي ليستريح ضميري.

خرجت من حجرتي كما أنا بلباس المنزل وصعدت للدور العلوي، وجدت جميع أبواب الشقة مغلقة ما عدا باب واحد يخرج منه صوت غناء فدخلت منه. كانت زهيرة تصلح السرير وظهرها جهة الباب فلم ترني. كانت لا بسة قميص رقيع مفتوح الصدر والظهر يستعرض للأنظار جزء كبير من لحمها الأبيض الملظلظ اللي ربما أغرى من كان لا يعرفها على حقيقتها مثلي. تنحنحت فالتفتت جهتي وصاحت مذ عورة: ((يو! خضتني يا بيه)). دفست رأسها بين المخدات كما تفعل النعامة اللي تدفن راسها في الرمل عندما ترى الخطر، ولكنها لم ترقد على بطنها وإنما سجدت على السرير رافعة عجيزتها. لا أنكر أنها اتخذت وضع مغري ويهيج ولكن على مين؟ فأنا أول من يعرف رخص هذه البضاعة المعروضة أمامي. قلت لها: - إنتي بتعملي كدا ليه؟

أخرجت وجهها من تحت المخدة من جهة عينها السليمة وقالت في غنج ودلال: - أنا خايفة لحد يشوفنا سوا.

أخذت طور جدي يليق بمدير بيت سري مع موظفة فيه، وقلت لها بصوت وقور: - وانا كمان ما أحبش حد يشوفنا، ولكن مش السبب اللي بالك فيه. ثم جلست على كرسي بكل وقار، فقالت: - يصح إن رجل بالبيجاما يقعد في أودة نوم مع مدمازيل زبي؟

t.me/qurssan

- مدمازيل قال! برضه إنتي تعتبري نفسك مدمازيل؟

لما رأت مني لهجة الجد وصرامة الكلام جلست على السرير وقالت: - أمال حضرتك عاوز إيه؟

- عاوز أعرف إيه الكبايات دي وقزازة الوسكي والسرير المنكوش. وبعد كدا تقولوا لي إنه مافيش زباين بييجواهنا.

- أنا باصلح السرير علشان كان من زمان منكوش.

- طيب والكبايات والقزازة وأطباق المزة دي كمان كانت منكوشة؟ وريحة الخمرة اللي فاقعة في الأودة دي؟

- أمال عاوز أودة في بيت رندفو تبقى ريحتها بخور؟

- لا يا ستي. لكن دا دليل على إنه كان فيها زباين.

- لا أبدا. دا من زمان يا خليل بك.

رأيت أنها مصممة على المراوغة والإنكار فأردت أخذها بالسياسة واللطف لكي أفك عقدة لسانها وتبوح لي بالسر. فجلست جنبها على السرير وطبطبت عليها قائلا: - إنتي يا زهيرة ست طيبة ما يصح تخبي علي، فأحسن لك تقولي الحقيقة.

وكنت أثناء كلامي هذا ألاطفها فأطبطب على كتفها تارة وعلى خدها أخرى، ولكن لم يأتي هذا البلف بنتيجة فقلت لها: - قولي لي الحقيقة وما تخافي. أنا دلوقت مدير البيت فأقدر أعطي لك مكافأة. قولي بقى مش بييجي زباين؟

الظاهر إن الوعد بمكافأتها أثر عليها لأنها قالت بعد تردد: - بس أنا خايفة من سيد والست الكبيرة.

لقد صدق تخميني إذن، فقد ظهر أن لحماتي ضلع في المؤامرة. قلت لها مشجعا: - ما تخافي من حد. اتكلمي. ما دمت أنا موجود فحا حميكي.

- الزباين بتيجي لما حضرتك بتكون برة.

t.me/qurssan

- لكن ساعات ما باخرج، ومع ذلك ما باسمع صوت الجرس؟

- أصل إحنا فهمنا الزباين إنهم يخبطوا على الباب الوراني فبندخلهم من هناك.

- كويس قوي! يعني فتحتوا الباب الوراني اللي كان ممسمر.

- أيوه، سيد فتحه بأمر الست الكبيرة.

لكي تسترسل في المزيد من اعترافاتها لففت ذراعي على كتفيها وقلت لها: - طيب وبييجي ناس كتير؟

لكن قبل أن ترد زهيرة على هذا السؤال سمعنا صوت امرأة عجوز يقول: - والله عال! ما شاء الله! خدوا راحتكم.

التفت فوجدت حماتي واقفة في منتصف الغرفة وهي متلفعة بطرحتها وسبحتها الطويلة معلقة في حزامها كالعادة، واستمرت في كلامها قائلة: - يخص عليك راجل دون! بقى تبقى مراتك تحت زي حتة الملبن وتيجي هنا تنام مع مزبلة الكره خانات دي؟

صدق المثل القائل ((ياما في الحبس مظاليم)). في الحقيقة كانت كل الظواهر ضدي، ولكني كنت استوفيت تحقيقي في هذه السرقة وتيقنت من اشتراك حماتي فيها فلم أهتم كثيرا باتهامها لي، وتحولت من موقف الدفاع للهجوم فقلت لها: - لا يا شيخة! وانتي يا ست الحاجة يا اللي زرتي الكعبة وحطيتي إيدك على شباك النبي، إزاي تسمحي لنفسك إنك تتفقي مع زبالة الكره خانات زي ما بتقولي علشان تسرقي غرباوي في غيبته؟

- فشر! مين قال الكلام دا؟ انت بتصدق مقشة الكره خانات دى؟

- ما هي المسألة باينة مش محتاجة لدليل.

- أبدا ما في دليل.

- كدا؟ أمال الفلوس اللي معاكي دي جات لك منين؟ يا الله تعالي معايا دلوقت ننزل نفتح صندوقك ونشوف فيه فلوس قد إيه، وتقولي لنا حضرتك جولك منين!

t.me/qurssan

- وصندوقي إيه دخله في الحاجات دي؟

- ما هي الحاجات دي اللي بتملا صندوقك.

- أبدا. أنا صندوقي نضيف ما فيه حاجة.

- طيب أنا حاشوفه قبله وبعدين نتكلم.

وتركتهم وذهبت نازلا السلام، فجرت ورائي حماتي وهي تصيح:
- بقى يا راجل يا شايب يا عايب عاوز تغطي خيانتك لمراتك مع رد الكره خانات دي تقوم تتمحك في صندوقي؟

- ما هو صندوقك اللي حيبرهن على إنك غلبتي غرباوي. دا غرباوي اللي بنقول عليه إبليس، يبقى ملاك طاهر بالنسبة لكي. تقدري تقولي لي مين اللي فتح الباب الوراني وبيدخل منه الزباين في السر وياخد منهم الفلوس يتقاسمها مع خدامين الكره خانة؟

- فشر قطع لسانك! هو أنا وش كدا؟

- وأكتر. دلوقت صندوقك اللي حيكشف المستخبي.

كنا نتبادل الحديث في هذه المحاورة أثناء سيري نحو شقتي والعجوزة تجري بجانبي بكل ما بقي فيها من قوة حتى وصلنا غرفتها. كأنما كانت زهيرة تريد أن تتشفى فيها فوجدتها معنا. أمرت زهيرة وشغالتنا نعيمة أن يفتحوا صندوق حماتي بسكين، ولكنها ارتمت على صندوقها فاتحة ذراعيها كاللبوة اللي بتدافع عن أشبالها وهي تصيح: - الحقوني! النجدة! الحرامية! امسكوا الحرامي!

من حسن الحظ أن العجوزة كانت مصابة بداء الصرع، يصيبها كلما تأثرت أو هاجت أعصابها. لذلك قبل أن تلم علينا بصراخها الجيران رأيناها تقع على صندوقها كجثة هامدة، حملناها لسريرها وأخذنا مفتاح صندوقها من شريط كان معلق في رقبتها. فتحنا الصندوق ورفعنا منه الملابس فأصبنا بذهول من كثرة الأشياء

t.me/qurssan

الغريبة اللي وجدناها في قعره.

أخرجنا من الصندوق بعض فصوص من اللؤلؤ، وما شاء الله ذهب كان عمي أهداها لنا بمناسبة ميلاد ابني عادل، وقطعة كهرمان كبيرة يظهر أنها كانت مقبض عصا، وطقطوقة سجاير فضة، وبضعة عقود من خرز ملون، وسبحتين وعلبة بدرة، وتلات زجاجات عطور كلها جديدة لم تفتح، وخمسة جنيه إنجليزي ذهب، وعملة فضية كثيرة، وأخيرا حزمة من أوراق البنكنوت ملفوفة باعتنا في ورقة جريدة. عددت الأوراق المالية فوجدتها سبعة وعشرين جنيه.

بينما كان بعض أفراد العائلة يرشوا الماء على وجه حماتي، كنت أنا رصيت على طرابيزة أشياء ذلك الكنز الغريب اللي كان مدفون في الصندوق.

أفاقت حماتي بعد قليل من غيبوبتها وقعدت على السرير، ثم نظرت لمحتويات صندوقها المرصوصة على الطرابيزة نظرة كلها حزن وتحسر، هزت رأسها بانكسار وقالت لي بهدوء: - بعد كل العشرة الطويلة دي ما كنت أفتكرك يا خليل حرامي.

- لا يا أبلتي أنا مش حرامي. أنا حاخد بس اللي أشوطيه من إيراد بيت غرباوي والباقي حارجعه لك.

وأخذت في إرجاع كل الأشياء لصندوقها ما عدا رزمة أوراق البنكنوت فإني وضعتها في جيبي، فصرخت حماتي بعد أن بدأت تدب فيها الروح قائلة: - لكن كل الفلوس دي مش بتاعت غرباوي، أنا لي فيها، كنت محو شاهم علشانكم للأيام السود.

- ياما فاتت علينا أيام سود وما شفنا منك قرش.

- ما حد يضمن المستقبل يا خويا. كنت مخلياها للأيام اللي يمكن تيجي أسود من كدا. وعلى كل حال أنا عاوزة فلوسي حلالي، دى حقي، تحويش العمر كله.

- طيب لكي كم حقلك في الفلوس دي؟

t.me/qurssan

بتوعي.

- يعني بالذمة كدا؟

- وحق رسول الله كدا، حتى اسأل زهيرة.

نظرت الزهيرة فقالت إن كلامها معقول، وبناء عليه سلمتها المبلغ اللي ادعت إنه تحويش العمر واللي لا بد أنها جمعته من مصروف منزلي.

t.me/qurssan

٢١

سمرت الباب الخلفي، وأظهرت لخدم الدور العلوي أني لن أبرح المنزل في المساء وسأبقى لمراقبة وفود الزائرين. كذلك لم تبرح حماتي في هذه الأيام غرفتها حتى لا تغفل عن حراسة صندوقها بعد أن غيرت مكانه القديم فوضعته في القبلة حتى لا يغيب عن نظرها حتى وهي تصلي.

كنت بدأت أتجاذب معها أطراف الحديث في اقتضاب أولا، ثم أخذ يزداد الحديث بيننا تدريجيا بشكل طبيعي إلى أن تم الصلح بيننا تماما. أمس جرني الحديث معها للكلام عن مقدار ما يحققه منزل غرباوي من أرباح من تجارته الحرام النجسة. فقالت: - أهي الدنيا كدا، ناس لهم بخت وناس لهم قليطة.

- يعني إيه؟

- يعني أهو غرباوي غايب واحنا عمالين نديرله بيته ونجيب له قرشين كويسين.

- رزقه يا ستي.

- وإيشمعنى يبقى رزقه وهو مش تعبان في حاجة؟ بقى دا برضه عدل؟

- قصدك إيه يعني؟

- بقى يعني مش عارف قصدي؟

- لأ.

- يا راجل شغل مخك شوية. ما دام البيت بيتنا واحنا اللي بنديره يبقى لزمة الغريب ييجي ياخد منا خيره ليه؟

- دي صنعته. هو احنا حنشاركه في صنعته؟

- وليه لأ؟

t.me/qurssan

- والله عال يا ست الحاجة! آدي اللي ناقص. يعني عاوزاني أفتح بيت سري على آخرالزمن؟

- يا خويا مش أحسن من قعدتك كدا إيدورا وإيد قدام؟

- يا ولية التقي الله. بذمتك إنتي مش مكسوفة من نفسك تقولي كلام زي دا؟ بقى بدل ما تلعني غرباوي عاوزة تعملي زيه. قال على رأي المثل ((علمناهم الشحاتة سبقوناع الأبواب)).

- خلاص يا خويا خلاص. ما انا عارفاك وش فقر. ما بقيت أقول لك حاجة.

غريب أمر هذه العجوزة. لا يفوتها فرضها وحاجة بيت الله ومع ذلك بلغ بها الطمع وحب المال لقبول التعريص. ربما وجد علماء علم النفس لطبيعتها هذه تعليلا شافيا، أما أنا فأظن أن هذه الرغبة استعداد طبيعي بل غريزة فطرية كانت كامنة فيها ومكبوتة في نفسها تحت ضغط البيئة الصالحة، ولكنها ما لبثت أن ظهرت بمجرد أن وجدت نفسها فى ظروف مواتية مناسبة، كالبارود اللي يبقى ساكن هادي كالتراب حتى إذا ما مسته النار انفجر. الظاهر إن حب التعريص كان كامن في طبيعة حماتي، تخفيه واجبات البيئة الشريفة اللي عايشة فيها.

هذا يذكرني بنكتة سمعتها من أحد أصحابي بالقهوة، حكى لي أن أرملة فقيرة كان لها طفل في الثامنة من عمره كلما شغلته صبي ورشة أو دكان رده لها ثانية المعلم قائلا إنه ((واد مش فالح)).
أخيرا لما أعيتها الحيل فكرت في أن تسلمه لمعرص مشهور كان يسكن في حارتهم اسمه عم علي ليعلمه صناعته، وطمنت نفسها بأن ذلك المعرص يعيش عيشة طيبة وأن صناعته وإن كانت غير شريفة إلا أنها صنعة توكل عيش، وصنعة في اليد أمان من الفقر. ذهبت بابنها لعم علي ورجته في استخدام ابنها صبي عنده ليتعلم الصنعة. قبل الرجل على مضض احتراما لحق الجيرة ولأنها ولية غلبانة. بعد يومين احتاج عم علي لإبلاغ رسالة لسيدة من زباينه فكلف صبيه الجديد بأن يذهب للسيدة في منزلها ويبلغها أن معلمه يطلب منها مقابلته فى الساعة الخامسة، ونبه

t.me/qurssan

عليه مشددا بالامتناع عن محادثتها إذا ما وجد زوجها معها في الشقة. بعد قليل رجع الصبي لمعلمه وأبلغه أنه أتم المهمة. سأله معلمه: - طبعا ما كانش جوزها موجود؟

- لأ كان موجود.

- يخرب بيتك! أنا يا واد مش منبه عليك إنك ما تكلمهاش قدام جوزها؟

- أيوه، بس أنا عرفت أفهمها كلامك من غير جوزها ما ياخد باله.

- إزاي بقى يا فالح؟

- راقبت الشقة من الشارع فشفت جوزها قدام الشباك، قمت ما طلعت لها، وإنما رحت تحت شباكها وطلعت كورتي من جيبي وفضلت أحدفها على الحيطة تحت شباكها وأغني للكورة وهي طالعة ونازلة وأقول ((اطلعي. انزلي. كلمي. عم علي)) لحد الست ما هزت لي رأسها من ورا الشباك، يعني إنها فهمت، فشاورست لها بإيدي على معصمي محل الساعة وفتحت لها صوابعي الخمسة فهزت لي رأسها تاني.

- يا ابن الأبالسة! دانت هايل!

بعد يومين ذهبت أم الطفل لمعلمه عم علي لتطمئن على حال ابنها، فلما سألته عنه قال لها: ((يا ستي خدي ابنك مش حاقدر أعلمه حاجة لأنه مولود من بطنك متعلم الصنعة جاهز)).

أظن إن حماتي من طينة ذلك الطفل اللي ولد وفيه هذا الاستعداد الطبيعي، كما ولد بعض العلماء مثل الإمام الشافعي اللي سمعت أنه حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين والفقه وهو في التاسعة، ومثل بعض الموسيقيين في أوربا اللي ألفوا قطع وقادوا فرق موسيقية قبل أن يبلغوا العاشرة من عمرهم.

t.me/qurssan

حصلت بالأمس في منزلنا فضيحة كادت تلقي بنا جميعا في قبضة البوليس لولا إن ربنا سلم. كنت في شقتي حوالي الساعة العاشرة مساء عندما سمعت جلبة وصياح رجل وصريخ امرأة صادرة من مدخل المنزل. أسرعت لهناك أستطلع الخبر فوجدت رجل وامرأة وبالقرب منهم سيد وزهيرة.

كان الرجل يجر المرأة نحو الباب الخارجي وهي تقاومه فكان يشتمها ويلعنها بأقبح الألفاظ ويعزز لعناته من وقت لآخر بكف أو لكمة، هالني الأمر وسألته عن السبب في وحشيته هذه في معاملة تلك المرأة فقال لى:

- أنا لا أعرف أنت مين، لكن باين عليك راجل كبير وتفهم. فبرضه يخلصك إنهم يقدموا لي في البيت اللي فوق دا الست دي ويطلبوا مني لها أجرة غالية لأنها من عايلة كبيرة وبنت باشا، فقبلت ولما دخلت معاها جريتها في الكلام علشان أعرف تبقى مين فقالت لي إنها بنت س باشا.

- طيب لحد هنا كويس.

- تمام. بس لما تعرف يا بويا إن س باشا دا يبقى والدي ومالوش إلا بنت واحدة اللي هي أختي وإنها متجوزة سكرتير أول سفارة وغايبة في أوربا بقى لها سنتين وتيجي المرة دي توسخ سمعتها بالشكل دا فأفتكر إن دا ما يخلص حد.

- تمام يا ابني معاك حق. بس يعني المسألة يمكن مش مهمة بالدرجة دي. الست دي بتكدب علشان تجر لها قرشين زيادة وسمعة أختك محفوظة في الوسط بتاعها.

- طيب وفي غير الوسط بتاعها، عند اللي ما يعرفوها، يبقى إيه الحال؟ افرض إن زبون الولية دي الليلة كان واحد غيري، ولا الزباين اللي كانت معاهم قبل كدا وهي عمالة تقول لهم كلامها الكدب دا، مش برضه يصدقوها وبكدا تتوسخ سمعة أختي؟ تأكد

t.me/qurssan

إن كل زبـاين هنـا بقـهم مـايسكت، يحبـوا يفتخـروا بعلاقاتـهم النسائية فيطلعوا من هنا يروحوا مشنعين على طول في سمعة أختي المظلومة. اتصور إني اتعرفت بواحد من دول مش يبقى في نفسه محتقرني ويتمسخر علي؟ يمكن لما أفوت قدام واحد منهم وهو قاعد على القهوة يقول لصاحبه ((شايف البيه اللي عامل نفسه فصل دا اللي ماشي قدامك ابن س باشا، أنا الجمعة اللي فاتت نمت مع أخته))، تبقى ازيها دي في حقي؟

- في الحقيقة معاك حق تزعل.

- علشان كدا لازم أربي المرة دي ومش حاسيبها إلا في القسم.

هنا رأيت الخطر المحدق بمنزلي وبجميع سكانه، وإن التحقيق هـذه المـرة سـيتسع ونقـع جميعا فـي قبضة البوليس، ولن نجد للخلاص منه سبيل خصوصا في غياب غرباوي لأني لبخة في مثل هذه المآزق.

حاولت أن أنقذ الموقف فقلت له:

- بس لاحظ يا ابني إنك لما تبلغ القسم حتفضح نفسك كمان، غير ما حتدخل بيت غرباوي في مشكلة.

- زي بعضه، أنا راجل لا يهمني أني أتوجد في بيت سري، لكن المرة المجرمة دي لازم يتعمل لها محضر دعارة ويشبهوها وتاخد جزاها.

- معلهش يا ابني المسامح كريم. دي غلطة منها وما بقت تعود.
هنا قالت السيدة وهي تبكي:

- والنبي قل له يا عم. أنا تبت خلاص على إيديكم وما بقيت أقول كلام زي دا أبدا. وانا ولية وبرضه بنت ناس، حرام عليك تفضحني في البوليس.

- بقى تبقي بنت كاتب ولا عربجي يا بنت الكلب وتدعي إنك بنت باشا؟

t.me/qurssan

- معلهش يا ابني مش علشان خاطرها لأنها يمكن ما تستحق، ولكن علشان خاطري وخاطر غرباوي اللي أفتكر إنك لازم تكون تعرفه وما تحب تتسبب في خراب بيته.

- أنا أعرف غرباوي حقيقي ولا أحب أضره، ولو كان هنا كنت اتفقت معاه على طرد المرة دي من بيته.

- أنا متولي أمر بيته في غيابه، وأتعهد لك بأن الولية دي مش حتعتب البيت دا تاني.

- وإيه اللي يضمن لي كدا؟

ناديت على سيد و زهيرة ونبهات عليهم أمامه بان لايسمحوا لهذه المرأة بالمجيء عندهم ثانيا، وزدت على ذلك بقولي:

- وعيب علي إني أضحك عليك خصوصا إنه ما لنا مصلحة في كدا لأننا مش ناقصين نسوان من العينة دي.

هدأ انفعال الرجل وقال للمرأة:

- أنا حاسيبك الدور دايا شرموطة يا بنت الكلب علشان خاطر الأفندي وخاطر غرباوي، ولكن إن سمعت إنك بتروجي إشاعات كدب زي دي في بيت تاني حاخلي سنتك سودا ومش حاعتقالك.

- ربنا يخليك، خلاص تبت ما بقيت أفشر تاني.

- طيب يا الله غوري انكشحي من قدامي وإياك تحطي رجلك هنا تاني.

ما صدقت المرأة أن سمعت هذا الكلام حتى طارت حمامة خارجة، وعندئذ استدار الرجل لسيد وقال له:

- رجع لي بقى السبعة جنيه اللي أخدتهم على داير قرش، ولما ييجي غربا وي بك حاشتكيكم له وأطلب منه رد شرف.

أسرع سيد في استجابة طلب هذا الزبون ومد له يده بالمبلغ المطلوب.

t.me/qurssan

أخذه الرجل وقال لنا قبل أن ينصرف:

- أحسن لكم تطلبوا الفلوس اللي عاوزينها من غير ما تروجوا لبضاعتكم بأسامي، لأن واجب البيت السري إنه يحفظ السر.

خرج الرجل، وأخذت في تعنيف سيد وزهيرة بشدة، فقال سيد:

- إحنا شفناها ست حلوة وشيك قوي فصدقناها إنها بنت باشا حقيقي وما نعرفش إنها نتاشة.

- وانتم مالكم اذا كانت بنت باشا ولا بنت كناس. مش لازم تجيبوا سيرة حاجة زي دي علشان تخطفوا لكم جنيه ولا اتنين زيادة يا أونطجية.

رجعت لغرفتي وأنا أفكر في كيف أن المومسات تجني على سمعة ربات البيوت الأشراف، وكيف أن هؤلاء الفاجرين اللي بيترددوا على بيوت الدعارة يتأثروا بالمركز الاجتماعي للمرأة اللي سيضاجعوها أكثر من تأثرهم من جمال قوامها ونعومة جلدها، مع إنهم لا يطلبوا منها إلا إطفاء شهوتهم الحيوانية، ولرب امرأة خفير أكثر متعة في السرير من امرأة وزير.

t.me/qurssan

٢٣

بينما كنت في غرفتي أمس مساء، إذا بسيد يدخل علي وفي صحبته راشد بك اللي كانت ظبطته زوجته في منزلنا قبل نحو شهر ونصف وعملوا عندنا فضيحة لا أنساها.

كان راشد بك لابس السواد. كله أسود في أسود كأنه في حداد. كان ظهر عليه في هذه المرة سنه لأنه كان يمشي بخطى وئيدة ويتكلم بصوت رزين. سلم علي باشتياق كاننا أصدقاء قدام تلاقوا بعد طول الغياب. رحبت به من باب الذوق وسألته عن حاله، فقال: - اسكت يا خليل أفندي! لو تعرف اللي جرى لي.

- كفى الله الشر! إيه؟ المعاجين بقت ما بتأثر؟

- لا يا شيخ انت كمان، معا جين أيه و بتابع أيه ما خلاص سبت الحاجات دي.

- مبروك. أحسن.

- انت مادريت؟

- لأ. بإيه؟

- مش مراتي اتوفت الله يرحمها.

- الله يرحمها ويصبرك.

- أهو من ساعة موتها وأنا ضاقت الدنيا في وشى.

- الله يصبرك ويكون في عونك.

- كتر خيرك.

- لكن يعني يا راشد بك تسمح لي بسؤال صريح يمكن رذل شوية؟

- اتفضل اسأل.

t.me/qurssan

- يعني صحيح إنت زعلان عليها قوي؟

- إلا صحيح دي كمان؟! ودي بدها سؤال؟

- أصل علشان شفت من كلامك عنها وعن الفصل اللي كان حصل بين كم هنا قدامنا قبلى...

- دا ما دخل ولا خرج في المحبة يا خليل أفندي. دا شيء ودا شيء. فدي كانت أم أولادي وعشرة العمروزي أمي وأختي، وكنت معتمد عليها تغمض لي عيني ساعة الأجل لولا إن أجلها جه قبل أجلي.

- وازاي توفت كدا فجأة مع إنها كانت في غاية الصحة؟

- الموت دا ورانا في كل وقت ما يعرف صحة ولا مرض، وعلى رأي المثل ((إزي عيانكم قالوا سليمنا مات)). جالها التوا فجائي في المصارين فعملوا لها عملية الظاهر إنها طلعت متأخرة لأنها ماتت بعدها بتلات أيام.

- الله يرحمها ويحسن إليها ويصبرك.

- ألف رحمة تتنزل عليها.

- ويا ترى ايه بقى اللي فكرك إنك تشرفني بزيارتك؟

- في الحقيقة أنا جيت أسأل عن غرباوي، ولكن سيد قال لي إنه لسه غايب، قلت لما أزورك انت.

- أهلا وسهل ا. فيك الخير.

- ما أخبي عليك يا خليل أفندي أنا كنت جاي له ليه. يمكن انت كمان تقدر تفيدني بفكرك في موضوعي.

- اتفضل احكي لي يا سيدي.

- بقى بعد وفاة المرحومة انسدت نفسي عن الهلس والصرمحة اللي كنت فيهم، فقلت لنفسي أحسن أبطل الحاجات اللي لا تليق بسني وبتأثر في صحتي.

t.me/qurssan

- خير ما فعلت.

- لكن في الوقت نفسه كانت الوحدة بتضايقني وتكتم أنفاسي، لأن أولادي زي ما انت عارف كلهم متجوزين و عايشين لوحديهم، فشفت إني لا أقدر أعيش كدا بطولي وحداني في آخر أيامي.

- وعلى كدا نويت على ايه؟

- نويت أدور لي على بنت حلال تعيش معايا.

- فى الحالة دي يكون مجيك لغرباوي غلط لأنه مش دا اللي يقدر يجوزك!

- يجوزني إيه يا جدع انت؟ هو أنا جبت سيرة جواز؟

- اللّه! مش بتقول عاوز تعيش مع بنت الحلال؟

- أيوه، ولكن مش بالزواج. إنت عارف إن دامش ممكن لسببين على الأقل: الأول إني ما أقدر أتجوز فأزعل أولادي، والثاني إنه في سني دامش ممكن ترضي بى شابة من عايلة كويسة تليق بي.

- يا سيدي مش ضروري شابة. شوف لك أرملة ولا عانس كبيرة في السن شوية.

- طيب ونبقى عملنا إيه؟ راحت مراتي العجوزة اللي كنت متعود عليها علشان أقع في عجوزة تانية ما أعرفهاش ومش واخد عليها؟

- طيب والحل إيه أمال؟

- اللي ينقذ الموقف هو إني أعيش معيشة زوجية حرة مع شابة حلوة لطيفة بدون جواز، يعني متريشة.

- و علشان كد جيبت لغربا وي يدلك عليها؟

- تمام. آديك فهمت.

t.me/qurssan

داغصب عني زي ما بيقولوا ((مكره أخاك لا بطل)).

- تمام. أنا عارف ظروفك وإنك راجل دقة قديمة لسه متمسك بمبادى زمان، الواجب والشرف والكلام دا.

في الحقيقة سرني سماع الرجل وهو يثني علي بهذه الصفات ولو أنه أراد بها السخرية مني. كان مبعث سروري أني لم أكن في نظر الناس، خصوصا في نظر أحد زباين غربا وى، قواد حقير يعمل مساعد لغرباوي. قلت له: - وبتقول كدا رغما عن إنك عارف صلتي بغرباوي؟

- طبعا. لكن يمكن تكون من شغلك فى غيابه تعرف لي حاجة توافقني.

أي أنه رغما عن اعتقاد الرجل في تمسكي بمبادى الواجب والشرف فهو لا يتورع من أن يطلب مني أن أعرص له. قلت له: - والله ما كا نش يتعز، انما إنا مالي دعوى بيت غربا وي إلا من الجهة المالية.

- خسارة! أنا قلت يعنى يمكن انت... نهايته بقى، أستنى لما يرجع غرباوي.

لاأدري كيف قفزت هنا في فكري قصة نادية وعائلتها. أليس هذا الرجل الجالس أمامي هو ضالتهم المنشودة؟ جميع الشروط اللي اشترطتها نادية متوفرة فيه، فلماذا لا أخدم الطرفين كأصدقاء ما دام ذلك في مقدوري؟

لا شك في أن الصدف السعيدة أو الإرادة الإلهية هي اللي ألهمتني في أن أكون واسطة خير بين هذين الطرفين المكملين لبعضهم. قلت له: - إنت حظك من السما يا راشد بك، فأنا ولو إني غشيم زي ما انت عارف إلا إني يمكن أقدر أقدم لك الخدمة دي، وعلى رأي المثل ((يوضع سره في أضعف خلقه)).

- أما يا خليل أفندي لو قدرت تقدم لي شابة توافقني تبقى رجل عظيم.

t.me/qurssan

يا الله! قضيت مقتبل عمري في العمل في التجارة وآخره في خدمة الحكومة ولم يقل لي أحد طول عمري أني رجل عظيم، والآن أجد من يقول لي ذلك بمجرد أن بدأت أخطو الخطوة الأولى في أعمال التعريص. يا لسخرية القدر! قلت له: - في الحقيقة الظروف خلتني أتعرف بشابة بتدور عن واحد زي. سعادتك تمام كدا.

- ويطلع عمرها كام؟

- زي عشرين سنة.

- عال. وحلوة؟

- تقول للقمر روح وأنا أقعد مطر حك.

- عال عال يا خليل أفندي، أهي دي الموصوفة لي، في عرضك لايمني عليها.

- بس ما أخبى عليك، الشابة راضية تدخل المقدر علشان تعول عايالتها فوراها مصاريف، داغير ماهي عاوزة تعيش هي كمان عيشة أبهة يعني لوكس.

- معلهش. أنا قلدها وقدود.

- يعني لا تتردد قدام التمن مهما كان غالي؟

- ولابيهمنى. الاشيا معدن والحمد لله.

- وكمان بتشترطانها تكون حرة في عيشتها ما تحبسها.

- طبعا، وانا من بتوع الحاجات دي!

- لا أخبي عليك كمان إنه كان لها علاقة مع اتنين شبان بيتخانقوا عليها.

- وانا أبقى التالت.

- بس دول شبان يا بيه وسعادتلف يعنى... ولا مؤاخذة.

t.me/qurssan

- ولا يهمك. أنا أغلبهم بفلوسي.

- والله إنت حر. أنا عملت اللي علي ومدخلك على نور. ماليش دعوى باللي يجرى بعد كدا.

- مالالت دعوى يا سيدى.

- خلاص، إن كان كدا أخليك تقابلها.

- إمتى؟

- بكرة، بعده، أهو اليومين دول.

- لأ، بكرة إن شاء الله، خير البر عاجله.

- يا سلام! دانت مستعجل على ((البر)) دا قوي!

- طبعا. مش الواحد بيعجزيوم عن يوم. فانت تفوت عليها بكرة الصبح وتتفق معها تقابلي هنا الساعة سبعة.

سرنى اقتراحه مقابلتها هنا، حتى لا يرى مسكنها الحقير وحيها الفقير، ولا يدخل في مناقشات مع الأم والخالة ولا يرى الجد. قلت له: - أمرك يا سيدى، بس مع فرق بسيط و هوان مقابلتكم تكون في الدور الفوقاني ومش عندي هنا لأني لسه ما فتحت بيتي للحاجات دي.

- زي بعضه، مطرح ما يريحك.

بعد لحظة ودعني راشد بك وخرج بخطى أخف من تلك اللي دخل بها و قد ارتسمت على وجهه علامات البشر والسرور.

t.me/qurssan

ثاني يوم ذهبت لمنزل نادية صباحا بعد أن اجتزت الأزقة المغبرة وتخطيت أكوام الزبالة واخترقت صفوف الأطفال اللي أصابتني منهم في ظهري كرة كانوا بيلعبوا بها. من حسن الحظ إنها كانت كورة شراب حنينة فلم تكن ضربتها مؤلمة. شرحت لنادية وأهلها الموضوع فدعوا لي بالخير، وتواعدات مع نادية على الحضور في الميعـاد، وتركتـها بعـد أن أعطيتـها عنـوان منزلـي ووصـفت لـها الطريق إليه.

الساعة السادسة والنصف تقريبا كان عندي راشد بك، وحوالي الساعة السابعة دخل علينا سيد معلنا وصول نادية، فأخذت راشد بك معي وأسرعنا لاستقبالها. بعد أن عرفتهم ببعض اصطحبتهم للدور العلوي وتركتهم في خلوة في إحدى الغرف، ونزلت لشقتي بعد أن وصيت بهم زهيرة خيرا.

بعد نحو ساعتين قرع راشد بك باب غرفتي، ودخل وقد تهللت أسارير وجهه بالفرح وظهر كأنه رجع عشر سنين لورا، وقال لي:

- خلاص، بارك لي بقى. اتفقنا على كلى شيء. حاوصلها دلو قت بيتها و بكرة حنتقابل و نو ضب معيشتنا الجديدة. دي خدمة مش حانساها لك العمر. خد دي هدية بسيطة تعبر عن شكري.

ودس يده في جيبي بنقود. حاولت منع يده قائلا:

- دي مش صنعتي علشان آخد أجرة عنها. أنا عملت دي خدمة من باب الصداقة فما أقدر آخد عليها أجرة.

- يا را جل ما تقول كدا. دانت و فقت بين راسين فتستحق أجر تك قوي. دانت عملت فينا ثواب زي ما تكون وفقت بيننا في الحلال. اتمسى بالخير.

وقبل أن أتمكن من إرجاع نقوده كان خرج مهرولا للباب الخارجي حيث كانت تنتظره نادية. رأيتهم خرجوا معا وابتلعهم ظلام الشارع. ليت شعرى ماذا يخبئه لهم ظلام المستقبل!

t.me/qurssan

أخرجت النقود من جيبي وعددتها فوجدتها عشر جنيهات، يعني قدر إيجار شقتي العادي عن شهرين. ماذا فعلت حتى ربحت هذا المبلغ؟ و كيف أستحله لنفسي؟ ضقت ذرعا من الاستماع لوخز ضميري، فاجتهدت أن لا أفكر وأن أشل عقلي وأعمي عيني وأصم أذني، ودفست في جيبي أول نقود كسبتها من التعريص وأنا أقول لنفسي حلال كلناه حرام كلناه.

صرفت الكثير من العشر جنيهات اللي ربحتها أخيرا لا بعرق جبيني وإنما بإهدار شرفي بعد أن تمكنت من إسكات صوت ضميري في لومه على أخذي تلك النقود الملعونة، وغالطت نفسي بقولي إن المعيشة تحكم بذلك، وإذا كنا سندقق النظر في حلال وحرام كل قرش يقع في يدنا فإن دولاب الأعمال كان يقف تماما في هذه الدنيا.

كنت أطمن نفسي بأني لم أسعى في الشر ولم أؤثر على أحد الطرفين، وإنما هم اللي جاء وا لعندي يرجوني أن أؤدي لهم هذه الخدمة، ولئن كنت قمت بها فما كان ذلك من أجل العجوز المستهتر راشد وإنما كان من أجل إنقاذ عائلة نادية المسكينة، وأنا لا أزال أتخيل أمامي دموع أمها وخالتها، ويطن في أذني صوت سعال وحشرجة جدها وتخريفاته. أليست مساعدة هؤلاء البؤساء عمل إنساني؟ إن كان راشد بك صمم بعد ذلك على أن يعطيني هدية حسب تعبيره، فلا ذنب لي فيها، وكما يقولوا ((النبي قبل الهدية))، أستغفر الله على ذكري اسم النبي في مثل هذا المجال القذر.

يا إلهي! كيف أتخلص من عذاب الضمير؟ إنهم يقولوا ((يقظة الضمير)) ولكني أشعر أن ضميري لم ينم قط حتى يستيقظ، و انما كان دائما صاحي يطاردني بأشد عبارات اللوم والشتائم كأنه مرض مزمن لا يكف عن تنغيص حياتي.

لماذا يعذبني ضميري بينما لا يشعر غرباوي وحماتي بل ومئات وألوف من المجرمين بعذاب الضمير؟ أظن أن المسألة مسألة طبيعية واستعداد وأعصاب. ارتكاب الجريمة نفسها سهل. تضع

t.me/qurssan

يـدك بكـل خفة فـي جـيب راكـب تـرام وتنشـل منـه محفظتـه وتأخذها بكل سهولة وتنصرف. تشهر مسدس أو سكين في وجه انسان و تقول له ((سلمني محفظتك وإلا قتلتك)) فيسلمها لك وتأخذها بكل بساطة وتنصرف. تطلق رصاصة من مسدس أو بندقية على رجل فتقتله وتنصرف. ارتكاب الجريمة في حد نفسه يبدو أمر سهل ولكن أين اليد اللي يستطيع صاحبها أن يتحكم فيها لارتكاب الجريمة؟ إن تلك اليد في حاجة لأعصاب حديدية تحركها، والأهم من ذلك هو فترة ما بعد الجريمة اللي تخنق أنفاس المجرم، كيف يستطيع أن يهنأ بطعام أو شراب أو منام؟ هل يمكن أن تهدأ له نفس أو يغمض له جفن؟ يجب لذلك أن يكون خالي من الإيمان معدوم الضمير، لا يفكر في محاسبة نفسه. لذلك يستحيل أن أصبح يوما مجرم شرير لأني حتى لوغصبت على نفسي في ارتكاب جريمة فلن تهدأ أعصابي ولن بيسكت عني ضميري إلا إذا ذهبت فسلمت نفسي للبوليس.

رغم كل ذلك فإني ما زلت أشعر بوخز ضميري لأنه أسهل على الإنسان أن يخدع الناس من أن يخدع نفسه. اللص والنصاب والقواد يتظاهروا أمام الناس بالشرف فينجحوا في خدعهم، ولكنهم يعرفوا حقيقة أمرهم في دخيلة أنفسهم فلا يستطيعوا أن يخدعوا أنفسهم. يقظة ضميري واجهتني هنا بمشكلة أخرى هي أني أخذت أفكرفيما إذا كان المبلغ التي أخذته من راشد بك من حقي أنا أم من حق غرباوي أم من حقنا نحن الاثنين؟ إني استحوذت على المبلغ لنفسي من أول وهلة بحسن نية على اعتبار أني قمت بكل تلك العملية دون أن يكون لغرباوي دخل فيها، ولكن ضميري – هل أقول لعنه الله أم باركه الله – يوسوس في نفسي قائلا: ((لا، لم تقم أنت بالعملية منفردا. فهل كان راشد بك يكلفلك بهذه المهمة لولا صلتك بغربا وي؟ ألم يزورك إلا لأنه وجد غرباوي متغيب واعتبرك وكيله؟ وهل كانت هدى أم نادية تذهب إليك تشكو حالها وتطلب منك العون والمساعدة لولا أنها جاءت قاصدة غربا وي؟ إذن فغرباوي هو صاحب المحل اللي قصده كل هؤلاء وما كنت أنت إلا مستخدم فيه تعمل لحسابه، فمثلك فى أخذ هذا المبلغ مثل البائع المستخدم فى دكان إذا ما

t.me/qurssan

استحوذ لنفسه على ثمن سلعة باعها منه، أو المحامي أو المحاسب الموظفين في مكاتب كبيرة إذا ما أخذوا لأنفسهم أتعاب قضية جاء بها صاحبها للمكتب)).

كانت هذه الأفكار تؤرقني. لم تكن تخلو من قسط كبير من الحقيقة حتى إني كنت أجد صعوبة في تفنيدها. أخيرا هداني تفكيري لحل وسط هو لئن كان ما يقوله لي ضميري دفاعا عن حقوق غربا وي صواب، فيجب أن لا ننسى أني أنا أيضا قمت بدور كبير في الصفقة بل بالدور الأول والوحيد في نجاحها، فلولاي لما تمت الصفقة، حينئذ يجب أن يكون من حقي نصف ذلك المبلغ على الأقل. اقتنعت بصحة هذا الرأي فأخذت خمسة جنيهات من العشرة وأضفتها لإيراد منزل غرباوي في الصندوق الصغير المخصص له.

بعد ذلك شعرت بشيء من الراحة والطمأنينة، وزال عنى ذلك القلق النفسي اللي كان لا يفارقني. سرني ذلك لأنه كان علامة جديدة على أنه لم يزل عندي ضمير حساس رغم كل المغامرات القذرة اللي مررت بها، لكن تلك المغامرات وأزمة الضمير اللي هزت كياني أثناء هذه الشهور الأخيرة أثرت في صحتي، لأني أصبحت قليل الأكل مصاب بالأرق، وبدأت أشعر منذ يومين بصداع غريب متقطع يدل على ازدياد ضغط الدم اللي باشكو منه. يجب أن أستشير طبيب اذا استمريت على هذا الحال.

t.me/qurssan

هـا أنـا أعـالج نفسـي مـن ضـغط الـدم ومـرض السـكر حسـب أوامرالطبيب اللي منعني من التدخين وقال لي إن أهم علاج لي هـو عـدم الفكر والهياج العصبي. ما أسهل على الطبيب من أن ينصح مرضاه بقوله ((لازم ما تشيل هم ولا يكون عندك فكر))، لأنها مجرد أقوال يرددها وهو أول من يعلم استحالة تحقيقها في هذه الدنيا اللي قال عنها الشاعر العربي: ((من سره زمن ساءته أزمان)).

الطبيب نفسه أول من يعجز عن عدم التفكير في صحته إذا ما مسه الضرر.

أما التدخين فعادة ضارة سيئة تستعبد الإنسان ويصعب عليه الخلاص من أسرها. لم أجد عندي الإرادة الكافية للامتناع عن التـدخين تمـاما، ولكنـي توصلت للإقلال منه باستعمال طريقة ابتـدعتها وهـي أنـي كلمـا ضـربت يـدي فـي جيبي لإخـراج علبة السجاير أسائل نفسي: ((هل يعني من الضروري قوي إني أشرب سيجارة دلوقت؟)) ويكون الرد بالنفي في أغلب الأحيان فأتركها ولو لحين.

بينما أحاول أن لا أحمل الهم وأن أروح عن نفسي قدر المستطاع، إذا بـي أصـاب بمصـيبتين تكفـي واحـدة منـهم لأن تسـمم بـدني وتعكر حياتي.

الأولـى أن بنتـي إخـلاص اختفـت من المنزل منذ ثلاثة أيام، لا نعرف مصيرها، أصبحنا نعيش كأننا في مأتم. بلغت البوليس ثاني يـوم اختفاعها فتحرى عنها فـي الحوادث والمستشفيات بدون جدوى.

بينما أقاسي من آلام غياب بتي وفكري بيودى ويجيب إذ دخل علي بالأمس سيد وقد شقت وجهه ابتسامة عريضة، بعد التحية قال لي ((مبروك يا بيه))، فلما سألته عن السبب أجابني: - علشان جواز سى عادل ابنك.

t.me/qurssan

- طبعا، هو حضرتك ما عندك خبر؟

- و تعرف تزوج مين؟

- طبعا، مين ما يعرف؟ اتجوز الست انشراح هانم المشهورة.

- ودي تبقى مين؟

- از اي؟! بقى حضرتك ما سمعت كمان عن انشراح هانم؟

- أصل أنا راجل فى حالى لا أعرف أخبار الدنيا.

- الست انشراح دي تبقى أرملة غنية قوي. عندها عزب إيه وعمارات إيه وتلات ترمبيلات كل واحدة أكبر من الأودة دي.

- طيب واللي زي دي تتجوز ابني الشاب الغلبان ليه؟

- أصل هي بلا قافية صاحبة مزاج. تحط عينها على الشاب اللي يعجبها و تروح متجوزاه. و يا سعده بقى! مين قده يتنعم في نعيمها! بس يا خسارة لايدوم دا، يمكن المحروس ابنك يطلع سابع جوزلها.

- بقى كدا؟ ودي يطلع عمرها كم على كدا؟

- مش عجوزة قوي، تطلع زي خمسين سنة.

عرفت الآن لم هجر ابني منزلنا منذ نحو أسبوعين وترك أمه موسوسة عليه. أسرعت أطمنها على أنه لا يزال حي يرزق، بل ويرزق بسعة من أموال انشراح هانم. لكنه بالنسبة لي أصبح في حكم الأموات لأني لا أقبل أن يكون ابني زوج لمثل هذه العجوزة الغنية المستهترة اللي بتشتري الأزواج، يعني أصبح شرموط ((جيجولو)) تستأجره عجائز النساء.

الغريب في الأمر إن عادل لم يذكر لنا شيء من ذلك. هل كان من خجله وكسوفه من هذا الزواج أم لأنه كان لا يريد أن يساعدنا

t.me/qurssan

بشيء مما أعطاه الله، بل مما أعطاه الشيطان؟ ما أشد عقوق الأولاد!

قبلت أنا، أن ألوث شرفي من أجله هو وعائلتي وصرفت عليه مما دخل في يدي من مال حرام، ولكنه هو، يرفض أن يشركنا في ماله القذر. فليهنأ به، فوالله لو عرض علي منه مال قارون لما قبلت منه مليم. كفاني ما أنافيه من ذل و هوان. شاركت القوادين في أجرتهم فهل أستمر في تدهوري الأخلاقي فأشارك الشرموط أيضا في أتعابه؟

بنتي ضائعة عمليا وابني ضائع أدبيا. رحمتك يا رب! سألاقيها منين ولا منين؟

t.me/qurssan

ذهبت بالأمس لقسم البوليس بناء على استدعاءه لي بواسطة عسكري. سألني الضابط هناك عما إذا كانت بنتي الغائبة حسنة الصوت تحسن الغناء. دهشت لأول وهلة من هذا السؤال اللي ليس له مناسبة في موضوع غيابها، ولكني عرفت بعد ذلك مناسبته لما قال لي الضابط إن بنتي تشتغل مغنية في صالة الفردوس.

أعطاني عنوان تلك الصالة وقال لي إنه يمكني مقابلتها هناك والاتفاق معها وإذا احتجت لأي مساعدة قانونية فالبوليس مستعد لمساعدتي لأن الفتاة لا تزال قاصرة. شعرت كأن ذلك الضابط صب على رأسي حلة مياه مغلية. خرجت من القسم أترنح في مشيتي كالسكران حتى وصلت منزلي. أطلعت أمها وسائر أفراد العائلة على الخبر. فرحوا و قالوا ((الحمدلله على سلامتها))، و تعجبوا من أني بقيت حزينا عابس الوجه لا أشاركهم فرحتهم فقلت لهم: ((أفرح على إيه؟ أفرح على إني دفنت بنتي بالحيا؟ خلاص ما لي بنات)). ساءهم كلامي هذا وأرادوا أن يهونوا علي الأمر بقولهم: ((مش أحسن إنها بقت مغنية بدل ما تكون رقاصة ولا بتشتغل في بيت زي اللي فوقنا ؟)). طبعا مصيبة أخف من مصيبة ولكن كان الأحسن أن تبقى طالبة مستقيمة تكمل دراستها كما أعددناها.

كيف يهجرمنزلي في نفس الوقت تقريبا ابني وبنتي ليزاولوا هذه المهن المشينة: شرموط ومغنية؟ هل كان ذلك بمحض الصدفة؟ فكرت في الأمر مليا و قلبته على جميع وجوهه. هل هجر هذين الفرخين عشهم هربا مما و جدوه فيه من قذارة و فحش؟ لكنهم لم يذهبوا لما هو أنظف منه كثيرا!

أترى هل تسرب إليهم سم الثعبان الأسود القابع في الدور الأعلى؟ ليس ذلك بمستبعد لأنه كان كلمني عن أمر تربيتهم. هل اتصل بهم واتصلوا به؟ قمت من فوري أسأل أهل منزلي عما إذا كان أحد منهم رأى بنتي أو ابني يتكلموا مع غرباوى. ضيقت الخناق

t.me/qurssan

في سؤال حماتي لأنها كانت أكثرهم اتصالا بالشقة العليا فقالت:

- لاجل الحق، أنا طلعت مرة فوق علشان كنت عاوزة حاجة من زهيرة، فسمعت صوت إخلاص بتغني فدخلت عليها الأودة لقيتها قاعدة بتغني لغرباوي، فخانقتها وشتمتها وطردتها على تحت و كمان وبخت غربا وي.

- وهو قال لك إيه؟

- قال لي على ما أتذكر: ((بتزعلي ليه يا خالتي؟ دي زي بنتي وقلبي عليها ففيها حاجة لما أكون بامتحن مواهبها الطبيعية ؟)).

زال الشك ووضح اليقين. من المؤكد أن غرباوي هو سبب نكبتي هذه. لا شك في أنه هو اللي شجع بنتي على احتراف الغناء – واليوم غناء و غدا الله يعلم مايكون وراعه – وهو اللي أعطاها عناوين مغنيين وأصحاب صالات، وربما كان قدمها لهم وأوصاهم عليها. هذا يفسر غيابها الكثير في الأيام الأخيرة بحجة المذاكرة مع زميلاتها، بينما كانت تتردد على مديرين الصالات.

كـذلك كـان أمـر عـادل اللـي كـان مثـل القطـة المغمضـة، فكـيف استطاع أن يتعرف على مثل انشراح هانم هذه و هو بعيد كل البعد عن بيشتها وأوساطها؟ لا شك أن لغرباوي يد في ذلك أيضا، وأنه هو اللي فتح له أبواب هذه الأوساط القذرة ثم دفعه فيها دفعا.

لكن هل أرمي كل اللوم على غرباوي؟ يجب أن أكون عادلا حتى مع نفسي. ليس بمستغرب على غرباوي أن يفعل ذلك لأنك إذا آويت في غرفتك ثعبان فلا تندهش إن وجدته نهشك أو نهش أحـد أولادك. ليس الذنب هنا على الثعبان فهذه طبيعتـه، ولكن الذنب من أدخله في بيته.

كنت أقول عن غرباوي إنه تلميذ إبليس، ولكنه ظهر أنه أستاذ إبليس، مما يذكرني ببيت شعر قديم:

وكنت امرءا من جند إبليس فارتقى

t.me/qurssan

بي الحال حتى صار إبليس من جندي

أظنني المسؤول الأول عن هذه الفاجعة، لأن أكبر مؤثر في تربية الأولاد هو القدوة. فلا فائدة من أن تعلم ابنك الأدب في الحديث إذا كان يسمعك تنطق بفحش القول وبذيء الألفاظ. لا فائدة من تعلم ابنك الأمانة إذا كان يراك تسرق غيرك.

ألم أقدم لهم القدوة السيئة عندما رأوني أدخل غرباوي في منزلي ثم رأوني أتكسب من وراء ما يأتيه من فحش وفجور ثم رأوني بعد ذلك أنفق عليهم من ذلك المال النجس الحرام؟ فلماذا لا يقتدوا بي؟

ألم تكن أفعالي هذه تهدم كل ما لقنتهم من مبادى الأخلاق والشرف؟

كان لساني يحضهم على مكارم الاخلاق بينما أعمالي تقول لهم: ((لا تصغوا لهذا الكلام الفارغ. هذه مجرد ألفاظ جوفاء يرددها لكم أبوكم ولا يعمل بها. الحياة عاوزة النجاح ولا بد للنجاح من الحصول على المال بكل الطرق. قيمتك في القرش اللي في جيبك)). ألا قاتل الله المال! إنه وحش كاسر يفترس كل من يجده في طريقه. قضى علي وعلى أولادي دون أن تنفعني الهلاهيل اللي بقيت عندي من ثوب شرفي. كنت أحسب أني أستطيع أن ألعب بالنار دون أن أحترق بها، ولكنها أحرقتني تماما. اللهم عفوك وغفرانك وليكن هذا هو كل عقابك.

t.me/qurssan

أخيرا ابتسم لي الحظ فوجدت بواسطة أحد أصدقائي وظيفة كاتب حسابات مساعد في إحدى الدوائر الكبيرة مرتبها عشرة جنيه. ما لهم؟ نعمة من ربنا. حلوين. قرش حلال أبرك من مائة حرام. وربنا يغنيها بالحلال.

اتفقت مع وكيل الدايرة وسأستلم العمل قريبا من أول الشهر. فقدت مورد غرباوي الحرام وها هو يفتح الله علي بمورد رزق شريف. ربنا عوضني خير. لكن هل هذا التعويض مجزي؟ هل قيمتي اليوم، أنا اللي كنت ماسك جزء كبير من حسابات وزارة، عشرة جنيه شهريا فقط؟ هذا هو الواقع لأني عاجز عن مزاولة أي عمل حر بعد أن صدأ مخي طول هذه السنين الطويلة اللي قضيتها فى روتين خدمة الحكومة.

ما أنا اليوم إلا مثل آلة كاتبة مهملة مصدية، خمد ذهني وضعف تفكيري، ولولا شغفي الطبيعي بالقراءة لكنت اليوم أجهل من دابة. على أن قراءاتي هذه في الأدب والتاريخ ما هي إلا ترفيه نفسي وتسلية ذهنية، تساعدني على قضاء الوقت، دون أن يكون لها أي قيمة عملية أو مادية، ولست الوحيد فى ذلك فقلما كفل الأدب الرزق لصاحبه. على أن قراءاتى الأدبية والتاريخية هذه كانت تنقصها قراءات دينية، مما جعلني أشعر بأني كنت عاجز عن إفحام غرباوي في محاوراته الإلحادية معي، وسأذهب غدا أو بعد غد إلى أحد مشايخ الأزهر وأسأله الرأي في طعون غرباوي على الأديان حتى أزيد إيماني اطمئنانا.

سأسأله عن مسألتين قالها غرباوي ولم أدونها فيما سبق من هذه المذكرات، والمسألة الأولى قوله: ((هل يدخل أديسون مخترع الكهرباء جهنم؟ المتزمتين يقولوا نعم لأنه لم ينطق بالشهادتين، ولكن الله العظيم العليم اللي يعرف أنه لم تصل مسألة الشهادتين هذه لسمعه إلا ربما عرضا يعلم أنه أضاء بفضل اكتشافه الإنارة الكهربائية جميع المساجد الإسلامية في العالم بما يستحق عليه أن يدخله الجنة، بل ومن أكبر أبوابها)).

t.me/qurssan

والمسألة الثانية هى ما قاله إلى مرة ذلك الكافر الملعون: ((كيف يعصي إبليس أمر الله له بالسجود لآدم ثم يتحداه بأن يغوي عباده، ورغم كل هذا لا يعاقبه الله بحرقه وإعدامه وإنما يكتفي بأن يلعنه هو ومن اتبعه إلى يوم الدين، مع أنه لو جندي عصى اليوم أمر ظابط لجلد وسجن؟ وإذا كان الله عجز أو لم يرد إعدام إبليس اللي هدده بأنه سيغوي عباده، كيف بعد ذلك يحق لله أن يحاسب من اتبع من سلطه الله عليهم؟ ولا يصح القول إن ذلك لاختبارهم فحسبهم هواهم وأنفسهم الأمارة بالسوء)).

في الحقيقة مسكين غرباوي لأنه يعيش بدون دين، فالعالم بدون أديان لا يكون له معنى ولا هدف، فحياة الملحد فاضية ليس فيها أمل يحبب إليه الحياة وتنتهي نهائيا بالموت وتصبح لا شيء.

أما ما يقوله غرباوي من أن الأديان عبارة عن حكايات وأساطير وخرافات ومعجزات غير معقولة، فهذا أمر لا بد منه، وإلا لما احتاج الدين لإيمان وإنما لعلم عقلي فلسفي، فمن يريد أن يؤمن بعقله لن يؤمن لأن الإيمان بالقلب وليس بالعقل كما قال أحد الصالحين: ((إني لا أفهمك يا ربي ولكني أؤمن بك)).

على أني أعلم سلفا أني لو جابهت غرباوي بما سأحضره من حجج وأسانيد فإنه لن يقتنع ولن يتزحزح عن موقفه ويجد له مخرج، والحقيقة أنه لا فائدة من ذلك لأنه كما قال أحد الفلاسفة الصراع بين الدين والإلحاد سيظل إلى الأبد لأن الدين مثل صندوق مقفول له قفل متين ضاع مفتاحه ولا يمكن كسره، فأهل الأديان يقولوا إن بداخله جوهرة نفيسة، وجماعة الملحدين يقولوا إنه فاضي ليس فيه شيء، والصندوق يظل مقفول على سره هذا إلى الأبد.

t.me/qurssan

٢٨

انقضى الان على غياب غربا وي اكثر من شهر. كنت كلما تذكرته أقول لنفسي: ((الله لا يرجع الغلا ولا كياله)). ولكن ها هو شبحه الكريه يطلى على ثانيا.

بالأمس في الصباح الباكر ضرب جرس الباب الخارجي بشدة وإصرار خلافا للعادة، ثم أتتني نعيمة تخبرني بأن ظابط ومعه شخصين بالباب يريدوا مقابلتي.

قلت في نفسي: ((يافتاح يا عليم يارزاق يا كريم. ربنا يجعله خيرا)) . ذهبت لفسحة المدخل فوجدت ضابط بوليس بتلات نجوم ومعه شخصين لا بسين جلاليب تغطيها بلاطي وعلى رؤوسهم طرابيش طويلة تفضحهم بأنهم مخبرين. سألني الضابط عن اسمي وصناعتي فأجبته.

أفهمني بأن عنده أمر من النيابة بتفتيش منزلي، وقدم لي ورقة قائلا: ((أهو اطلع عليه إذا كنت عاوز)). لم ألمس تلك الورقة ودعوته لتفتيش المنزل كما يريد حتى ولو بغير أمر تفتيش لانه ليس عندي محظور أخفيه.

ذهب معي الضابط لمسكني الخاص حيث فتحت له جميع الغرف اللي كان موجود فيها السيدات أفراد عائلتي، فكان يلقي من الباب نظرة خاطفة داخل الغرفة دون أن يدخلها، ثم طلب مني الصعود للدور الأعلى فاصطحبته إليه. هنا صار يدخل كل غرفة ويفحصها جيدا، وأمر المخبرين اللي معه بتفتيش الدواليب والأدراج وتحت المراتب وداخلها. بعد أن فتشوا جيدا دون أن يجدوا شيء اصطحبني لغرفة الجلوس حيث جلس ودعاني للجلوس، ثم فتح شنطة أوراقه وأخرج منها أوراق وقلم وقال لي: - أفتكر الأحسن إني أستجوبك دلوقت يا خليل أفندي لأنه أريح لنا إحنا الاتنين بدل ما آخدل معايا على القسم.

- طبعا ويقى كتر خيرك كمان.

t.me/qurssan

بـدأ الضابط يكتـب فـي ورقـة مـا أظنـه كـان افتتـاح المحضـر. ولاحظات أن سيد كان واقف خلف الباب يتتبع كل الحديث. بعد أن دون الضابط اسمي وسني وصناعتي وعنواني سألني: - هل تعرف شخص اسمه ابراهيم خضر غربا وي؟

- نعم أعرفه.

- هل تعرفه من زمان طويل؟

- أعرفه من زي خمسة أشهر.

- بأي مناسبة تعرفت به؟

- بمناسبة استئجاره هذه الشقة من منزلي.

- هل لا يزال مستأجرها؟

شعرت أن فكين كماشة القانون أوشكوا أن يطبقوا على رقبتي، فأعملت فكري على التخلص من هذا المأزق، فألهمني الله أن قلت له: - لا، انتهت ايجارته من أكتر من شهر.

- هل عندك نسخة من عقد الإيجار؟

- ماكتبنا عقود، لأنه كان يدفع كل شهرين مقدم.

- هل رأيته بعد ذلك؟

- لا، أبدا.

- هل تعرف ماذا كانت صناعته؟

- اللي أعرفه إنه كان من رجال الأعمال حسب قوله.

- هل تحققت من ذلك؟

- ما شفت داعي إني أضيع وقتي في تحقيق شيء ليس لي فيه مصلحة.

- هل لاحظت على شقتك مدة إقامته فيها أمور غير عادية؟

t.me/qurssan

- لا. كانت معيشته هادية وإنما يتردد عليه بعض الزوار.

- ألم تلاحظ شيء على هؤلاء الزوار؟

- لأ. خصوصا إني كنت لا أقابلهم لأنهم كانوا يطلعوا له في شقته مباشرة.

- هل سأل أحد عنه بعد ما ترك شقته؟

- لا أظن ذلك.

- لماذا الدور العلوي في منزلك خالي من السكان مع إنه كامل الفرش؟

هنا أيضا شعرت بالحرج، فقدحت زناد فكري اللي أسعفني أن أقول: - لأني أعده للإيجار مفروش.

- هل يوجد من يستأجر شقة مفروشة في مثل حيك هذا؟

- سبق أجرها غرباوي، وعندي أمل إني أؤجرها لعايلة من الأقطار العربية اللي بيقضوا بعض شهور في القاهرة.

- لماذا لا تؤجرها خالية من الفرش؟

- لأن تأجيرها مفروشة بيكون أربح، وأظن أن هذا لا يخالف القانون.

- من يسكن معك غير أفراد عائلتك؟

- ما في حد.

قلتها بحسن نية ناسيا وجود الرضيع وحيد عبد الله، بل ولو تذكرته لما كنت ذكرته لانه لايحسب نفر. استمر الضابط في استجوابه: - هل عندك شغالين؟

- نعم. اتنين، بنت اسمها نعيمة و رجل اسمه سيد.

ولم أذكر له زهيرة لأني تذكرت أنها من حسن الحظ كانت أخذت مني بالأمس أجازة للتغيب ليلتين، فاطمأنيت إن الضابط لن

t.me/qurssan

يجدها في المنزل. استمر سائلا: - لماذا لا تكتفي بشغال أو شغالة واحدة؟

- لان بيتي كبير دورين كما ترى حضرتك، وأظن ان القانون ما يمنعش إني أستخدم أي عدد من الشغالين.

- هل عندك أقوال أخرى؟

- لأ.

طلب مني الضابط التوقيع على ذلك المحضر فوقعته، ثم طلب منى استحضار الشغالين اللي ذكر تهم له. استدعيت له نعيمة، فسألها كلمتين من باب الشكل لأنه لاحظ سذاجتها. ولكنى عندما استحضرت له سيد سأله ببعض التدقيق، إلا أن سيد كان ذكي وغالبا متمرن على مثل هذه الأمور، فأيد كل أقوالي اللي كان سامعها عند وقوفه خلف الباب، بل تفوق علي في الإجابة وسبك دوره تماما، فقال إنه لايعرف غرباوي إلا بصفته مستأجر للدور العلوي، وإنه في خدمتي منذ سنتين. طبعاهذا ما ينتظر من ولد مثله مد قدق في الكار.

جمع الضابط أوراقه وقفل شنطته وقام يريد الانصراف، إلا أني لحقته قبل أن يصل للباب الخارجى وقلت له: - التحقيق معايا انتهى خلاص يا حضرة الضابط، فتسمح لي دلوقت بسؤال؟

- اتفضل.

- أنا شايف إن كل الأسئلة كانت منصرفة على غرباوي. ليه هو عمل حاجة؟

- هو عمل حاجة؟ هو عمل حاحة وبس؟ دا داهية سودا. إنت ما تعرف إنه أتظبط في الجمرك و هو على رأس عصابة كانت بتهرب شنطتين كبار مليانين حشيش؟

- يا لطيف يا رب! أنا ما كنت أحسبه شخص من النوع دا!

- ماهو انت باين عليالت راجال على نياتاك.

t.me/qurssan

- طيب وغربا وي فين دلوقت؟

- في السجن طبعا.

انصرف الضابط والمخبرين ودخلت على عائلتي وهم ينتفضوا من الخوف وقد اصفرت وجوههم، فأقبلوا علي يهنئوني بالسلامة كأني مسجون أفرج عنه. توضات و صليت ركعتين شكراللّٰه على أنه لم يرد أن ينزل بي في هذه المرة عقاب جديد على شر أعمالي، وإنما اكتفى بأن يهددني وأن يرفع عن عيني العصابة اللي كانت تعميني ليريني عمق الهوة السحيقة اللي كان يمكن أن أنزلق فيها. كنت أشعر طول هذا الوقت الأخير أني ألعب بالنار، ولكن لم يخامر فكري أنه كان يصح أن أقضي بقية عمري في السجن كما كان محتمل الوقوع لو أن غرباوي تمكن من إحضارشنطتين الحشيش لمنزلي وضبطت فيه و اتهمت بأني شريكه.

اللهم إني لا أسألك رد القضاء بل أسألك اللطف فيه كما فعلت معي الآن.

t.me/qurssan

٢٩

بعد زيارة البوليس لي في منزلي وعلمي بسجن غرباوي، قررت أن أقفل شقة الدور العلوي نهائيا، فصرفت سيد وزهيرة لأنه لم يبقى لهم أكل عيش عندي.

بعد أن أعطيت كل منهم مكافأة من مال غرباوي، ذهب ا لغير رجعة ليبحثوا لأنفسهم عن و كر فساد جديد يما رسوا فيه فنهم القذر. كنت غير قادر على أن أمسح من ذهني ذكرى غرباوي المؤلمة، ولا أن أنسى وجود نقوده النجسة في دولابي كأنها قنبلة زمنية يمكن أن تنفجر في أي وقت. الحمد لله على أن غرباوي لم يطلب مني أن أودع له إيراد منزله في بنك وإلا كانت ثبتت علي اليوم تهمة الاشتراك معه - كانت النيابة حينئذ ستكتشف أني أودعت بصفة منتظمة نقود في حسابه بالبنك فكانت ستسألني عن سبب هذا الإيداع ومصدر هذه النقود فتتمكن بلا شك من إثبات اشتراكي معه في إدارة بيت سري على الأقل، إذا لم تنجح في إثبات اشتراكي معه في تهريب الحشيش.

بينما كانت مجرد فكرة وجود هذه النقود الخطرة في دولابي تنغص علي عيشي جلست مساء أمس أدردش قليلا مع حماتي. أثناء حديثنا قالت لي: - أهوغرباوي انكشح وراح في داهية خلاص. أبشر بقى يا أبو الخل.

- يا شيخة حرام عليكى تشمتى فى الراجل. مشى هوا دا اللي كنتي بتقولي عنه انه رجل كريم و هايل وولي نعمتنا اللي فتح لنا بيتنا؟

- يا شيخ انت كمان! دا بس كلام. داكان را جلى ما عنده لا دين ولا ذمة ولا شرف.

- أهو راح لحاله بقى، و على رأى المثل ((اذ كروا حسنات موتاكم)).

- واجب برضه خصوصا إذا كانوا الأموات دول سابوا تركة.

t.me/qurssan

- تركة إيه يا أبلتى؟

- هو مش أصبح كأنه ميت وما له ورثة؟

- طيب واحنا مالنا؟

- مالنا ازاي؟ أمال مين اللي حيورث ماله اللي محوشه عندك؟

- والله ما أعرف. أهو أمانة على ذمته.

- يا شيخ إنت حتفضل عبيط كد الإمتى؟

- قصدك إيه يعنى؟

- قصدي إنه ما دام ما له ورثة نبقى احنا ورثته.

- ليه؟ هور احنا كنا قرايبه؟

- ما دام ما له قرايب واحنا اللي تعبنا في الفلوس دي وجبناها تبقى من حقنا.

- ما شاء الله! دي الفتوى بتاعتك يا ست الحاجة؟

- طبعا. يا الله بقى يا خو يا فرفش بالقرشين بتوعه و بحبح على بيتك وأعطيني نصيبي اللي اغتصبته من صندوقي.

- يا ولية يا حاجة! بطلي تمدي إيدك للمال الحرام.

- حقة، بطلوا دا واسمعوا دا! حرام إيه وحلال إيه يا جدع انت؟ هوفيه حد ربناى جيب له رز قه لحد عنده ويرفضه؟ دا حتى يبقى كفر بنعمة الخالق.

- والخالق قال لك تاكلي مال الناس؟

- ما هودا النهاردا ما بقى مال ناس. الرجل حيفضل سنين لما يعفن في السجن فماله يبقى حلالنا. دارزق جاي لنا من ربنا. إيش عرفك إن ربنا في حكمته ما خلاه يتمسك إلا علشان ما فلوسه دي تبقى من نصيبك؟ مش بيقولوا ((مصايب قوم عند قوم فوايد))؟

t.me/qurssan

- يعني نبقى زي الصقور والغربان نعيش على جتت الميتين؟

- وماله؟ الصقور والغربان دول خلقة ربنا، وربنا سبحانه وتعالى قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾، فإذا كان ربنا بيرزقهم بجتت الاموات تبقى دي إرادته وهو حرفي ملكه. سبحان من له الملك.

اغتظت من هذه العجوزة الجشعة اللي بتتلاعب بالدين والشرف وتسخرهم في سبيل إرضاء أطماعها الدنيئة. قلت لها: - إحنا مش بنعيب على غربا وى وبنقول إنه معرص، فانتى بكدا تبقى حرامية. ووالله ما أعرف أنهو أبغض عند الله، الحرامي ولا المعرص، وإن كان على فكري أنا، الحرامي أسخم لأنه بيضر الناس أكتر.

- أصل انت حنبلي قوي، ولو كان العلما بتوع الأخلاق بيكتبوا حسب أفكارك دي، كانت الدنيا وقف حالها من زمان.

- لازم انتي يا حماتي إبليس بيدور عليكي من زمان علشان يتعلم منك.

- ما تهربش من الموضوع. قصره، الفلوس دي حتعمل فيها إيه؟ ولا يعني عامل لي محامي ونازل مرافعة من الصبح علشان تلهفها لوحدك؟

- يا ولية اتقي الله! هوأنا برضه وش كدا؟

- أصل أنا يا خويا ما آكل من الكلام دا.

- على العموم لسه غربا وي ما اتحكم عليه. استني شوية لما نشوف الوضع حيبقى إيه.

- طيب زي بعضه، لكن لا تفتكرإنك حتقدر تا كل حقي.

لم أرد عليها حتى لا أتمادى معها أكتر من ذلك في هذا الحديث فتسمعني مزيد من أفكارها المنحطة الإباحية.

t.me/qurssan

انقضى شهر تقريبا على تفتيش البوليس لمنزلي وأنا لا أزال فريسة للقلق والخوف من وجود نقود غرباوي في حوزتي. لم أكن أخشى العوامل الخارجية فقط، وإنما بدأت أخاف من نفسي بعد حديثي مع حماتي وتصويرها الموضوع على أننا ورثة غرباوي الشرعيين. النفس أمارة بالسوء، فربما تشتد بي الضائقة المالية فأخدع نفسي وأقتنع بفتوى حماتي الملفقة فأمد يدي لسرقة مال ذلك القواد. أصبحت غير واثق من أحد أو شيء ولا حتى من نفسي. خيل لي أننا عدنا لقانون الغابة كالوحوش يفترس قويها ضعيفها بلا وازع أو قانون.

لكن أول أمس جاءني الغوث من حيث لا أنتظر، فوجدت المخرج من المأزق اللي كنت فيه. في الحقيقة لم أجد أنا هذا المخرج وإنما جاء لعندي في صورة خطاب بريد أحضرته لي نعيمة. فتحت الخطاب فقرأت فيه ما يلي:

عزيزي عم خليل..

بعد فائق التحيات وجزيل الأشواق. آمل أن يصلك خطابي هذا اللي توصلت لإرساله لك بواسطة سرية. أنا واثق من إنك رجل شريف لا ترضى أن تأكل حق أحد مهما كان. ولا شك أنه أمكنك الحصول على مبلغ من المال من إدارة شقتي أثناء غيابي وأنك تحتفظ به أمانة لي عندك. تعلم أني في وضع لا يسمح لي بامتلاك نقود، خصوصا وأنه ربما حكم علي بغرامة جسيمة تزيد على كل ما أمتلك. لذلك أرجوك أن تسلم أمانتي - وانت وذمتك فى مقدارها - الشاب سأعطيك اسمه وعنوانه هو أحق الناس بنقودي لأنه ابني. نعم ابني. ولا تظن أني خدعتك عندما قلت لك إني ضد الزواج وإني لم أتزوج قط، فهذه حقيقة ولكنها لا تمنع من وجود ابن طبيعي لي اعترفت به رسميا وتكفلت به حتى الآن إلى أن وصل لآخر مراحل التعليم الجامعي وأدعو الله أن يتكفله برحمته بعد الآن.

t.me/qurssan

إياك أن تقول له إنه ابني، فهذا سر لا يعرفه. كل ما أرجوك عمله هو أن تسلمه المبلغ وتقول له إنه من طرف عمه إبراهيم اللي كلفني بتوصيله له لأنه سافر فجأة ومن المنتظر أن يطول غيابه، فليدبر أموره في هذا المبلغ لزمن طويل. أما اسم وعنوان الشاب المذكور فهو: حسن خضر ١٥ شارع الشربيني بندر الجيزة.

أشكرك يا عم خليل شكرا جزيلا لاني و اثق من ذمتك ومن إنك ستقوم بهذه المهمة على خير وجه.

أما أنا فمصيري في يد القدر. كنت في عيش رغد ولكن بني آدم كما يقولوا طماع لا يملأ عينه غير التراب فدفعني طمعي في الغنى الفاحش لمغامرة كبيرة قامرات فيها بكل شيء فخسرت كل شيء. كان يمكن أن أنجح ولكن خانني الحظ في آخر دقيقة عندما كان النجاح معلق على شعرة، ولكن من سوء الحظ انقطعت هذه الشعرة ولولا ذلك لكنت اليوم من أصحاب الملايين أو على الأقل الألوف. لا بد من أنك أنت المؤمن المتدين تجد ما حصل لي أمر طبيعى من عمل العدالة الإلهية.

ربما جائز. ولكن لماذا لا يكون مجرد سوء حظ أوقعني في يد كشاف جمرك نزيه رغما عن ندرة الموظفين النزها. حقا إن الدنيا حظوظ كما يقولوا.

كان هذا حظي وقسمتي من الدنيا، وهي مرة تصيب و مرة تخيب. ولك مني جزيل الشكر و وافر السلام.

غرباوي

رغما عن احتقاري لغرباوي - ولا أقول كرهي له لأني أرثي له ولا أكرهه فأنا لا أكره أحد ولا حتى أعدائي لوفرض وكان لي أعداء - فإني تأثرت من خطابه هذا اللي برهن على أن للرجل قلب ينبض بحب ابن غير شرعي، رغم خلوه من كل القيم الأخلاقية. صدق من قال إنه لا يوجد إنسان خير صرف ولا إنسان شر صرف. قرأت عن سفاح أمريكي كان يسهر الليل يمرض كلبه.

يعتقد غرباوى أنه وقع فى يد العدالة لأن الحظ خانه وأن الدنيا

t.me/qurssan

حظوظ كما يقول، وفاته أن عاقبته هذه كانت منتظرة خصوصا بعد أن استبد به الطمع فراح يخاطر في صفقات تهريب كبيرة، يعميه الأمل في نجاحها وبريق الثروة الطائلة، عن رؤية غياهب السجن القابعة خلفها. ها هو يقع أخيرا، فإنه ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع، هذه هي عاقبة المفسدين فإن من يزرع الحنظل لا يجني منه الشهد.

t.me/qurssan

أسـرعت صباح اليوم التالي بالذهاب لعنوان الشاب المذكور بخطاب غرباوي، فوجدته يسكن شقة صغيرة أنيقة العفش في مدينة الجيزة القديمة اللي يطلقوا عليها اسم البندر.

قابلت ذلك الشاب وأفهمته موضوع رسالتي، فلم يندهش من سفر غرباوي المفاجئ لأني فهمت منه أنه يعتقد أن أبوه توفي وهو ابن سنة وأن غرباوي هو عمه اللي تكفل بتربيته وأنه رجل أعمال تضطره أشغاله للسفر الكثير: الظاهر إن غرباوي كان يزوره في فترات متباعدة محتجا بأسفاره العديدة الوهمية.

من القليل اللي يمكن ذكره في صالح غرباوي، هو أنه أبقى ابنه بعيد عن حياته الملوثة، وظهر أمامه بمظهر العم الشريف رجل الأعمال. كان يريد في تربيته لابنه أن ينبت نرجس زكي الرائحة من البصل المتعفن الصنن، لكن الخداع واللؤم كانوا متأصلين في نفسه، فكان يخدعني بنصائحه الزائفة مشيرا علي أن أربي أولادي على مبادى الغش والخداع.

بعد أن سلمت الشاب أمانة والده باعتباري صديق عمه غرباوي اللي كلفني بتسليمه هذا المبلغ، نبهت عليه أن يحتاط في صرفه لأنه من المتوقع أن يطول غياب عمه في هذه المرة.

فهمت من الشاب أنه لا تزال أمامه سنة لينتهي من دراسته الجامعية. فهل يا ترى سيكفيه هذا المبلغ لحين تخرجه؟ إذا لم يكفه فليتولاه الله برعايته كما قال غرباوي في خطابه، وقد تذكر الله لاول مرة عندما أشرف على الغرق.

في هذه المرة يمكن القول بأن مصائب المجرمين تقع على رؤوس الأبرياء، أو كما يقول الإنجيل ((الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون)).

عدت لمنزلي و أنا أسير اكثر خفة، شاعرا كأنى تصببت عشر سنين بعد أن تخلصت من أمانة غرباوي النجسة اللي كانت تكتم

t.me/qurssan

أنفاسي كالكابوس.

t.me/qurssan

٣٢

مضى نحو أسبوعين لم أدون في مذكراتي هذه شيء، لأن حياتي كانت عادية، وقد بدأ الهدوء والطمأنينة يرجعوا لنفسى بعد أن تخلصت من غرباوي والمشاكل اللي خلفها لي. لم يكن يعكر صفوي إلا هرب ابني وبنتي من منزلنا وما أراه من حزن زوجتي عليهم، و كذالك تفكيري في شبح الضيق و الصنك اللي بدا يلوح لي في أفق المستقبل، لكني بالأمس تبينت أني لم أتخلص نهائيا من ذيول غرباوي، لأن الجرس الخارجي رن ثم أعقبه دخول نعيمة علي تخطرني بزيارة راشد بلك اللى كدت أنسى وجوده.

عندما زارني قبل نحو شهر على أثر وفاة زوجته وتقديمي له نادية، كانت ظهرت عليه علامات الكبر أكثر مما رأيته في المرة الأولى. أما فى هذه المرة فإنى كدت أن لا أعرف الرجل من شدة ما طرأ عليه من تغيير و تدهور: كان انحنى رأسه وتقوس ظهره و انطفأت عينيه و ضعف صوته و اتكرمش و بهت وجهه أكثر من قبل. كان كأنه شفي حديثا من مرض عضال أنهك جسمه وهد حيله. الظاهر أن معاشرته لنادية مدة شهر كانت أقسى عليه من أمراض السكر أو التيفود. بعد أن تبادلنا التحيات سألته عن الصحة والحال، فقال:

- زفت.

- حقيقي باين على وش سعادتك التعب. ليه كفى اللّٰه الشر؟

- يا سيدي من نادية شبكتك.

ثارت نفسي من هذه التهمة الظالمة لأني لم أعرفه بنادية إلا بناء على طلبه، ولو لم أعرفه بها لكان عثر على غيرها بنفسه أو بالواسطة. كنت لا أشعر نحوه بأي إحساس بالذنب لأني لم أفعل إلا أن عرفت فتاة عاهرة بعجوز خباص داير، فكنت كمن يصب الزفت على القطران. لذلك قلت له:

t.me/qurssan

- لأحقة، لا تقل لي شبكتك، إنت اللي جيت لي برجليك لحد عندي تطلب مني التعرف على واحدة زيها، ولما عجبتك حذرتك من كلى عيوبها.

- تمام تمام. إنت ما عليك ذنب وإنما قصدي أقول إنك على كل حال كنت السبب في الشبكة دي.

- ومع ذلك إذا كنت شايف إني ضحكت عليك أو غشيتك، فأنا مستعد إني أرجع لك المبلغ اللي دفعته لي.

- يا شيخ انت كمان! مبلغ إيه وبتاع إيه؟ أنا عمري ما فكرت في حاجة زي دي، ولو كنت مستريح معاها كنت قدمت لك هدية تان النهارداكمان.

- طيب أمال قصد سعادتك إيه؟ جاي لي الدوردا علشان أشوف لك واحدة تانية؟

- لا لا لا! لا تانية ولا تالتة. كفاية كدا. دي طلعت على جتتي البلا. كل الحكاية إني كنت ماشي بالف في الشوارع زي التايه من همي ونكدي لحد ما لاحظت انى بقيت قريب من بيتك، فقلت لما أفوت عليك أفضفض لك شوية باللي كاتمه في قلبي.

- أنا مبسوط قوي إنك الدور دا جيت قاصدني ومش قاصد غرباوي.

- لا، ما غربا وي خلاص بقى تعيش انت.

- ليه؟ هو ماتت؟

- لأ، ولكنه زي الميت لأنه لا بد حيعفن في السجن.

- يعني كان عليه من دايه؟ ماكان عايش في أمان الله! يعني لازم كان يعميه الطمع و المال الحرام!

- دا صحيح. إنما كان والله راجل طيب و خدوم.

- خدوم لمين بقى يا سيد نا البيه؟

t.me/qurssan

- لأصحابه ومعارفه.

- أفتكر الأصح إنك تقول لزباينه اللي كان بياخد منهم فلوس.

- معلهش برضه ما هو لازم كدا. إنت ما تعرف يا خليل أفندي إننا أصبحنا في زمن لما تقول فيه لواحد ((سلام عليكم)) لازم تعطيه قرش علشان ما يرد عليك و يقول ((عليكم السلام))؟

- كدا برضه. أصله آخر زمان.

- اسمع بقى لما أحكي للف حكايتي المهبة، يمكن برضه تقدر تعطيني فكرة أو تصبرني على بلوتي.

- أنا في خدمتك يا بيه.

سحاب راشد بك نفس عميق وهز رأسه هزاتين، ثم بدأ يحكي حكايته بصوت ضعيف حزين يشبه الأنين. قال:

- كل ملذات الحياة الحرام بيقدمها لنا الشيطان فنقاوم إغراؤه ونقول لنفسنا ((اللهم اخزيك يا شيطان!))، و بعدين تضعف إرادتنا وننغمس في ملذاته الحرام ونعتذر بقولة: ((أعمل إيه؟ ضحك علي الشيطان)). في الحقيقة الشيطان مظلوم مع بني آدم، لأنه بيلبسه كل الذنوب اللي بيعملها. فالعلاقة غير الشرعية بيبقى لها لذة تانية زي ما بيقولوا بالعربي ((ألذ شيء إلى الإنسان ما منعا))، لأنه إذا كان المأذون هو اللي بيعقد الزواج الشرعي فالشيطان هو اللي بيعقد الزواج غير الشرعي. طبعا من الصعب إن الإنسان يتغلب على الإغراء خصوصا إذا كان رجل زي في أواخر أيامه عاوزيتمتع بآخر يوم بل بآخر ساعة منها لأنه ما حد واخد منها حاجة.

- ومش حيقى له منها إلا صالح أعماله.

- أنا باعمل برضه شوية أعمال صالحة، فلا تفتكر إن كل أعمالي فساد، بس ما في لزوم أقول لك أنا فاتح كم بيت فقير، لكن نرجع لموضوعنا تاني.

t.me/qurssan

نادية كلها جمال وشباب، وانازي ما انت شايف را جل عجوز زي حالاتك.

سبحان مغير الأحوال! أشد ما تغير عن أول مقابلة بيننا حيث كان يتظاهر بالشباب والقوة مدعيا أنى أكبر منه سنا لدرجة أنه كان يدعونب ((يا أبويا)). الآن بعد أن عاشر نادية شهر، رجع لصوابه، فأخذ يحدثني بإخلاص دون أن يحاول أن يخدعني أو أن يخدع نفسه. بعد تنهد عميق استأنف حديثه قائلا:

- كنت أشعر أن مالي لا شيء جنب شبابها وجمالها. شبابها اللي أنا محروم منه كان بيجذبني لها بشدة جنونية خلتني أسير حبها وأبقى زي الخاتم في صباعها تحركه زي ما هي عاوزة.

- ما عندك شوية مقاومة؟ شوية إرادة؟

- بالمرة، إنت سيد من يعرف أن كل أعضاء العجوز بتضعف، فزي ما ضعفت إيده ورجله كذلك تضعف ذاكرته وإرادته. غلبت أقاوم وأقول لنفسي ((يا واد دي حتت بنت اشتريتها بفلوسك علشان تتسلى بها، زي ما كنت زمان بتشتري حصان تتسلى بركوبه، تقوم تخليها النهاردا تركبك))؟ لكن بدون فايدة. تأكدت إني فقدت كل إرادة وأصبحت لعبة في إيدين نادية.

- يا حول الله!

- مسكنها فى فيلا مفروشة لوكس في مصر الجديدة، و اشتريت لها عربية شفروليه جديدة ولها سواقها، وغير كدا غرقتها في أغلى التواليتات و المصاغ والروايح، و مع ذلك كانت تقابلني بكل برود واحتقار. مرة قدمت لها عقد ألماس دفعت فيه تلات ميت جنيه وحبيت ألبسه لها في رقبتها على أمل إنها تشكرني ولو ببوسة. لكنها بعدت عني وقالت لي بنفور ((حطه هناك على السراحة)).

- إزاي دا؟! مش اللي يقبض الثمن لازم يسلم البضاعة.

- أبدا، ولا على بالها. لما أقعد أكلمها وأشرح لها حبي وغرامي

t.me/qurssan

ألاقيها إما باصة لسجادة الأرض أو للنجفة المعلقة في السقف عشان ماتشوفش وشي. وإذا بستها وحبيت أتقرب منها بالليل، تخلصت مني وطلبت مني إني أبعد عنها لأنها إما تعبانة أو مزكومة أو تشعر بتكسير في جسمها، بالكدب طبعا. والمصيبة إنها بتقضي أكتر وقتها بره البيت. ياما دخلت شقتها فلا أجدها. أقوم أسأل شغالتها ((الست راحت فين؟)) تقول لي ((ما أعرف)) وهي بتبتسم ابتسامة غريبة ما أعرف إن كان مصدرها الشفقة ولا الاحتقار. يعني حتى الشغالة اللي بادفع لها ماهيتها، حالي صعب عليها وبترثي لي. مرة سألت سواقها ((الست راحت فين النهاردا))؟ قال لي إنه نزلها في شارع قصر النيل ودخلت فى عمارة الإيموبيليا، فسألته ((غابت هناك قد إيه؟)) فقال لى ((زي تلات ساعات)). كلامه كان زي سكاكين بتقطع في قلبي. تلات ساعات قضتهم هناك مع مين؟ طبعا مع واحد من رفايقها. أنا أصرف عليها دم قلبي وهي تروح لعشيقها لابسة له فستان وصيغة وحاطة ريحة غالية وراكبة سيارة كلها جاية من فلوسي!

ظهر التأثر بشكل واضح على راشد بك، وتقطعت أنفاسه كأنما وصل بعد صعوده سلم طويل. من حسن الحظ إن حماتي حينئذ وقدمت له زجاجة كوكاكولا يبل بها ريقه. عرفتهم ببعض كأنما شجع ذلك المرأة العجوز على أن تستأذن الرجل في الجلوس معنا، فأذن لها قائلا:

- وماله تحصل البركة. ما دمتي حماة خليل أفندي تبقي مش غريبة. خليكي إنت كمان تسمعي الغلب اللي أنا فيه.

لا شك أن حماتي كانت تسترق السمع من وراء الباب، فلما وجدت موضوع الحديث شيق جذاب، أرادت أن تسمعه بصفة رسمية ربما لتشترك فيه، فلجأت لهذه المناورة. بعد أن جلست حماتي وشرب راشد بيه من كوبه استأنف حديثه قائلا:

- كنت باقول في إيه؟ أيوه في تغيب نادية. لا تعرفوا قد إيه البيت يبقى حزين ومؤلم على العاشق لما ما يلاقي فيه حبيبته. أبقى مشتاق إني أشوفها وأحضنها بين درعتي فأفضل ألف وأبرم

t.me/qurssan

في جميع أود البيت كأني حيوان محبوس في قفص في جنينة الحيوانات. أخيرا أقفل علي باب أودتها وأفضل أبوس في هدومها وأمرغ وشي فيها وأحضن كل شيء أفتكر إنه لمس جسمها حتى جز مها. كنت أركع قدام الفوتيل اللي بتقعد عليه وأغطي كل سنتي من حريره بيبوسا كأني وثني راكع بيعبد صنمه. بعدين أقعد أفكر وأقول: مين عارف هي فين دلوقت؟ يا ترى بتشرب مع مين و بتحط له المزة فى بقه؟ يا ترى بيبوس كل عضو فيها؟ يا ترى فعصها بين درعته الشابة القوية؟ كان دمي يغلي في عروقي من الغيرة وأحس إن دماغي حينفجر. كنت أشعر أحيانا إن الدنيا ضلمت في عيني وإني كأني مدفون باختنق في قبر مظلم، فأخرج من أودتها ألف في البيت. تقابلني الشغالة وتسألني إذا كنت بادور على حاجة؟ فأحاول أخفي اضطرابي وأكدب عليها فأقول لها إني باتسلى باضرب بلطة. كانت ما تفوتني ملاحظة استغرابها وهزة راسها كأنها تقول لنفسها ((لازم الراجل دا اتجنن)). كنت كلى ما أسمع صوت سيارة في الشارع، أجري على الشباك زي المجنون وأبص منه يمكن تكون رجعت. أخيرا لما أشوف من الشباك أن سيارتها وقفت قدام الباب، أجري على أودتها وأتمدد على الشيزلونج و أمسك فى إيدى كتاب اتظاهر بالقراية فيه. أبقى عين على كتاب وعين على باب الأودة وقلبي اشتدت ضرباته لدرجة إني كنت أسمعها بتدق في ودني. أخيرا يتفتح الباب وتدخل نادية ماشية بكل عظمة وغرور فتتغير في عيني معالم الأودة وتبقى كأنها كانت قبر مظلم ودخلته دلوقت أشعة الشمس. تروح نادية عند السراحة وتقلع صيغتها بدون ما تتنازل إنها تكلمني، وأفضل أنا أخرس مش متجاسر حتى أسلم عليها. أما إني أسألها ((كنتي فين؟ وجاية منين؟ واتأخرتي ليه؟)) فدي أسئلة ما كان حتى تخطر لي على بال.

تأثرت من حكاية هذا العجوز العاشق فى شتاء عمره كأنه شجرة حملت ثمارها في غير أوانها فكان مقضي عليها بالذبول والفناء. لم أجد ما أقوله لأصبره على حاله وأعزيه في مصيبته هذه فلزمت الصمت، لكن حماتى المسحوبة من لسانها قالت له هنا:

t.me/qurssan

- والله يا بيه ما خسر النسوان إلا الرجالة. إذا كنت انت مدلعها الدلع داكله وسايبها على حل شعرها فطبعا تطلع فيها أكثر وأكثر.

- انا مافاتني الكلام دا يا ستي. قبل كدا استعملت معاها الشدة، واتخانقنا مرة خناقة لرب السما، كانت نتيجتها إنها سابت لين البيت ومشيت، وانجرت أروح لها تلات أيام وأصالحها وأبوس إيدها ورجلها زي الكلب علشان ترجع لي تاني، وكانت شروط الصلح في المرة دي أصعب من قبله لأني كنت المهزوم اللي يقبل شروط صلح المنتصر بدون قيد و لا شرط.

- الله يكون فى عونك ما دام واقع فى دباديبها بالشكل دا.

- أهو قسمتي السودا جت كدا. لما أكمل لكم حكايتي المهبية، أخيرا أتشجع وأقدر أفك عقدة لساني فأقول لها: إن شا الله تكوني اتسليتي كويس النهاردا.

تعر فوا ترد على سؤالي اللطيف دا تقول لى: ((أيوه، لأني كنت بعيدة عن وشك))

برضه أفضل صابر ذليل وأقول لها بكل مسكنة: أنا مش قادر أفهم سبب كرهك لي بعد كل التضحيات اللي باعملها لك!

- تضحيات! ها ها.

وتروح ضاحكة ضحكة سخرية طويلة:

- كويسة دي! أنا واحدة ست خسر انة وانت واحد عجوز خاص، فوقعنا في بعض، أنا علشان أقدر أعيش وانت علشان تمتع نفسك . . واحدة فى واحدة، مافيش لواحد منا فضل على التانى، يعنى ما فى حاجة اسمها تضحيات يا أبو تضحيات!

- يصح برضه إنك تقولي لي كل الكلام الجارح داعلشان إني سألتك سؤال فى غاية الرقة والذوق؟

- مش علي الكلام دايا حبيبى! أنا أفهمها وهي طايرة، وانت بتسأل سؤالك الذوق الرقيق دا، كانت عنيك بتسألني، ر حتي

t.me/qurssan

فين؟ قابلتي مين؟ شربتي مع مين؟ أنهى شاب با سك و لا نام معاكي؟ إيه لزوم الكلام دا؟ أنا ما دمت باسمك جسمي تتمتع به نظير اللي بتصرفه علي، يبقى ما ذلك حاجة عندي بعد كدا، إذا كنت أروح أتمتع وأرضي عواطفي ومزاجي وأشبع شهواتي لاني أنا كمان بني آدم زيك من لحم و دم.

كلامها داكان زي شواكيش نازلة دق على رأسى، ولكن حاعمل إيه ما دمت عارف إني مسلوب الإرادة قدامها؟ كنت أجتهد إني أغير موضوع الحديث وأهديها وأتلطف معاها وأتظاهر بعدم الاهتمام وأنا دمي بيغلي. أنا مندهش إزاي ما نزلت علي نقطة لحد دلوقت!

هنا قالت حماتى:

- ياخويا بعد الشرعليك. وانت عليك إيه من الغلب داء ما تخليك راجل أمال وتسيبها وانت تلاقي أحسن منها. هي قلة ستات في البلد؟

- ما أقد ر ياست هانم زي ما فهمتك دلوقت. تعرفوا ضعفي معاها ثم بلغ لحد فين؟

- غير كدا كمان؟!

- أيوه، أكتر من كدا. لسه امبارح حصل لي معاها فصل أفظع من كل اللي حصل لي معاها.

- غير كدا كمان؟! دي حاجة تجنن.

- دي تجنن تمام. يعني أنا مندهش إني لسه لدلوقت ما رحت السراية الصفراء. ما قدرت زي العادة أصبر على بعدها فقلت أروح أصبر نفسي بمناجاة خيالها في أودتها. فرحت بيتها ساعة مغربية وأنا قليل الأمل إني ألاقيها في ساعة زي دي، لأنها بترجع عادة وخري. لما دخلت قابلتني الشغالة وعرفت منها إن الست موجودة. فرحت إني حاشوفها ولو إني عارف إنها حتسيح لي. وأنا رايح على باب أودتها قالت لي الشغالة إن الست مش لوحدها

t.me/qurssan

((شابين زي السبوعة)). قلت في بالي ((أهو السبعين جالهم تور))، لأني طبعا بالنسبة لهم زي التوربس تور له قرون طويلة.

الظاهر إن حماتي أرادت أن تخفف عنه هم حمل قرون فقالت له:

- ومالها قرون التور؟ مش هي دي اللي بينطح بها السبع وساعات بيموته؟

نجحت حماتي بقولها هذا في أن تجعل راشد بك يرسم ابتسامة باهتة على شفتيه، سرعان ما اختفت بين غيوم الحزن اللي كانت مغطية وجهه لأنه قال لها بأسف حزين:

- بس قروني أنا قرون تور عجوز قصيرة وضعيفة عاجزة، وإن جيتي للحق هي أقرب لقرون تيس.

لكي لا أزيد الرجل حسرة على نفسه اجتهدت أن أغير مجرى الحديث فقلت لحماتي:

- ما تقاطعي كلام سعادة البيه، خليه يحكي على راحته. اتفضل اتكلم سعادتك.

سرح راشد بك بفكره بيستجمع شوارده، و بعد أن سعل قليلا قال:

- وقفت قدام بابها زي ما قلت لكم، وأنا واقف متردد. خبطت ودني أصوات مناقشة حادة بين رجلين. قلت لنفسي لازم الاتنين بيتخانقوا عليها. لميت شجاعتي و حبيت أثبت وجودي لهم. خبطت على الباب حسب أصول اللياقة ودخلت فوجدت نادية متمددة على الشيزلونج وشابين قاعدين على فوتيلات، واحد عن يمينها و واحد عن شمالها. يا ترى الشابين دول يبقوامين؟ لكن نادية راحت مقدما نا لبعض بقولها: ((عشيقي الجديد راشد بك و عشاقي القدام: فهمي و عصام)). راحوا الاتنين واقفين و انحنو اقدامي و قالوا لي ((اتشرفنا يا بيه)) بشكل متكلف مصطنع زي التمثيل الكوميدي. رديت عليهم ببرود وقعدات وأنا خايف لينقلب الفصل الكوميدي دالفصل درامي أو تراجيدي. تصوروا

t.me/qurssan

العيرة وسط شابين كلى واحد منهم يهد جبل.

فعلا كان ذلك العجوز في موقع يرثى له. أظن إن نادية غلطت لما عرفتهم ببعض ووصفتهم بعاشق جديد وعاشقين قدام، لأنه في الواقع كانوا الثلاثة في تلك الساعة كلهم عشاقها المتنافسين فى حبها، كان ثلاثتهم متشبثين بالركوب في قارب حبها. الشابين بيجدف كل واحد منهم بذراع الشباب القوى لناحيته، بينما كان راشد بك رغم حبه الناري المتأجج وأمواله المتدفقة، يجدف بذراع العجوز الضعيف ضد التيار. حقا إنها لشجاعة منه أنه لم ينسحب من ميدان المعركة أمام هذين الخصمين الأقوياء. فلنستمع إليه يقص كيف دارت بينهم هذه المعركة غير المتكافئة الأطراف. استأنف حديثه قائلا:

- كانوا التلاتة قاعدين على راحتهم كأني زاير عادي. نادية قالت لي: ((أما انت جيت تمام في وقتك يا بابا)). قالت لي ((بابا)) مخصوص علشان تهزأني قدام رفايقها الشبان. تحملت الضربة بصبر وما فتحت بقي.

قالت لي: ((عا وزاك تحل لي مسألة. بقى الشابين دول بيحبوني حب من نار. واحد منهم زي ما انت شايف، أسود الشعر والعينين، قمحي اللون. والتاني كستنائي الشعر، عسلي العينين، أبيض اللون. وأنا محتارة بينهم، فتقدر تقول لي أنهو فيهم الأليق بحبي ؟)).

تصوروا إنها تسألني أنا سؤال غريب زي دا. يعني هي ما قدرت تختار لحد دلوقت بين أبو شعر أسود وأبو شعر كستنائي تقوم توكلني بدالها في عملية الاختيار دي! تبقى وظيفتي أنا إيه لو حكمت فى الموضوع دا؟

ما رأيته من سخرية القدر في هذا الموقف جعلني أتذكر غنوة تقول: ((رحت لقاضي الغرام يحكم)) فهل هذا العاشق العجوز هو قاضي الغرام المطلوب منه أن يحكم ضد نفسه؟ مسكين هذا الرجل. استمر قاضي الغرام في قوله:

t.me/qurssan

- دار في ذهني بسرعة إني أنا صاحب البيت دا اللي قاعدين فيه البلطجية دول يتمسخروا علي، وإن الهدوم اللي على جتت البنت اللي عاوزاني أحكم بها لواحد منهم من فلوسي، فصعبت علي نفسي وأظلمت الدنيا في عيني. فقلت لها بحدة: البيت دا بيتي و كل مصاريفك من عندي و الهدوم اللي عليكي من فلوسي والاتفاق اللى بيننا انك تكوني مترستي أنا و ما دمنا ما فسخنا الاتفاق دا تفضلي معايا أنا بس.

يدوب خلصت كلامي إلا ودوى في أركان الأودة صوت ضحك عالي طالع من زور التلاتة بلطجية. أول ما سكتوا قالت لي نادية:

- الظاهر إنك ما فهمت قصدي تمام. سؤالي لا يمنع إن العلاقة اللي بينا تفضل مستمرة زي ما هي.

- إز اي بقى؟

- يعنى مش فاهم؟

- إنت ما سمعت إن كاتب أورواوبى قال إنه يلزم كل ست تلات رجالة: واحد ذكي خفيف الدم يسلبها بكلامه، و واحد شاب قوي جميل يرضي غريز تها السكينة، وواحد غني كل شي كان يصرف عليها. أهو أنا عاوزة كدا: حبي وجسمي يبقوا في أيد الشايين دول، وانت تولى عملية الصرف علي، يعني آديك شايف إنك لازم لي قد لزومهم لي.

ور احوا الشابين مصداقين على كلامها فى نفس واحد. و عصام قال: ((بكل سرور، حتى أنا لا أغير على حبيبتي من عمي)).
والتاني فهمي قال: ((طبعا. حد يغير من ولي نعمته؟ إن شا اللّٰه اللي يغير ينطس في عينيه)).

اندهشت من انحطاط الإحساس بالرجولة عند الشابين دول، يعلم كل واحد منهم أن له شريك في حبيبته ومع ذلك يقبل هذا الوضع المشين. تذكرت بيت مجنون ليلب اللي خاطب به زوجها قائلا:

بربک هل ضممت إليك ليلى قبيل الصبح أم قبلت فاها

t.me/qurssan

مع الفارق إن المجنون كان معذور في قوله لأنه لا يستطيع إلا أن يحب ليلى عن بعد في ذل و استكانة، ازاء مركز زوجها الشرعي المتين.

استأنف راشد بك حديثه:

- طبعا حيغيروا من إيه ما دام علاقتي بنادية زي ما قالت، عبارة عن وكيل دايرتها اللي تأمره بالصرف فيصرف؟ ويا ريت فلوسي كانت حتروح على نادية بس، إلاعشاقها دول حيكون لهم فى الغنيمة نصيب لأنه ظاهر عليهم إنه على قد ما قلوبهم مليانة عشق، على قد ما جيوبهم فاضية من الفلوس.

بعد كدا عصام قال: ((طبعا ما حد يغير من عمي لأن دا بيته والتواليتات والجواهر اللي بتزيد في جمال نادية كلها من خيره. لكن فهمي دا صفته إيه هنا؟ ناديهه طهقت منه و بتطرده بدون فايدة، تشتمه وتهينه ولا ينفع، ما عنده دم، لازق لنازي اللزقة الأمريكاني)).

أسرع فهمي في الرد عليه بقوله:

- يا بارد يا تلم يا اللي رامي جتتك علينا. نادية بتحبني أنا مش انت يا طفيلي.

- نادية غلبت تشتمك وتهزأك وتطردك، لكن انت ولا بتحس على دمك، على رأي المثل ((قال كلام زي الرصاص، قال في جناب زي النحاس)).

- هى نادية مالها لسان؟ خليها طيب تطردني كدا وشوف إن ما كنت أروح ما أرجع.

الاتنين زغروا لنادية اينتظروا منها حكمها، لكنها صرخت فيهم بلهجة الممثلة اللي بتعيد تمثيل دور لعبته قبل كدا كتير:)) إنتم عارفين، يا تحبوني إنتم الاتنين يا ترو حوالحالكم إنتم الاتنين. أما قولة أروح ما أرجع دي فسمعتها كتير، يقولها الواحد منكم وبعد يومين يرجع لي يترجى ويتذلل تاني. لازم تتعودوا إنكم

t.me/qurssan

تتشار كوافى)).

فهمي لوى بوزه وأظهر الاشمئزاز والقرف وشاور على عصام وقال:

- أنا خلاص مابقى عنادي صبر أستحمل واحد صايع عديم الشرف زيك يشار كني في حبيبتي.

- يا جد خ! طيب تقدر تقول ليى كدا مين فينا اللي معدوم الشرف أكتر؟

- طبعا انت اللي اتحكم عليك بست أشهر سجن علشان سرقة.

- لا يا حبيبي، طبعا انت اللي بعت أختك الواحد غني وبعد ما قبضت التمن رحت تشهر به وتهدده علشان تسحب منه فلوس تاني.

بصوا لبعض وعنيهم بيطير منها شرار. لم ينفوا التهم المتبادلة بينهم مما يدل على أنها حقيقية. بعد لحظة التدور لي عصام وقال لي بصوت رقيق مؤدب: ((إنت يا عمي راجلى على الحياد، فتقدر تحكم بيننا بالذمة والعدل. نحكي لك، وتحكم مين فينا اللي عديم الشرف أكتر)).

لم أشعر بأي فخر في اختياري قاضي موثوق في نزاهته للحكم في الموازنة أو المفاضلة بين شرف اتنين ما يعرفوا معنى الشرف لأنه باين عليهم إنهم من أرباب السوابق حسب أقوالهم. الاتنين أسخم من بعض، وما أسخم من سيدي إلا ستي. حبيت أتخلص من مهمة الحكم في القضية الوسخة دي فاعتذرت لهم.

فهمي راح قايم منطور من كرسيه و طلع سكينة من جيبه وقال لعصام: ((إنت ليه بتسأل عمي عن سؤال زي دا يا بارد؟ اللي حيرد على سؤالك السكينة دي)).

عصام كان راخر وقف وطلع من جيبه سكينة وقال له: ((الأخنجري أنا اللي حيرد عليك)).

t.me/qurssan

لما شفت المسألة وصلت للسلاح والدم، حسيت بحلاوة الروح فقمت طيران على باب السكة وهربت على بيتي. والنهاردا خايف أروح عند نادية لا حسن ألاقي بوليس بيحقق في جريمة قتل فتلاقوني عمال ألف في الشوارع مش قادر أرسي لي على بر. قلت له:

- والله أنا شايف إنك تقدر تروح بيت نادية وانت مطمئن، لأني أفتكر أن كلام الاتنين البلطجية دول كان تمثيل في تمثيل علشان يهوشوك.

- بس وإيه فايدة رجوعى ونادية بتعاملني أقل من كلب عندها؟ هانا انبرت له حماتي فقالت:

- والله يا سعادة البيه إذا كان تسألني رأيي، أقول لك مسألة نادية دي معمول لك فيها عمل. باين زي الشمس إن داعمل. هات لي أتر من عندك وانا أوديه للشيخ عطية يكتب عليه كتابة تفسد العمل. يا الله إديني منديلك بعد ما تمسح به وشك وأنا أوديه له بكرة وحتشوف النتيجة بإذن الله.

- هو فعلا عمل يا ستي وإنما مش عمل ساحر ولا بتاع قال وإنما عمل من الطبيعة والعجز وفارق السن.

- باقول لك أنا دا عمل ويتفسد. أنا عارفة الحاجات دي لأن جوز بنت واحدة صاحبتي كان زيلفت كدا، مراته مش طايقاه فراحت للشيخ عطية راح مبطل تأثير العمل دوغري، وصبحت البنت ميتة في دباديب جوزها. اصل الشيخ عطية داه سره باتع.

- يا ريت يا أختي كان ينفع.

- طيب بسى جرب انبت كدا. حيخس عليك إيه؟

- على رأيک نجراب مش خاسس علينا حاجة. يا صابت يا خابت.

وأخرج راشد بك منديله من جيبه مسح به وجهه ثم أعطاه لحماتي فأخذته وقالت له:

t.me/qurssan

- بس زي ما انت عارف، الشيخ عطية لا يشتغل بلاش، لازم تقدم له بياضك.

- يعنى يعوز كم؟

- بسيطة. قراية الأتر نص جنيه، والكتابة جنيه، يبقوا جنيه ونص.

- اتفضلي يا ستي آدي تلاتة جنيه.

بنت الأبالسة! حتى هذه القصة المفجعة لم تفلت من يدها دون أن تستغلها لابتزاز المال. أظن لو أنها كانت سلكت مسلك غرباوي كانت تفوقت عليه وأصبحت ملكة هذه الصناعة.

t.me/qurssan

بعد الفطار أبدأ في قراءة الجريدة اللي ترفه عني، إلا أني لما وصلت لصفحة الوفيات قرأت تعيين زادوا في همي. الأول كان عن نعي صديق من أصدقاء الصبا كان زميلي في المدرسة ثم ضاع مني في غمرة الحياة. كثيرا ما أقرأ عن نعي هؤلاء الأصدقاء فأشعر بفضاء حولي وأني أصبحت وحيد فأتذكر بيت شعر أحفظه أظنه للبيد وهو:

ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف وحدي

مساكين الشيوخ أمثالي لأنهم محرومين من الأصدقاء، فأصدقاؤهم القدامى اختطفهم الموت وليس عندهم فسحة من العمر ليتخذوا أصدقاء جدد.

كأني بصحيفة الوفيات هذه قائمة يقرأها سيدنا عزرائيل على الناس فمن يسمع منهم اسمه يقول ((أفندم)) ويلحقه في العالم الآخر، وكلما قرأت نعي أحد أصدقائي أشعر أن دوري قرب في القايمة.

هل أشعر بخوف من الموت؟ لا أظن. حقيقي أن الفكرة مؤلمة، ولكن يجب أن لا تكون مخيفة ما دامت معروفة من قبل، فهي لا تخيفني إلا بقدر ما يخاف الموت المحكوم عليه بالإعدام. ألسنا جميعا محكوم علينا بالإعدام ومع ذلك لا نفكر فيه وإنما نتشاغل عنه بالجري وراء جمع المال والتلاهي بلعب الطاولة ومتابعة ألعاب الكرة. مما يسهل على الإنسان مفارقة الحياة ليس حرمانه من الاستمتاع بملاذها وعجزه عن تذوق متعها فحسب، وإنما لأن صحته بدأت تكون سلسلة مضايقات وآلام له ولمن حوله. صدق المتنبي في قوله :

وإذا ما الشيخ قال أف فما مل حياة وإنما الضعف ملا

لما لبست طقم أسناني العيرة لأول مرة شعرت أني دفنت جزء مني مقدما. وقد أجد قطع غيار لأسناني ولكن هيهات أن أجد

t.me/qurssan

قطع لباقى الأعضاء اللى حتفسد الواحد تلو الآخر حتى ياتى الدور على القلب فتقف ضرباته.

ألسنا مثل عرايس القره جوز تطلع تتكلم وتغني وتتضارب وترقص فوق الستارة إلى أن يسحب لاعب القره جوز يده منها ويرميها فى صندوقها؟ ترى لماذا يخاف الموت أمثالي ممن لم يحظوا من الدنيا بنصيب و بيقضوا كلى أيامهم متشابهة ((مونوتونيه)) (*) مثل قواديس الساقية واللي بياتوا فيه يصبحوا فيه؟ كيف يخاف الموت هؤلاء اللي بينتظروه ولا يستمتعوا بالحياة؟ من الغريب أن أكثر الناس بؤسا وشقاء إذا فرضنا ورأى سيدنا عزرائيل أمامه جاء ليقبض روحه لر كع أمامه با كيا راجيا متوسلا في أن يمهله بعض الوقت.

أما النعي الثاني فكان لراشد بك اللي عرفته بنادية فأخذت أجله. وصفوه في النعي بأنه ((من كبار أعيان العاصمة))، ما كنت احسب الرجل بيشغل مركز اجتماعي بارز كبير كهذا. علمت من النعي أنه كان له ابنين من كبار الموظفين وابن ثالث من مشاهير الأطباء الشبان. ربما كان المرحوم من كبار الأعيان ولكنه كان في نفسه رجل حقير تافه لا يفكر إلا في ملذاته وإشباع حواسه. كلما تيقظت الحواس الجسمية كلما خمدت العناصر الفكرية، فالمرحوم قنع من حياته بأن يشرب كأس اللذات حتى آخرها.

فالأقضي مسائي هذا في التسلية في الكتابة عن راشد بك كما يقضي بعض أصدقائي وقتهم في لعب الطاولة.

مسكين راشد بلك! شعرت بعض الحزن على وفاته آقل مما كنت أشعر به على حياته. قضى حياة طويلة عريضة ومع ذلك لا أظن أن أحد سيحزن عليه ولا حتى أولاده.

كان عندي منذ أيام يغلي بالحب ويفور بالغيرة، حتى مات مجزور مما سقته له نادية من آلام. هكذا لم يحتمل راشد بك، الوجيه المثقف الغني، أكثر من شهر و نصف بين يدى بنت عشش زينهم! يا ترى هل ما قضى عليه كان آلام حب من غير أمل، أم الشعور بالظ وف و الع جز أم ا م ن ح ب أم أف اع ال غ ي ر ة ال ت ي ك ان ت

t.me/qurssan

تنهش قلبه؟ كلها أدواء مريرة شرسة يصح أن تكون قتالة.

لا أظن أن حب راشد بك لنادية كان حب نظيف منبعث من إحساس شريف، وإنما كان خليط من الشهوة والأنانية ويقظة الذكريات، بل تتغلب فيه الأنانية على ما عداها لأن نار الشهوة اللي كان بيتخيل الرجل العجوز أنها لا تزال متقدة فيه بعد أن أصبحت رماد، كانت نتيجة لغرور أناني يقويه في نفسه التضحيات المالية والأدبية اللي قدمها في سبيل حبه الفاشل دون أن يأخذ عنها عوض.

إلا أن فكري ينصرف لتعليل آخر ربما كان أقرب للمعقول، وهو أن بعض المسنين تصيبهم ثورة سكسية كاذبة نتيجة لضعف قواهم العقلية من كبر السن وهو ما نسميه ((بالخرف))، فلم يكن حبه إلا من أوهام عقله المخرف. لم يكن الرجل عاشق مخرف، ولكنه كان مخرف عاشق، صور له خرفه هذا الحب الجارف وزادته نار الغيرة اشتعالا، حتى تعلق بكل ما أبقت له الحياة من إرادة وقوة، لأنه كان يشعر بعقله الباطن أن هذه كانت آخر علاقة حب باقية له في حياته، فتمسك بها لأنه كان يشعر بأنه لن يجد ((نادية)) أخرى بعد هذه، كما يتمسك الغريق بكل قواه بخشبة عائمة يعلم أنه لن يجد غيرها.

بعد ذلك اشتعل قلبه بنار الغيرة فكانت له الضربة القاضية، لأنه لم يكن من السهل على كرامة الرجل و غروره أن يحتمل كل ماعاناه من ذل واستكانة بسبب ترجيح المرأة اللي اشتراها بنقوده لعشيقين شباب صايعين. لم يكن هنا العاشق الغيور فقط وإنما كان المالك المغبون اللي بيدافع عن ملكه ضد الصين أقوياء بيسرقوا ماله أمام عينيه.

هل أخطأ الرجل في أنه لم يكرس حياته لعمل مفيد أو لخدمة المجتمع؟ طبعا ليس في مقدور الجميع أن يخدموا المجتمع ما دامت تنقصهم الكفاءة في العمل، فضلا عن أن قوانينه فرضت عليهم اليوم سخرة العمل، تلك اللعنة اللي صبها الله على آدم عندما أنزله للأرض فحرم نسله من الاستمتاع بالحياة كما تستمتع

t.me/qurssan

بها الحيوانات الوحشية في الغابة، وظل مكتوب على بنى آدم أن يعملو اليعيشوا حتى آخر أيام حياتهم.

وبعد حياة - سعيدة أو شقية - نتساوى جميعا بالرقاد تحت أحجار لا يميزها عن بعضها إلا شواهد منصوبة على القبور مكتوب عليها أسماء أصحابها و تحتها تاريخ وفاتها. ولكن كيف قضى حياته؟ مجهول. كلنا مثل عيدان الذرة فى غيط كبير بعد حصاده، يتساوى فيه العود اللي لم يحمل مطلقا مع العيدان اللي حملت كوز درة أو كوزين أو أكثر. ولكن أليست هذه مغالطة مني تأثرت بها مما أسمعه من الناس؟ فى الحقيقة أظن أن فوارق الطبقات تمتد لما بعد الموت، فتبدأ أولا بإذاعة النعي اللي تكون مختلفة ذات درجات، بعضها ينشر مجانا في الصفحة الأولى من الجرائد وبعضها ينشر بالأجر في صفحاتها الأخيرة وبعضها يظل مجهول بلا نشر. بعد ذلك تجد أن بعضهم ينصب له أهله صيوان كبير يفتخروا به أمام المعزين، ثم نجد أن القبور ليست متساوية وإنما يمتاز بعضها عن بعض، فبينما بعضها مقام من رخام فخم عليه كتابة بحروف مذهبة ونجد بعضها من أحجار عادية وبعضها من خشب وبعضها من لا شيء. بل إن هذه الفوارق الطبقية تنفذ إلى ما وراء الطبيعة، أي للعالم الآخر، فقد قرأت في بعض الكتب القديمة أن الأحلام كانت تنبي بأن بعض الصحابة وأولياء الله الصالحين سيكون لهم قصور في الجنة تجاور قصر النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا كان في الجنة قصور، فلا بد إذن من أن يكون فيها أيضا بيوت كبيرة ومتوسطة وصغيرة ثم أكواخ وعشش توزع على ساكنيها حسب درجة أعمالهم الطيبة في الدنيا، هذا عدل وإنصاف، إذ ليس من العدل أن يسكن رجل بلغت حسناته في الدنيا عشرين في المائة فقط، قصر يماثل اللي يسكنه رجل بلغت حسناته تسعين في المائة. كذلك لا بد من أن يكون في جهنم أيضا درجات لأنه لا يصح أن يستوي في التعذيب اللص الصغير مع القاتل الكبير مثلا.

إذا كانت عدالتنا الإنسانية تميز هنا في هذه الدنيا بين درجات المقبولين في الجامعات والمتخرجين منها، فهل لا يصح أن تميز

t.me/qurssan

العدالة الإلهية بين المقبولين في الجنة بدرجة امتياز وجيد جدا وجيد ومقبول؟ وأن لا تميز بين المحكوم عليهم بجهنم مع تشديد العقوبة والمحكوم عليهم بتخفيف العقوبة؟

اللهم إني راضي قانع بالقليل لا أطمع منك في الكثير. أقر بأني عبد مذنب خاطئ فلا ألتمس إلا مجرد الدخول في الجنة ولو يكون لي فيها كوخ حقير بل حتى ولو متشرد بلا مأوى يجوب في طر قاتها، إن صح أنه سيكون في الجنة متشردين.

(*) كانت هذه الكلمة مكتوبة في الأصل ((رتيبة مملة)) فرأيت أن أغير هاتين الكلمتين بكلمة واحدة أجنبية أعربها وهي الاسم ((مونوتونيه)) والصفة ((مونوتوني)) وفي هذا اختصار للكلمة وإثراء للغتنا _ الناقل.

t.me/qurssan

٣٤

لا تزال تظلل منزلنا سحابة من الكآبة والحزن بسبب غياب ابني وبنتي. ليس فيه ما يفرح إلا مناغاة بل وبكاء الطفل وحيد عبد الله اللي كأنه كالواحة الضاحكة في الصحرا العبوسة. وحيد دخل الآن في شهره السابع و بدأ يكون بني آدم، إنه موضع تدليل أهل المنزل، كلهم بيتسابقوا في تدليعه، تجذبهم له ابتسامته الحلوة البريئة. إني أحمله أحيانا بين ذراعي و أهشكه فاتذكر أيامى الماضية عند ما كنت أهشك أولادي، وأقول في نفسي: ((تحمل عقاب الله بصبر اذاكان بدل أولادك اللي من صلبك بابن حرام غريب)).

لكن وحيد هذا اللي قال لي غرباوي إنه سيكون عندي كالدجاجة اللي بتبيض بيض من ذهب، انقطع بيضه، أقصد نفقته، وأصبح علينا حمل من جهة مصاريفه. فبعد أن أخذت من غرباوي أجر حضانته بضعة شهور انقطع هذا المرتب بعد سجنه ولم يظهر لأهل الطفل أثر وتركوه نهائيا كما تترك القطة الصغيرة اللي يسربها أصحابها. انقطعت الدجاجة المسحورة عن بيض الذهب وأصبحنا ملزمين بإطعامها وكسوتها.

كانت ضائقتي المالية المعهودة بدأت تلف حلقاتها على، وأخذت تتراكم علي ديون البقال والخضري مما اضطرني لعدم استحضار أغذية خاصة لوحيد فصارى تغذى بطعامنا اليومى الحقير.

بينما كان وحيد يكي أمس بحرقة - ر بما من ألم الجوع - ونحن ننظر إليه بعيون ملؤها الألم والعجز كأنها تقول له ((العين بصيرة واليد قصيرة)) إذا بحماتي تقول لى: - إلا قل لى يا خويا. إحنا حنفضل كدا نوكل الولد دالحد إمتى؟ ويا ريتنا قادرين نوكله عدل إلا بيعيط من الجوع.

- أهو قسمته زي قسمتنا. إن شبعنا شبع وإن جعنا جاع.

- طيب واحنا إيه اللي كان زانقنا عليه؟ يعني كان ابننا و لاكنا ولد ناه؟ مش ولد ابن حرام؟

t.me/qurssan

- يعني حنعمل فيه إيه دلوقت؟ ولا عاوزاني أحطه قدام باب جامع؟

- جامع إيه يا راجل انت فوق لنفسك. حد يحط الولد اللي زي الملاك ابن الذوات صاحب الإيراد على باب جامع؟

- دلوقت حلي وبقى ملاك بعد ما كنتي بتقولي عنه ابن حرام؟

- طبعا، لأنه دلوقت بالنسبة لنا دا ملاك الرحمة.

- إيشمعني يعني؟

- هو حقيقي ابن زنا، لكننا عارفين انه ابن ولا حفيد شوكت با شا.

- لكن دا سر بيننا.

- كان سر لما كانوا بيدفعوا لنا نفقة، أما دلوقت بعد ما قطعوها ورموا جتت ابنهم علينا، نبقى معافين من كتمان سرهم.

- كلامك تمام، بس من الصعب علينا إقناعهم.

- ولا صعب ولا عيب، دي مسألة نضيفة ما فيها لا نصب ولا احتيال، ناس بيربوا لهم ابنهم لحمهم، وعاوزين أجرتهم، فيها حاجة؟ مش حقنا؟ دا حتى نكون بنكسب ثواب فى الولد المسكين علشان ما نسيبوا يتمرمط ويجوع فى إيدينا وهو ابن ناس و أبوه ولا جده را جل كبير غني قد الدنيا.

فكرت في كلام العجوزة تلميذة إبليس فوجدته في الحقيقة معقول. إذا كان لهذا الطفل أهل أغنياء، فيكونوا أولى منا بالصرف عليه، ولنا الحق في مطالبتهم بنفقة عن تربيتنا له. قلت للعجوزة الداهية: - طيب فكرك يعني نعمل إيه؟

- دلوقت تعجبني. تعالى بقى يا خويا نفكر سوا .

- نكتب لشوكت باشا جواب نقول له فيه إن ابن زوجته عند نا بنربيه وقطعوا عنا نفقته فنرجوه الاستمرار في دفعها.

t.me/qurssan

- ما ينفع، إنت يا راجل بعد ما عاشرت غرباوي المدة الطويلة دي كلها، لسه مخك مقفول كدا ومز نخ؟

- أصل أنا ما عندي استعداد في الحاجات دي زيك يا أبلاتي.

- الجواب دا يصح أولا إنه ما يرد عليه، وثانيا إنه غالبا ما عنده خبر بالموضوع دا، فيعتبر كلامنا تشهير فى حقه ويمكن يسلم الجواب للبوليس.

- طيب أمال إيه العمل؟

- العمل إننا ناخد الولد معانا و نروح إحنا الاتنين نقابل شوكت باشا في بيته ونشرح له الحالة ونتفاهم معاه.

- بس دار اجل كبير المقام ويمكن لايرضى يقابلانا.

- ما احنا حنفهمه إننا جايين بخصوص سر عائلي مهم فلايقدر بيرفض مقابلتنا.

- طيب وبعدين؟

- لما يقابلنا يا سيدي، نحكي له الحكاية، وأنا أعيط له وأعمل تباتيك تأثر عليه، ولما يشوف الولد اللي من دمه لازم قلبه حيحن لـه، و حـتى إذاما اعـترف بـه، برضه يصرفنا بقرشين ونكون ما خرجنا من المولد بلا حمص.

- يا سلام عليكي يا أبلتي! إنت مخك هايل لو كنتي في إسرائيل كانواعينوكي بدل جولدامايير.

- والنصرانية دي تطلع مين كمان؟

- دي مش نصرانية دي رئيس وزارة إسرائيل.

- قطعت المذكورة. أيوه يا راجل شبهني بحاجة عدلة، ما لقيت تشبهني إلا بالمنيلة دي؟

- طيب خلينا فى موضوعنا. افرضي إننا ما قدرنا نقنعه؟

t.me/qurssan

- إزاي؟ دا احنا عندنا شهود، نقدر نقنعه ونقنع أبوه، وحتى إذا ما اعترف بالولد كدا بصراحة نقدر نخليه يدفع لنا قرشين ومتى ما دفع الدور دايبقى وقع في الفخ لأنتا نعتبر دا اعتراف منه و تعهد بالنفقة و كل شهر نروح نطالبه بها.

- والله انتي هايلة يا أبلتي! إنما بس بأي وش نروح نقول لباشا عظيم زي دا ((مراتك ولدت ابن فى السر و مخبياه عندنا))؟

- اذاكان يا خويا مراته ما استحت تيجي تولده و تسيبه فى بيتنا، نقوم إحنا نستحي إننا نحكي حكايتها؟ دا احنا نقول ونقول كمان ولا يهملك.

فكرت في الأمر مليا فوجدتها على أساس سليم. إني سأتقدم لشوكت باشا بطلب نظيف مشروع فلا يستطيع أن يتهمني بمحاولة النصب والاحتيال أو التهديد بالتشهير به لابتزاز ماله، لأن حجتي قوية ولدي عدة إثباتات لدعواي. فبصرف النظر عن غرباوي، عندي سيد وزهيرة والداية والدكتور الأرمني. كلهم شهود عيان للواقعة. كل هؤلاء رأوا بأعينهم حرم الباشا وهي تلد في منزلي، ولمسوا بأيديهم المولود، فلا سبيل للإنكار. إذن لا خوف على من الباشا لأني مالى يدي من الموضوع فيمكني الذهاب إليه بقلب من حديد وأنا مسلح بسيف القانون.

اتفقت مع حماتي على أن ندرس الموضوع جيدا من جميع نواحيه وننفذ خطتنا بعد غد.

t.me/qurssan

عرفت أمس عنوان منزل بل سراي شوكت باشا بسهولة من دليل التلفونات، عرفت منه أنه يسكن في شارع مظهر باشا بالزمالك.

اليوم استعدينا، أنا وحماتي ووحيد، أن نزور الباشا في قصره بالزمالك. منذ الصباح الباكر كانت حماتي ألبست وحيد أحسن ملابسه وغطت رأسه بطاقية مدكك فيها كورديلة زرقا تخزي العين. في الحقيقة أصبح الولد شكله جميل. حملناه وخرجنا من منزلنا ميممين شطر الزمالك. طول ما كنا في الترام كان لسان حماتي لا يكف عن الرغي. من ضمن رغيها ما أذكر: - بص كدا في وش الولد كويس، تلاقي مناخيره لها شكل غريب، بوزها معووج لتحت، وشوف كمان لون عينيه تلاقيه أزرق غامق، لون نادر، فلازم الملامح دي موجودة فى عايلة الباشا و على كدا أول ما يشوفها في الولد يروح واخده في حضنه.

نزلنا من الترام و ذهابنا لشارع مظهر باشا حيث وجدنا منزل شوكت باشا بسهولة. وجدنا أنفسنا أمام قصر كبير له حديقة واسعة وبوابة حديدية كبيرة تسمح بمرور سيارة عند فتحها. دخلنا الحديقة من باب صغير كان مفتوح بجوار البوابة الكبيرة. رأينا بستاني يرش نباتات الحديقة بخرطوم فسألناه عن الباشا.

أشار علينا أن نذهب للسراي ونضرب جرس بابها. ذهبنا للباب وضغطنا على زر جرس بجواره. بعد لحظة انفتحت إحدى ضلف الباب، ورأينا أمامنا سفرجي نوبي عجوز، شعره وأسنانه البيض كانوا يشكلوا تضاد قوي مع لون جلده الأسود. كان لابس قفطان شاهي حرير مقلم وعمة بيضا رفيعة وعالية أشبه بطرطور. لما رآنا ظهرت عليه علامات الدهشة لأنه كان طبعا غير معتاد على أن يطرق بابهم ناس من أشكالنا. سألنا عما نريد.

فلما أفهمناه كرر علينا السؤال، وبعد أن تأكد أننا نريد مقابلة الباشا شخصيا في أمر عائلي مهم قال لنا بكل أدب ((اتفضلوا)). كان ظاهر على الرجل إنه من خدم قصور زمان المتعودين على

t.me/qurssan

الذوق والتربية العالية. مشينا وراء الفراش في مدخل به مرآة كبيرة بروازها مذهب عرض خشبه شبر، وصلنا بعده لصالة رحيبة جعلتني أتوهم أني باحلم في أحد قصور ((ألف ليلة وليلة)).

الحوائط والسقف كلها مزينة بمختلف النقوش، وتتدلى من السقف نجفة بللور في حجم الجمل. كانت قدمي يغوصوا قليلا في السجاجيد اللي أسير عليها فيخيل لي كأني أسير على رمال في الصحراء.

ربما أثر ظلام القصر بالنسبة لنور الخارج على وحيد لأنه أخذ في البكاء. سمعت حماتي تهمس له في أذنه ((عيب ما تعيط دانت هنا في سراية أبوك))، لكن يظهر إن وحيد لم يتأثر كثير من وجوده في سراي أبوه لانه استمر فى بكاءه، فرأيت حماتي تدس في فمه البزازة الكوتش فقطعت بذلك بكاءه. كنا اجتزنا الفراش تلك الصالة الواسعة وأدخلنا فى حجرة جانبية وجدتها مفروشة بالطراز العربى، الكنب واطي عليه مراتب مكسية بسيجاد فاخر والفوتيات والكراسي و الطرابيزات منقوشة كلها بنقوش عربية ومطعمة بالصدف.

كان معلق على الحوائط لوحات خطية لا تشبع العين من النظر لحسن خطها وبديع تنسيقها وزخرفتها. سألني الفراش أخيرا عما يقوله لسيده الباشا. فقلت له أن يخبر سعادة الباشا بأن شخص اسمه خليل ومعه طفل صغير يريد مقابلته بخصوص مسألة عائلية مهمة سيشرحها له بنفسه. لم يلح الفراش في طلب معلومات أكثر من ذالك وتركنا وخرج. نظرت حماتي للوحات الخطيية المعلقة على الحوائط وهزت رأسها قائلة: - إزاي ناس زي دول معلقين آيات القرآن الكريم على حيطانهم ويسمحوا لنفسهم يعملوا شغل حرام كدا؟

- الظاهر إنهم بيعلقوها ولكنهم مايهتموا بقرايتها.

- شوف كمان يا خويا القيشانى الملون المنقوش دا، الملز وق على الحيطة، بيفكرني بحمام السوق اللي كنت باروحه زمان وانا شابة.

t.me/qurssan

بينما كنت أدردش هكذا مع حماتي إذا بباب جانبي يفتح ويدخل منه رجل قصير القامة ممتلئ الجسم تحيط بوجهه الأبيض لحية بيضاء تلمع كأن شعرها خيوط من فضة. كان لابس روب مفصل من شال كشميري وعلى رأسه طاقية بيضاء مطرزة بدنتله أو ظرافة أو أوية لا أدري أيهم لأني لا أفهم في شغل الإبرة. كان في قدميه شبشب من قطيفة سودا مطرزة هي الأخرى بحرير مختلف الألوان.

استنتجت من منظر الرجل أنه من أصل تركي من باشوات زمان، ولو أردنا أن نضعه اليوم في إطار حياتنا العصرية، لتخيلناه كممثل سينما يمثل دور نبي عجوز في إحدى روايات تاريخ المسيحية الأولى، ربما تخيلته على هذا الشكل لأنه ذكرني ببعض شخصيات رواية ((الثوب)) اللي كنت شاهدتها مع صديق ألح في اصطحابي للسينما.

وقفنا للرجل احتراما عند دخوله. بعد أن سلم علينا جلس متربعا على إحدى الكنبات وقد خلع شبشبه من قدمه، ثم أشار لنا بالجلوس.

كان الباشا في غاية التواضع، كأنما أراد أن يشجعنا على الحديث معه. فأخذ يسألنا عن أحوالنا كأنه يعرفنا من قبل. بعد ذلك نظر إلينا نظرة كلها معنى، فهمت منها أنه ينتظر أن نفاتحه في الموضوع اللي جئنا من أجله.

بينما كنت ألم أطراف شجاعتي وأسلك حلقي للبدء في الكلام، إذ دخل علينا فراش آخر يحمل صينية فضة عليها فنجالين قهوة كبيرة منقوشة. بمجرد أن أخذنا القهوة، أعطى الباشا لخادمه علبة سجاير أخرجها من جيبه وأمره أن يقدم منها. خرج الخادم وجلسنا نشرب قهوة وسجاير كأننا في زيارة عادية. في الحقيقة لم أذق طول عمري قهوة بهذه اللذة.

لكننا لم نأتي في هذه السراي لنشرب قهوة وسجاير، وإنما للكلام في موضوع لا نستحق أن نكرم من أجله بالقهوة والسجاير، بل

t.me/qurssan

يستدعي أن نشتم و نطرد ويو دعونا على الباب بشلوط يلقينا خارج السراي. غمزت لي حماتي بعينيها أن أتكلم. تنحنحت وقلت: - والله يا سعادة الباشا أنا مكسوف منك قوي علشان قلقت راحتك ولكن... يعني جيت... علشان إني ...

وتلجلجت في الكلام، فابتسم الباشا وقال لي مشجعا:

- ما في قلة راحة ولا حاجة. اتكلم. إذا كنتم جيتم علشان تطلبوا مني مساعدة مالية، اشرح لي حالتك وأنا مستعد أساعدك على قد ما يقدرني ربنا. لا تنكسف اتكلم.

لم يكن الباشا مخطئ في أن يظننا بعض الفقراء اللي أخنى عليهم الدهر فجاءوا إليه يلتمسوا منه العون. لا شك في أن شكلنا ومعنا وليد رضيع كان يدعوه إلى هذا الظن، خصوصا وأنه كان ولا بد متعود على أن يتردد عليه هذا النوع من المتسولين، لأن الشحاتين لا يقتصروا اليوم على مزاولة مهنتهم في الشوارع فقط وإنما يقتحموا المنازل على أصحابها ويتفننوا في أساليب السؤال. فركت يدي وقلت له بصوت مبحوح: - لأيا سعادة الباشا. إحنا ما جينا علشان كدا، وإنما علشان حاجة تانية.

- إيه؟ اتكلم.

- جينا علشان نطلع سعادتك على سر عائلي مهم. يعني إذا سمعت لي سعادتك.

- سر عائلي مهم؟!

- أيوه يا سعادة الباشا.

- سر عائلي إيه؟ وعن أي عائلة؟

- عن عائلة سعادتك.

اعتدال الباشا في قعدته، وقال لي بصوت جدي:

- إيه الكلام دا؟! داشيء غريب!

t.me/qurssan

- مش غريب، ولكنه مؤثر ومحزن، وأنا متأسف قوي إني مضطر أتكلم عنه.

- اسمع يا أفندي. أنا مش فاضي أهزر معاك.

- أستغفر الله يا باشا! أنا مش قليل الأدب لدرجة إني أسمح لنفسي بالهزار مع شخصية عظيمة زي سعادتك.

- أمال إيه الحكاية؟

- الحكاية إن الظروف خلتني أطلع على سر خاص بعايلة سعادتك أفتكر إنك لا تعرفه.

- أنا عايلتي ما فيها أسرار علشان أخبيها. عايلتنا نضيفة ومعروفة في كل البلد.

- طبعا يا باشا، بس دالا يمنع إن كل عايلة مهما كانت كبيرة يمكن برضه يكون فيها أسرار. أنا كنت عاوز أحافظ على السر وأخبيه خصوصا على سعادتك لولا إن ضيق المعيشة هو اللي جبرني إنى ألجأ لسعادتك.

هنا لم تتمالك حماتي أن تضبط لسانها، فقالت وهي تهنن الوليد في حجرها: - والله والله يا سعادة الباشا إحنا كنا مش حنفتح بقنا لولا العذر.

أشرت لحماتي بالسكوت. هز الباشا رأسه باستهزاء ثم قال لي بكلى برود: - طيب اتفضل قول السر العائلي دا اللي لا أعرفه.

- باختصار يا سعادة الباشا فيه ولد من صلبك ما تعرف بوجوده.

- ولد من صلبي أنا لا أعرفه؟ دا كلام مجانين ما يخش العقل!

- العفويا سعادة الباشا. النهاردا ما في حاجة ما تخشى العقل. ياما حاجات كتير كنا ما نتصورها بتحصل.

- دا حقيقي. كل شيء يصبح إنه يحصل في الدنيا دي حتى يصبح كمان إن علامات يوم القيامة تظهر، فتشرق الشمس من

t.me/qurssan

الغرب ويظهر المسيح الدجال، ولكن مش ممكن بأي حال من الأحوال إنه يكون لي ولد ولا حفيد أجهله.

- ولو إنه فيها قلة أدب، ولكني مجبور أقول لسعادتك، مع عدم المؤاخذة، إن سعادتك غلطان.

- مش ممكن يا جديع انت! دا مستحيل!

حماتي حشرات نفسها فى الحديث ثانيا و قالت:

- يا سعادة الباشا المسألة مش في إيدنا ولا في إيدك، وإنما دي. مسألة ثابتة بالدليل.

زغرت لها زغرة قاسية لتسكت حتى لا تلبخ في الموضوع. الباشا اعتدل فى جلسته و جذاب طرف روبه على ركبتيه وقال: - دا شيء بالعقل يا ناس. أنا عندي شجرة عايلتنا مكتوبة ومثبوت فيها رسميا أفرادها واحد واحد، فمنين يمكن إنه يدخل فيها شخص غريب؟

- كلام سعادتك تمام من الوجهة الرسمية، لكن الولد اللي بنتكلم عنه دامنسوب لشجرة عايلتكم برضه وانما بطريق غيررسمي. فلو تكرمت سعادتك ودخلت الولد البريء المحروم دا في شجرة العايلة تكون صححت الأوضاع و كملت العايلة، وكمان تكسب سعادتك ثواب الولد المظلوم دا.

حماتي المسحوبة من لسانها لم تستطع السكوت هنا أيضا، فتداخلت في الحديث مرة أخرى قائلة: - والله يا سعادة الباشا إحنا كنا بنربي الولد دازي ما يكون ابننا من لحمنا لولا العذر وإنهم قطعوا عنا نفقة الولد.

- نفقة إيه يا ست انتى؟

- النفقة اللي كانوا بيعطوها لنا اللي سلمونا الولد.

- أنا مالي ومال النفقة واللي سلموا الولد؟! أنا باقول لكم بالعربي الفصيح إن داشيء مستحيل لأن شجرة عايلتي معروفة

t.me/qurssan

وأفرادها محددين!

- بس حصل إن فيه ناس خبوا عن سعادتك ثمرة طرحتها شجرة العايلة في السر، ولو سمحت سعادتك أشرح لك الموضوع.

- ولو إني متأكد من كلامي تمام، حاسمع منك حكايتك من باب الفضول لأني شايف من كلامك إن فيه بعض السفلة تجرأوا واخترعوا كلام يوسخوا به سمعة عايلتي. أنا عارف إن فيه ناس مغرمة تطلع إشاعات. اتفضل احكي.

- والله يا سعادة الباشا إحنا ما لنا دخل في الموضوع. إحنا كنا قاعدين فى بيتنا لحد ما جولنا الجماعة دول وأطلعونا على السر وسلمونا كمان الولد.

- ومين الجماعة دول؟

- الرجل والست اللي سلمونا الولد.

- مفهوم، إنما بيقوامين؟

- مش غرب عن سعادتك. من أقرب الناس لسعادتك.

- يعني الملاعين دول حيكونوا أولادي ولا إخواتي؟

- تمام يا سعادة الباشا. الرجل ابنك.

- طيب والمرة السافلة؟

- ولا مؤاخذة حرم سعادتك.

ما كدت أنطق بكلامي هذا حتى أطلق الباشا من فمه قهقهة عالية طويلة فشخت فمه لآخره حتى تبينت أن أسنانه اللي كنت أعجب بجمالها ما هي إلا طقم صناعي.

دهشت وظننت أن الرجل فقد صوابه من شدة الصدمة، لكنه لم يلبث أن اعتدل في جلسته وهز لنا رأسه باستخفاف وازدراء وقال: - بقى كدا!

t.me/qurssan

بينما كنت جالس مبهوت لا أدري ما أقول، إذا بحماتي قامت من كرسيها حاملة الوليد وتهزه أمام ركب الباشا مثل شحاتين الشوارع وهي تقول: - الولد اللي قال لك عنه جوز بنتي أهو دا. اسم الله عليه يبقى حفيدك. اتولد قبل سبع أشهر ليلة ١٧ رجب على إيدينا وفي بيتنا وقدام شهود كتير. شوف سعادتك بص لعينيه ومناخيره، لازم بيشبهوا لحد فى عيلتكم، و كمان عنده حسنة كبيرة قد القرش فى فخده اليمين، لازم دي كمان موجودة في العايلة وكمان...

لكن الباشا، اللي كان قاعد تأمل فيها بسكوت و هو يداعب شعر لحيته البيضاء، أشار لها بيده بالسكوت وقاطعها قائلا: - وفري على نفسك كلامك يا ست انتي! لأنه لا عنين الولد ولا حسنته يقدروا يثبتوا حاجة ضد الواقع.

- عندنا غير كدا شهود كتير و ميت دليل و دليل.

- أنا ما عندي ميت دليل لكد بكم و انما دليلين اتنين بس كافيين علشان يمسحوا كل أدلتكم ولو كانوا ألف.

- إزاي بقى؟

- إنتم جايز تكونوا اتنين نصابين استلفتوا الولد دا من حد من أصحابكم و جايين تلعبواعلي النمرة دي، و جايز كمان تكونوا صادقين و انضحك عليكم و جايين تحكوا لي حكايتكم دي بحسن نية، إنما على ...

لم أحتمل اتهام الباشا لنا بالنصب والاحتيال فقاطعته قائلا:

- يا باشا أنا موظف قديم شريف ومش نصاب وإنما باكلمك عن اعتقاد وبإخلاص!

- جايز يا أفندي جايز. بس اسمع مني كلمتين اتنين ما فيش غيرهم. الأولانية إن حرمي يستحيل إنها تولد قبل سبعة أشهر زي ما بتقولوا وحتى قبل سبع سنين.

لاحقته حماتى بقولها:

t.me/qurssan

- ليه؟ مش ست زي الستات؟

- أيوه ست نعم، لكن عمرها النهاردا تمانية وخمسين سنة، يعني خلاص ما تولد.

- ما لنا دعوى بدي، إحنا بنتكلم عن حرم سعادتك الشابة الحلوة الجديدة.

- مالي زوجة غيرها. والحمد لله ما اتجوزات غيرها من أربعين سنة.

تجمدنا فى أماكننا كالمصعوقين، و غصصنا بريقنا ونحن نحملق فى الباشا العجوز اللي استمر في كلامه قائلا: - والكلمة التانية هي إن ابني سليم النهاردا عنده ثمانية وتلاتين سنة و متجوز و صاحب أولاد و رجل مستقيم عايش معايا هنا، وقليل لما يسهر بره البيت. أما ابني التاني فتوفي الرحمة الله قبل خمس سنين. بعد كدا عندي بنت بقى لها سنتين في الخارج مع جوزها اللى بيشتغل في السفارات. آدي بالاختصار وصف افراد عايلتي و يمكنكم تتحققوامن صحة كلامي دا بالسؤال بره من الناس. ومع ذلك حاوري لكم ابني الوحيد علشان تتحققوا بنفسكم.

قال هذا وضغط على زر جرس بجوار مقعده. بعد لحظة ظهر الفراش النوبي العجوز وتقدم من الباشا قائلا: - أفندم سعادة الباشا.

أمره الباشا أن يستدعي ابنه سليم بك لعنده قليلا. اختفى الفراش و تلهينا في تسكيت وحيد، اللي كان بدأ يتضايق و يبكي كانما فهم إن الباشا يتبرأ منه، حتى دخل علينا رجل قصير القامة، أبيض، مورد الخدين، خفيف الشعر، على شفتيه شارب طويل مبروم لأعلى، عبوس الوجه، حاد النظرات، اقترب من الباشا قائلا: - سعادتك طلبتني؟

كانت كل مظاهر هذا الرجل مضادة لمظاهر الشاب الطويل النحيل المحلوق الشارب اللي كنا رأيناه في بيت غرباوي ليلة ميلاد

t.me/qurssan

وحيد. نظر إلينا الباشا قائلا: - أفتكر إن عمرك ما شفتم ابني دا قبل دلوقت؟

ظللنا أنا وحماتي نبحلق فيه كأننا ننظر لمخلوق غريب هبط علينا من القمر أو مارس.

بعد برهة استردت حماتي جأشها وقالت:

- الحق معاك يا باشا، حقيقي عمرنا ما شفنا البيه دا. يا عيني على خيبة بختنا! دلوقت حنقدر ندور على أبو الولد دافين في وسط مصر الكبيرة دي؟

أجابها الباشا:

- فى حتة تانية يا ست غير بيتى.

رأيت أنه لم يبقى لنا إلا الانصراف خايبين وقفانا يقمر عيش. قلت للباشا: - والله يا باشا أنا آسف قوي إن أولاد الحرام ضحكوا علينا وغشونا بالشكل دا. لكن أحلف لك إني بريء وجيت أحكي لك الحكاية دي بحسن نية.

- معلهش يا أفندي معلهش.

قمنا وسلمنا على الباشا باحترام ونحن نكرر اعتذاراتنا، وذهبنا لباب الخروج فسمعت الباشا يناديني فرجعت له، قال لي: - إنت يظهر عليك إنك رجل طيب وغلبان. خذ القرشين دول توكل بهم العيل لحد ما تلاقي لك صرفة فيه.

وأخرج من جيبه ورقة مالية قدمها لي. رغما عن أني تبينت أن تلك الورقة كانت من ذات العشرة جنيهات، لم أسمح لنفسي بقبولها واعتذرت له، ولكنه صمم على أخذي لها ودفسها في جيبي فشكرته وخرجت.

ما أكبر الفرق بين حالتنا المعنوية في ذهابنا لسراي الباشا تحدونا الآمال و خروجنا منها يائسين خايبين الرجا. حقا إن دخول الحمام ليس كخروجه. ونحن في الترام بكى وحيد، فقالت له

t.me/qurssan

حماتي وهي تهزه: - اسكت يا ابن الحرام يا لزقة! إذا كان أبوك وأمك رموك نبقى احنا اللي حنربيك؟

- طبعا، أمال حنعمل إيه؟ الواحد إذا كان عنده كلب ولا قطة فى بيته بيصعب عليه إنه يسربهم.

- دا احنا يا خويا في زمن غلا ويدوب لاقيين لقمتنا، نقوم حنو كل ابن الحرام دا كمان؟ دا احنا أولادنا الأصليين سابونا وهربوا، نقوم نربي اللامامة دا؟

- ما هو دا عقاب ربنا يا ولية. شايفة العدالة الإلهية؟

- بس العدالة الإلهية دي ما لقت تنزل إلا علينا احنا؟ ما فيه في حارتنا إبراهيم أفندي المشهور بالنصب وأكل مال الناس بالحرام ومع ذلك كسب الورقة البريمو في سحب ورق البنك. إيشمعنى دا بدل ما يعاقبه ربنا يعطيه؟

- ربنا يا ولية يمهل ولا يهمل.

- بس احنا حقة ما أعطانا مهلة أبدا إلا على طول نازل فينا عقوبات مستعجل قوي. أهو لو كان يعمل كدا مع كل المجرمين ما كان فضل على ضهر الأرض مجرم واحد.

- معلهش. ما احنا نستحق سخطه وعقابه.

- طيب والعدالة الإلهية مش كانت تعاقبنا احنا شخصيا اللي أذنبنا؟ أستغفر الله يا رب! ليه عاقبتنا في أولادنا اللي مالهمش ذنب؟

- لأنهم أولادنا يوجعونا. العدالة الإلهية إن ما صابت الواحد في عينه وعافيته تصيبه في ماله، وإن ما صابته في ماله تصيبه في أولاده.

- ما احنا متصابين جاهزين في مالنا.

- علشان كدا صابتنا في أولادنا وخلتنا نستبنى ابن الحرام، ولا كنتي تفضلي إننا نتشل ولا نعمى ولا نتكسح؟

t.me/qurssan

- رحمتك يا رب. أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم.

- أيوه كدا. واجب علينا نحمده على كل حال. دا حتى من رحمته عوضني عن نفقة وحيد بمرتب وظيفتي الجديدة بالحلال.

أخيرا دخلنا منزلنا محزونين مطأطئين الرؤوس كأنما كنا راجعين من جنازة.

اللهم ما أعظمك في عدلك، وما أرحمك في عقابك. حمد لك يا من لا يحمد على مكروه سواه. اللهم إني لن أعصاك بعد اليوم حتى ولو جعت وسفيت التراب. سأقاوم وأقول دائما ((ربنا يغنيها بالحلال))، وسأتمثل دائما بذلك البيت الشعري القديم: أصون عرضي بمالي لا أدنسه

لا بارك الله بعد العرض في المال

t.me/qurssan

مختارات الكرمة

1 - ١. مليم الأكبر – عادل كامل

2 - ٢. دنقلا – إدريس علي

3 - ٣. مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس – أحمد حجي

4 - ٤. الشبكة – شريف حتاتة

5 - ٥. الناس في كفر عسكر: أولاد عوف – أحمد الشيخ

6 - ٦. النزول إلى البحر – جميل عطية إبراهيم

7 - ٧. ملك من شعاع – عادل كامل

8 - ٨. إجازة تفرغ – بدر الديب

9 - ٩. رابعة ثالث – علي الشوباشي

10 - ١٠. رباعية أيام الطفولة – إبراهيم عبد الحليم

11 - ١١. الرحلة (الجزء الأول) – فكري الخولي

12 - ١٢. الرحلة (الجزءان الثاني والثالث) – فكري الخولي

13 - ١٣. حديث شخصي: أربع تنويعات – بدر الديب

14 - ١٤. الباب المفتوح – لطيفة الزيات

15 - ١٥. أوراق شخصية – لطيفة الزيات

16 - ١٦. الشمندورة – محمد خليل قاسم

17 - ١٧. بيت سرى – عثمان صبري

18 - ١٨. هوامش الفتح العربي لمصر – سناء المصري

19 - ١٩. صدمة طائر غريب – كمال القلش

t.me/qurssan